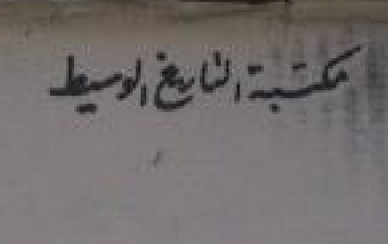


ريموند اچيل

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس

نقله الى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش

جون هيوج هيل لوريتا ل هيل

جامعة هوستون

نقله الى العربية وعلق عليه

دكتور

حسين محمد عطية

كلية الآداب - جامعة طنطا

تقديم

الأستاذ الدكتور

جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٩

دار المعرفة الجامعية

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور
جوزيف نسيم يوسف

صاحب بداية الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى تطور فن الكتابة التاريخية فى الغرب الأوروبى .. إذ لم يقتصر التدوين على نظام الحوليات الذى كان سائدا من قبل ، بل تحول إلى الكتابة تفصيلا فى مواضيع متخصصة . ولقد خلفت تلك الحركة التى شغلت ثلاثة قرون من الزمان ، عشرات المصادر لمؤرخين شاهدوا أحداثها أو كانوا على مقربة من مسرح الأحداث . وكانت الحملة الصليبية الأولى أوفر حظا من غيرها . إذ شارك فيها كثير من الفرسان الذين كانوا شهود عيان لمعظم المعارك التي دارت رحاها فوق رقعة الشرق الأدنى الإسلامى مثل المؤرخ المجهول الذى صاحب بوهيموند النورماندى فى الحملة ، وفوشيه دى شارتر Foucher de Charters ، واتين دى بلوا Etiennw de Blois، والبرت دكس Albert d'Aix ، وريمون داجيل Raimond d'Agiles وثمة عدد غير قليل ممن لم يشتركوا فيها ، ولكنهم حفظوا لنا أخبارها التي كانت ترد إليهم فى الغرب عن طريق الرواة والحجاج وشهود العيان فى كتب لا تزال باقية إلى اليوم مثل مؤلفات روبرت الراهب Robert le Moinw ، وجيبرت دى نوجان Guibert de Nogent ، وتيديبوده Tudebodus ، وبودرى دى بورجى Baudri de Bourgueil ، وراول دى كان Raoul de Caen ، وكفارو الجنوى Caffaro de Caschifelone .

ويحتل مؤلف ريمون داجيل الذى وضعه باللاتينية بعنوان "Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem" ، أى « تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس » ، مكانة مميزة بين مؤلفات غيره من مؤرخى الحملة الأولى . لقد عاصر أحداثها ، وكان شاهد عيان لها ، ويعتبر من أوائل من كتبوا عنها . كان من كبار الفرسان المقربين إلى ريمون دى سان جيل كونت تولوز وأحد زعماء الحملة الأولى . كما كان على علم بما يدور فى مجالس الحرب الثي عقدها زعماء.

تلك الحملة . الأمر الذي يضفي على كتابه أهمية خاصة تجعله لايقل في قيمته عن تأليف زملائه ممن شاركوا فيها وكتبوا عنها .

ولما كان ريمون داجيل محدود الثقافة والتعليم فقد وضع كتابه بلغة لاتينية ركيكة . والمتصفح للكتاب يلاحظ أن مؤلفه كان يتردد أحيانا في سرد بعض الأحداث حتى لايقع في أخطاء - كما قال هو عن نفسه - قد تقلل من قيمة الكتاب . وإن كان هذا لايمنع من أنه في بعض الأحيان كان يتقبل مايروى له أو مايسمعه كحقيقة ثابتة . أما الوقائع التي كان شاهد عيان لها أو التي شارك فيها بشخصه ، فقد اتسمت عموما بالدقة والوضوح والإسهاب . وإن كانت عاطفته الدينية - بالإضافة إلى كونه من رجال الدين - تجعله يتخذ في كثير من المواقف جانب التحيز لبني جنسه من اللاتين الكاثوليك ضد كل من المسلمين والبيزنطيين الأرثوذكس وامبراطورهم الكسيس الأول كومنين ، الذين كانوا في نظر الكنيسة الرومانية ذوي عقيدة متطرفة . كما أن المدقق في الكتاب يدرك أن مؤلفه كان يدافع عن سيده وينتحل له مختلف الأعذار إذا أخطأ أو تهاون في أمر من الأمور . وبلغ من احترامه له أنه عندما كان يتعرض له يكتفي في معظم الأحيان بقوله « الكونت » دون حاجة إلى ذكر إسمه . فهو في نظره غني عن التعريف .

ورغم كل ذلك ، لا لوم عليه ، فقد كانت تلك هي سمة العصر في الغرب اللاتيني ، إذ اهتم المؤرخون اللاتين بصفة عامة بتمجيد الملوك والأمراء من قادة تلك الحملات ، واتصفوا بتحيزهم لبني جلدتهم من أهل الغرب . واتسمت كتاباتهم بسمة دينية واضحة اختلط فيها السحر بالدين والأسطورة بالحقيقة لاتفصل بين النقيضين سوى خيط رفيع ، الأمر الذي يفرض علي الدارسين والباحثين توخي الحيطة والحذر عند تناولهم لهذه المؤلفات . ومع ذلك ، يجب أن نسجل هنا أن ريمون داجيل حفظ لنا في مؤلفه الكثير من الوقائع والأحداث المتعلقة بالحملة الأولى والتي إنفرد بها ولم ترد في الأصول الأخرى من لاتينية وعربية وبيزنطية وأرمينية وسريانية ، الأمر الذي يسبغ على الكتاب أهمية مضاعفة .

ومؤلف ريمون داجيل منشور في الجزء الأول من مجموعة بونجار Bongars المعروفة باسم « الأعمال التي أتاها الفرنجة بفضل الله » ص ١٣٢ - ١٨٣ (طبع هانوفر ١٦١٢) . وفي الجزء الثالث من مجموعة « مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الغربيون » ص ٢٣١ - ٣٠٩ (طبع باريس ١٨٦٦) . وقد قام بنقل هذا الكتاب من الأصل اللاتيني إلى اللغة الإنجليزية كل من جون هيو هيل John Huge Hill ولوريتا ل. هيل Laurita L. Hill تحت اسم "History of the Franks Conquerers of Jerusalem" أي « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » ، طبع فيلادلفيا سنة ١٩٦٨ .

وبعد ، يسعدني حقيقة أن أقدم للقارىء العربي الكريم الترجمة العربية لهذا المصدر الهام ، والتي أعدها أحد شبابنا النابهين عن الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتيني ، وهو الدكتور حسين محمد عطية حسن مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة طنطا . والدكتور حسين عطية عشق تخصصه ونبغ فيه . وإن إقدامه بشجاعة على نقل هذا المصدر إلى العربية للمرة الأولى يعتبر إضافة لها وزنها إلى مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بصفة خاصة وتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بوجه عام .

لقد مهد المترجم لكتاب ريمون داجيل بمقدمة متعمقة تعتبر بحثا في حد ذاتها ، كشف فيها عن أهمية الكتاب من الناحية التاريخية ، وسبب اختياره لهذا المؤلف بالذات دون غيره من مؤلفات الحملة الأولى لينقله إلى العربية . كذلك حالفه التوفيق في عرض الظروف التي أحاطت بقيام الحملة في الشرق والغرب ، والقوى التي أدت دورها فوق مسرح الأحداث وقتها من صليبية وبيزنطية وإسلامية ، وبيّن كيف تصارعت تلك القوى وتشابكت وتداخلت فيما بينها ، وكيف تحكمت في سلوكها وتصرفاتها مصالحها الخاصة أولا وقبل أي شيء آخر . كذلك قدّم دراسة تحليلية نقدية مقارنة بين مؤرخي الحملة من شهود العيان وغيرهم من المعاصرين والمتأخرين نسبيا عن احداثها من اللاتين والبيزنطيين والمسلمين تتميز بالدقة والعمق . واختتم مقدمته بدراسة طيبة عن ريمون داجيل ومؤلفه أجاب فيها بحيدة وفهم وموضوعية ورؤية صافية عن كثير من علامات

تصدير الترجمة العربية

منذ أكثر من عشر سنوات مضت ، وخلال قيامي بإعداد بحثي لنيل درجة الماجستير عن « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١ م) » ، وتعاملي مع الأعمال التاريخية التي وضعها مؤرخو الحملة الصليبية الأولى ، ومن بينها تاريخ ريموندا جيل ، شعرت بأن هناك مايميّز الأخير عما سواه من مصادر هذه الحملة . ولكني - كمبتدىء - لم أدرك من طبيعة هذا التميز إلا القليل . وخلال إقامتي في المملكة المتحدة ، في بعثة اشراف مشترك (بجامعة ويلز) ، لإعداد بحثي لنيل درجة الدكتوراه عن « إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالقوى الإسلامية المجاورة (١١٧١- ١٢٦٨ م) » ، استكمالاً لموضوع الماجستير ، وتحت إشراف كل من أستاذي الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية واستاذي الدكتور بيتر وليام إدبوري Peter W. Edbury أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ويلز ، تجدد شعوري السابق نحو تاريخ ريموندا جيل . إلا أن الفرصة كانت أمامي كبيرة لأدرك مايشغلني حول هذا التاريخ ، خاصة عندما حصلت علي الترجمة الانجليزية لهذا العمل ، والتي نشرها الأمريكيان جون هيوج هيل والسيدة قرينته لوريتا هيل في عام ١٩٦٨ م . وعكفت على قراءة هذه الترجمة ومقارنتها بالنص اللاتيني المنشور في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (RHC-H. Occ.) . ودفعني إلى نقل هذه الترجمة إلى لغتنا العربية عدة أسباب . أولها أن الترجمة الانجليزية اعتمدت على المخطوط الكامل لتاريخ ريموندا جيل . إلى جانب قيام الناشرين بمقارنة ماورد في هذا المخطوط بكل النسخ المخطوطة المتوفرة لتاريخ ريموندا جيل ، بما في ذلك النسخة المنشورة في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية والنسخة التي نشرها بونجار في مجموعته . وبذلك توفر للترجمة الإنجليزية الإلمام بكل ما سجل من تاريخ ريموندا جيل .

الاستفهام التي ثارت حول موقف المؤرخ عن سيده ريمون دي سان جيل وحيال كل من الصليبيين والبيزنطيين والمسلمين ، وخلص من ذلك إلى رسم صورة دقيقة لشخصية المؤرخ ومنهجه في الكتابة وأسلوب عرضه لأحداث ذلك الزمان .

وأخيرا وليس بآخر ، فإن المتمعن في هوامش الترجمة العربية سوف يدرك أنها عالجت العديد من القضايا الهامة التي أثارها ريمون داجيل في كتابه واغفلتها الترجمة الانجليزية أو مرت عليها مرورا سريعا ، بينما تناولها الدكتور حسين عطية بالدراسة والتمحيص موثقا إياها بالمصادر والمراجع المتخصصة من عربية وغير عربية .

لكل ما تقدم تعتبر هذه الترجمة التي بين أيدينا بالدراسة التي تسبقها والهوامش التي ذيلها بها الدكتور حسين عطية إضافة لها ثقلها إلى المكتبة العربية لتاريخ الحروب الصليبية .

دكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تحريراً في ١٦ أكتوبر ١٩٨٩

ضمن ما نشره من مصادر تاريخ الحروب الصليبية فى مجموعته « أعمال الرب التى تمت بأيدى الفرنجة » Gesta Dei per Francos منذ مايزيد علي قرن من الزمان ، فإن تاريخ ريموندا جيل مازال فى حاجة إلى دراسة نقدية جديدة [1] .

ولاشك أن الدراسة السابقة التي قام بها الناشران عن شخصية ريموند الرابع كونت تولوز ، إلى جانب دراستهما الدقيقة لفكر ريموندا جيل وثقافته الدينية ، قد مكنتهما من الإلمام بكل جوانب شخصية المؤرخ وتكوينها الفكرى .

وبالرغم من ذلك ، فقد مرت الترجمة الإنجليزية على بعض القضايا التاريخية الهامة ، التى أثارها تاريخ ريموندا جيل ، مرور الكرام ، دون التعرض لها ، أو الادلاء فيها برأى قاطع . واقتصرت الترجمة فى ذلك - وربما ارتباطا بمهمة ترجمة النص فقط - على نقل النص اللاتينى إلى الانجليزية . الأمر الذى لايجعل من مهمة الناشرين نهاية المطاف بالنسبة لتاريخ ريموندا جيل ، والذى ترك لى فرصة معالجة هذه القضايا فى هوامش منفصلة أحيانا ، أو ترتبط بهوامش الترجمة الانجليزية فى بعض الأحيان .

وإلى جانب ذلك ، فقد أسعدنى أن أقدم لقراء العربية الكرام ، وللباحثين فى تاريخ الحروب الصليبية ، فى وطننا العربى ، كتاب ريموندا جيل - لأول مرة - باللغة العربية .

ولم يكن يتيسر لى ذلك لولا التعاون الصادق ، والتوجيه المثمر ، والتشجيع الدائم ، الذى أولانى إياه أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية ، الذى شجعنى على إنجاز هذه الترجمة ، وأفادنى كثيرا بما أمدنى به من توجيهات أضافت قيمة كبيرة إلى هذا العمل .

وكان لما قدمه لى أستاذى الدكتور بيتر وليام إدبيورى أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ويلز من إرشاد وتوجيه أثر كبير فى معالجة الكثير من قضايا هذا العمل .

ولا يسعنى إلا أن أسجل شكرى وامتنانى لهذين العالمين الجليلين اللذين كان لتوجيهاتهما دور كبير فى خروج هذا العمل إلى حيز الوجود ، وهو ما كان مبلغى من العلم ، وأسأل الله العلى القدير أن ينفع به أمتنا الاسلامية ، والله ولى التوفيق .

الاسكندرية

سبتمبر ١٩٨٩ م

حسين عطية

مقدمة الترجمة العربية

الحملة الصليبية الأولى :

تمثل الحركة الصليبية ظاهرة من أهم مظاهر العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . فهى أول وأقصى رد فعل للغرب المسيحى ضد العالم الإسلامى منذ ظهور الإسلام . وكان لهذه الحركة وما ترتب عليها من نتائج ، آثار بالغة الأهمية على العالمين المتصارعين ، الشرق والغرب . ولما جذبت الحركة الصليبية أطرافا متعددة للصـــراع ، وارتبطت أحداثها ، التى وقعت فى بلاد الشام ، بالمتغيرات الدولية آنذاك ، وبظهور قوى واختفاء قوى أخرى شاركت بشكل مباشر أو غير مباشر فى مسار هذه الحركة ، وفى تحديد طبيعة نتائجها ، فإن ماتم حولها من أبحاث تاريخية ، لم يحتو على كل جوانبها . كما لم يكتب فيها القول الفصل بعد . فما زال موضوع الحروب الصليبية يمثل مجالاً خصبا للبحث التاريخى . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحركة الصليبية بصفة عامة ، فإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى بصفة خاصة ، وما طرأ عليها - كمشروع بابوى بالدرجة الأولى - من تطورات ، لم تكن فى مخيلة البابوية ، ولا من قادوا هذه الحملة إلى بلاد الشام أصلا ، يحتمل بحوثا واسعة تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه ، الشرقية والغربية على قدم المساواة ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة [١] .

فقد كانت الحملة الصليبية الأولى التي قام بها غرب أوروبا ، استجابة لدعوة البابا أوربان الثانى Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) في مؤتمر كلير مونت الكنسى (١٨ - ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م) هى البداية الحقيقية للحركة الصليبية . وإذا كانت هذه الحركة فى مجملها تعد مشروعا فاشلا [٢] ، فإن الحملة

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ (الطبعة الثالثة) ، ص ١ .

(٢) Peter Charanis, Aims of the medieval Crusades and how they were viewed By Byzantium, C. H. 21, 1952, p. 131.

الصليبية الأولى ، بما حققته من إنجازات عسكرية فى فترة زمنية قياسية ، تعد أكثر الحملات الصليبية نجاحاً (١) .

فمن الناحية العملية نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهم الأهداف التى حددتها لها البابوية ، واستولى الصليبيون على مدينة بيت المقدس من المسلمين . ولأن البابا أوربان الثانى لم يشر ، فى خطبته فى كليرمونت ، إلى مصير فتوحات المستقبل ، فقد بدت الثروات التى وعد بها هذا البابا هؤلاء الذين سيتوجهون إلى الشرق ، وكأنها أسلاب أكثر منها أملاك (٢) . وتعدت الحملة هدفها المنشود . فأسس الصليبيون إمارة أنطاكية على مشارف بلاد الشام ، وأقاموا كونتية الرها على ضفاف الفرات ، ووضعوا النواة الأولى لكونتية طرابلس فى وسط بلاد الشام ، وفى فلسطين ، أقاموا مملكة بيت المقدس الصليبية .

---

(١) بينما فشلت الحملة الصليبية الثانية فى استرداد الرها ، أو فى وقف تقدم نور الدين محمود والخطر الاسلامى المحدق بالصليبيين فى بلاد الشام ، فقد فشلت الحملة الثالثة فى استرداد مدينة بيت المقدس من أيدى صلاح الدين . وكانت عكا هى الهدف الاساسى للحملة ، بينما أصبح دور ريتشارد ينحصر في تحكيم مشكلة حكم المملكة الصليبية أكثر من تحرير المدينة المقدسة ذاتها . وجاءت الحملة الرابعة لتوفر لمن قاموا بها فرصة الثأر من بيزنطة . ولم تحقق لفرنج الشام أية مكاسب . وكانت مصر هى هدف الحملتين الخامسة والسابعة . وفشلت كلاهما في فتح مصر ، وفشلت كلاهما أيضا فى استعادة بيت المقدس . أما الحملة السادسة ، فبالرغم من نجاح فريدريك الثانى فى تحقيق ما فشل فيه غيره من قادة الحملات الصليبية - استعادة بيت المقدس - إلا أن حملته قد بثت بذور الحرب الأهلية بين فرنج الشام ، الأمر الذى أضعف الجبهة الصليبية طيلة العقود الثلاثة الباقية من عمر الكيان الصليبى فى ديار الاسلام . انظر :

John La Monte, From Crusading Kingdom to Commercial Colony, BPIASA, 111, 1944, PP. 288 - 299.

(٢) J. Prawer, The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972, p. 34.

وربما يبدو للوهلة الأولى للمتتبع لتاريخ الحملة الصليبية الأولى أن الفرنج قد نجحوا فى تحقيق الأهداف التى حددتها البابوية لهذه الحملة فاستردوا الأراضى المقدسة من المسلمين ومدوا يد المساعدة لإخوانهم مسيحيى الشرق البيزنطيين - مما ينبىء عن رأب للصدع الذى أصاب العلاقات بين الكنيستين الشرقية - كنيسة القسطنطينية - والغربية - كنيسة روما - وبذلك يكون الصليبيون قد فازوا بالغفران الذى وعدهم به البابا وفازوا لأنفسهم - القادة - بإقطاعيات خاصة بهم فى الشرق - والعامة - بأسلاب المسلمين والجميع بالوفاء بنذرهم الصليبى بزيارة الأماكن المقدسة (١) .

إلا أنه بالتمعن فى دقائق أحداث الحملة الصليبية الأولى ، والعلاقات التى سادت بينهم وبين الإمبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين ، ثم بينهم بعضهم البعض ، يتضح أن إنجازات الحملة الأولى لم تكن تحمل فى طياتها إلا بذور الضعف والإنقسام . ففى القسطنطينية ، كان الشك والريبة هما السمات الغالبة على العلاقات بين الامبراطور وقادة الحملة . الذين لم تترك قواتهم سوى الذكريات المؤلمة لدى رعايا الإمبراطور - على طول الطريق من دورازو وحتى القسطنطينية (٢) ولم تكن طموحات غالبية قادة الحملة تسمح لهم بالإلتزام ببنود إتفاقية القسطنطينية (مايو ١٠٩٧م) (٣) . وخارج أسوار أنطاكية ، ظهرت كوامن بوهيمند

---

(١) Dana Munro, The speech of Pope Urban II at Clermont, 1095, AHR, XI, 1905 - 1906, pp. 231 - 242.

(٢) Steven Runciman, The First Crusaders' Journey across The Balkan Peninsula, B, 18, 1948 pp. 207 - 221.

(٣) لم يكن الامبراطور البيزنطى ليستطيع استرداد املاكه التى استولى عليها السلاجقة من قبل فى أسيا الصغرى الا بالتحايل على الفرنج كما حدث في نيقية او لعدم مواءمة مدن أسيا الصغرى لمطامع الفرنج وعن بنود اتفاقية القسطنطينية انظر جوزيف نسيم العرب والروم ص ٢٢٢

النورماندى ، وغلبت عليه خصاله وكراهيته لبيزنطة ، وكل ما ورثه عن أبيه روبرت جويسكارد [1] . وحين سقطت أنطاكية فى أيدى اللاتين ، بدأ بوهيمند يتصرف كسيد أوحد لها [2]. محطما دون أن يدرى ، بآمال البابا أوربان الثانى فى إمكانية احتواء كنيسة القسطنطينية ، أو اكتساب ولاء الامبراطور البيزنطى لبابا روما [3] . وعند هذه النقطة - خارج أسوار أنطاكية - سادت الأحقاد المكبوتة بين قادة الحملة ، وكانت خطرا يماثل الخطر الاسلامى ، وتبع ذلك ، الإفلاس الأخلاقى ، وانحلال الجيش الصليبى [4] . وكشفت العلاقات بين قادة الحملة عن المعنى الحقيقى للحركة الصليبية . فكثيرا ماتوارى الدين أمام المصالح الخاصة بالنبلاء ، وتأكد الحرص على المصالح الخاصة دون الصالح الصليبى العام ، الذى ظهرت بوادره بمجرد انتهاء القرنج من أعباء عبور آسيا الصغرى [5] . ورحل القادة عن أنطاكية

---

(١) George Ostrogorsky, History of the Byzantine State, English trans. by Joan Hussey, Oxford, 1956, pp. 322.

(٢) عقد بوهيمند مع الجنوية إتفاقيـــة ١٤ يوليو ١٠٩٨ م / ١١ شعبان ٤٩٢ هـ ، منحهم بمقتضـــاها إمتيازات كبيرة فى أنطاكية ، نظير مساعدتهم له فى الدفاع عنها ضـــد منافسيه . انظر :

H. Hagenmeyer, ed., Duie Kreuzzugsbriefe : Epistolae et Chartae ad historiam. primi belli Spectantes, Insbruck, 1901, pp. 155 - 160.

راجع أيضا الترجمة العربية للعهود المتبادلة بين بوهيمند والجنوية . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالدول الاسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١ م) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م ، ملحق رقم ٣ ، ص ٣٠٢-٣٠٥.

(٣) Bernard Hamilton, The Latin Church in the Crusader States, London, 1980, p. 17.

(٤) J. Brawer, op. cit., p. 14.

(٥) تخلى كل من تنكريد وبولدوين عن الحملة ، وانفصلا عن الجيش الصليبى ، وراح الأول يبحث لنفسه عن وضع متميز فى سهل قيليقية ، بينما قام الثانى بنفس المحاولة على ضفاف الفرات . وللمزيد عن حملة بولدين وتنكريد على الرها وقيليقية ، انظر :

Fulcher of Chartres, Gesta Francorum Iherusalem (ed. by Frances Rita Rayan, as A History of the Expedition to Jerusalem), Tennesse, 1969, pp. 88 - 92. Radulf of Caen, Gesta Tancredi, RHC-H. Occ., III. pp. 629-649.

- ما عدا بوهيمند - وأغاروا على بلاد المسلمين ، كل يحاول أن ينال منطقة لنفسه . وكانت الحملة الصليبية على وشك التفكك . وبقى الجيش الصليبى فى شمال الشام مسايرا للظروف ، وعبّر نصف العام الذى قضاه الصليبيون هناك [1] التحلل من الإلتزام المسيحى . وبدا وكأن أرض الميعاد تقع على ضفاف نهر العاصى ، وليست فى بيت المقدس [2] . وثبت أن الحركة الصليبية فى معناها الدقيق- بالنسبة لقادة الحملة الأولى- لم تكن إلا مشروعا يخص البابوية وحدها ، وأن الرحلة إلى الشرق لم تكن فقط من أجل المدينة المقدسة Sancta Cuitas وحدها [3] .

ولم يدرك الفرنج أن كل إنجازاتهم ، لم تكن ترجع إلى شجاعة تميزوا بها عن المسلمين ، أو إلى فنون الحرب والقتال التى اتبعوها ، وإنما إلى ضعف المقاومة الإسلامية التى واجهتهم ، وماساد الصف الإسلامى من إنشقاق [4] . وارتكنت

---

(١) تمكن الصليبيون من التصدى لمحاولة كربوغا - أتابك الموصل - الفاشلة لانقاذ أنطاكية وتأكد استيلاؤهم على أنطاكية فى ٢٨ يونية ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩٢ هـ . وتحركت قوات كونت تولوز من معرّة النعمان فى طريقها إلى بيت المقدس فى ١٣ يناير ١٠٩٩م / ١٧ صفر ٤٩٣ هـ . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م ، ص ١٤٣ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ١٢ جـ ، القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠١ هـ ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ٣ جـ ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ م ، جـ ٢ ، ص ١٤٣. راجع أيضا :

Anonymi, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum, ed. by Rosalind Hill as The Deeds of The Francs and The Other Pilgrims to Jerusalem, London, 1962, p. 69.

(٢) Prawer, op. cit., p. 14.

(٣) Ordric Vitalis, Historia Ecclesiastica, ed. and trans. by M. Chibnal, 6 Vols, Oxford, 1969 - 1978, Vol. 5, p. 6.

(٤) C.W.C. Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, 2 Vols, London, 1924, Vol. 1, p. 233.

القوى الصليبية فى بلاد الشام ، وفى أوربا ، على دوام هذا الحال ، دون اعتبار لأى احتمال بأن تقوم جبهة إسلامية موحدة فى يوم ما . فانشغلت أوربا - بالصراع بين البابوية والامبراطورية - عن ركائزها فى بلاد الشام ، بالرغم من تلاحق الاستغاثات التى بعث بها قادة فرنج الشام إلى حكام الغرب الأوربى دون طائل [1] ، حتى أطاح صلاح الدين الأيوبى بجهد مايقرب من مائة عام على الجبهة الصليبية ، وبنمط الحياة Modus Vivendi الذى توصل إليه الصليبيون فى بلاد الشـام [2] .

وإذا كانت مملكة بيت المقدس قد سقطت على أيدى صلاح الدين ، فقد كان ذلك لأن صلاح الدين قد أدرك ما لم يدركه الصليبيون من قبل . وعرف أنه من الممكن توجيه ضربة ساحقة تودى بالكيان الصليبى بسهولة ، إذا ماتوحدت القوى الاسلامية . كما أدرك الرجل أن الجبهة الصليبية متصدعة ، ومن السهل تقويضها ، يمثل السهولة التى استرد بها زنكى مدينة الرها من الفرنج وقضى على الوجود الصليبى فى أعالى الفرات فى ١١٤٤ م / ٥٣٩ هـ . فقد كانت العوامل التى مكنت فرنج الحملة الأولى من تحقيق انجـازاتهم ، هى التى مكنت زنكى من

(1) توالت رسائل الاستغاثة التى بعث بها كل من عمورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٤ م) ورينودى شاتيون أمير أنطاكية (١١٥٣ - ١١٦٠ م) وبوهيمند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠١م) وإيمرى دى ليموج بطريرك أنطاكية اللاتينى (١١٤٠ - ١١٩٣م) وبرتراند بلانكفورت مقدم الداوية (١١٥٦ - ١١٦٨ م) على بلاط الملك الفرنسى لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) طلبا للعون ضد خطر نور الدين محمود المحدق بالإمارات الصليبية . انظر

Epistolarum Regis Ludovici VII, RHGF, 16, pp. 27 - 28, 39 - 40, 52 - 53, 55 - 60, 61 - 62.

راجع أيضا الترجمة العربية لرسالتى رينودى شاتيون وإيمرى دى ليموج . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية ، الملحقين الرابع والخامس ، ص ٣٠٨ ، ٣١٢ - ٣١٤ .

(2) حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٠٩ .

استرداد الرها ، وهى التى ستمكن صلاح الدين من استرداد بيت المقدس ، وهى عوامل الإنقسام . وعوامل انقسام الفرنج أيام زنكى ترجع فى الحقيقة إلى زمن الحملة الأولى .

فما شجر من خلافات بين بولدوين وتنكريد فى قيليقية ، ثم بين بوهيمند وكونت تولوز فى أنطاكية ، استمر بين هؤلاء حتى بعد أن تغيرت أوضاعهم فى بلاد الشام . وتوارثه من خلفوهم في حكم أملاكهم . فلم تكن العلاقات بين بولدوين ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨ م) وبين تنكريد أمير الجليـل (١٠٩٩ - ١١٠٠ م) والوصى على أنطاكية (١١٠٠ - ١١٠٣ م) ، أفضل من العلاقات بينهما فى قيليقية [1] . كما كانت الخلافات بين ريموند بواتيه أمير أنطاكية (١١٣٦ - ١١٤٩ م) وبين جوسلين كونت الرها (١١٣١ - ١١٤٤م) وخلف بولدوين الثاني فيها ، سببا فى سقوط كونتية الرها وعودتها إلي الحظيرة الإسلامية إلى الأبد [2] .

(1) بينما وقع الصدام بين بولدوين وتنكريد حول طرسوس ، وتقاتلا حول أذنة والمصيصة ، فقد تحرز بولدوين من وجود تنكريد أمير الجليل على مقربة منه في مقر حكمه كملك لبيت المقدس ، ولم يتح فرصة قيام الصدام بينهما من جديد سوى وقوع بوهيمند في أسر التركمان فى ١١٠٠م ، ورحيل تنكريد إلى أنطاكية ليحكم كوصى عليها حتى عودة خاله من الأسر . انظر :

Radulf of Caen, op. cit., pp. 629 - 641; Albert d'Aix, Liber Christianae, RHC Occ. IV, pp. 537 - 538.

(2) تحالف جوسلين مع سوار حاكم حلب ضد ريموند ، كما آوى جوسلين بطريرك أنطاكية رادولف دمفرنت (١١٣٥ - ١١٤٠ م) الذى أبعده ريموند عن كرسى بطريركية أنطاكية . وأدى هذا الخلاف إلى تقاعس ريموند عن مساعدة جوسلين فى الدفاع عن الرها ضد عماد الدين زنكى . انظر :

William of Tyre, History of Deeds done beyond the sea, 2 vols, trans. by Emily Babcock and A.C> Krey, New York, 1943, Vol. 2, pp. 135 ff.

وللمزيد عن العلاقات بين جوسلين الثانى وريموند بواتييه ، وعن عوامل سقوط الرها فى أيدى زنكى انظـــر : محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ - ١١٤٤ م) . الاسكندرية ، ١٩٧٢ م ، ص ٣٥٦ - ٣٧٠ .

لكل ما سبق ، فإن تاريخ الحملة الصليبية الأولى لم يكن هو استيلاء الصليبيين على بيت المقدس من المسلمين ، وتأسيس الفرنج للإمارات الصليبية فى الرها وأنطاكية وطرابلس فقط ، وإنما يضاف إلى ذلك ما ألم بالحملة من تطورات لم تكن محسوبة من قبل ، وما قام بين قادة الحملة وبين البيزنطيين من جهة ، وبين هؤلاء القادة بعضهم البعض من جهة أخرى من علاقات كان لها أكبر الأثر فى تحديد معنى الحركة الصليبية الدقيق ، والمصير المحتوم للكيان الصليبى فى بلاد الشام . ولم يكن من السهل الوقوف على كل ذلك دون التمعن في المصادر التاريخية التي تضمنت صفحاتها كل دقائق تاريخ هذه الحملة .

الإنجاز الأدبى للحملة الصليبية الأولى :

وقد كان للحملة الصليبية الأولى إنجاز آخر لايمكن مقارنة أوجه التصور فيه ، بالمثالب العسكرية والروحية للحملة نفسها . فلحسن الحظ ، أن تأثير دعوة البابا أوربان الثانى للمجتمع الأوربى الغربى للإشتراك فى الحملة الصليبية الأولى ، لم ينحصر على الحكام والعامة من طوائف هذا المجتمع ، بل تعدى هؤلاء إلي طائفة أخرى . لايقل دورها فى حقيقته عن دور المقاتلين الصليبيين أنفسهم ، إن لم يكن قد فاقه أهمية ، بالنسبة لدارسى تاريخ الحروب الصليبية . فقد شارك بعضهم سائر الطوائف التى هبّت ملبية دعوة البابا لقتال المسلمين ، وساهموا فى تحقيق هدف الحملة المنشود ، ونجاحها الذى لم تصادفه أية حملة صليبية أخرى . وهؤلاء هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى أنفسهم . الذين سجلوا تاريخها ، وأعمال الفرنجة فى الشرق الأدنى الإسلامى ، منذ قدومهم إليه وحتى تثبيت أقدامهم فيه . وكان عدد هؤلاء المؤرخين الوفير من المزايا التى تميزت بها هذه الحملة أيضا عما تلاها من حملات . فهم شاهدو عيان لأحداثها ، ومن أتباع قادتها ، ويسّر ذلك لهم الاطلاع على مختلف القرارات الصليبية ، وتعد أعمالهم - إلى جانب الوثائق والخطابات الصليبية - أهم مصادر المعلومات التاريخية أصالة .

وهكذا أمدتنا الحملة الصليبية الأولى بوفرة من المؤرخين اللاتين ، الذين سجلوا لنا تاريخ الإمارات الصليبية فى الشرق ، منذ خروج الصليبيين من بلادهم فى عام ١٠٩٦ م / ٤٩٠ هـ ، وحتى عام ١١٢٧ م / ٥٢١ هـ ، وينقسم مؤرخو هذه الفترة إلى قسمين ، الأول منهما ويضم ثلاثة مؤرخين شاهدى عيان ، وهم المؤرخ المجهول صاحب كتاب « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum ، وريمونداجيل صاحب كتاب « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem ، ثم فولشر أوف شارتر الذى وضع كتاب « أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس » Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium [1] .

وهؤلاء أمدونا بمعلومات عن الحملة الصليبية الأولى منذ خروجها من أوربا وحتى سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين . وقد حظيت علاقات الصليبيين بكل من البيزنطيين والأرمن والمسلمين بنصيب وافر من كتابات هؤلاء . وإذا كان مؤلفا الأول والثانى منهما يتوقفان بذكر أحداث (١٢ أغسطس ١٠٩٩ م / ١٤ رمضان ٤٩٢ هـ) وانتصار الفرنج على القوات الفاطمية ، فإن كتاب فولشر يغطى الفترة حتى عام ١١٢٧م / ٥٢١ هـ . وفيما يخص الفترة بين عامى ١١٢٠ م/ ٥١٤ هـ و ١١٢٧م / ٥٢١ هـ ، يعتبر تاريخ فولشر هو المصدر اللاتينى الوحيد المعاصر ، ويعد أيضا تاريخا لكل الامارات الصليبية فى بلاد الشام ، حتى يدلى وليم رئيس أساقفة صور بدوره فى تكملة تاريخ الصليبيين فى الشام حتى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠ هـ .

---

(١) عن هؤلاء المؤرخين وأعمالهم وسيرتهم الذاتية ، انظر :

Claud Cahen, La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades, et la principaute Franque d'Antioche, Paris, 1940, pp. 3 - 10; Jean Richard, Raymond d'Aguilers, Historien de la Premiére Croisade, JS, 1971, pp. 206 - 212; Harold Fink, Fulcher of Chartres Historian of The Latin Kingdom of Jerusalem, SMG, 5, 1975, pp. 53 - 55.

راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢ - ٧ ، حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ص ١٢ - ١٥

أما عن القسم الثانى من المصادر اللاتينية التي عالجت هذه الفترة ، فمنها ما سجله ألبرت دكس عن تاريخ حملة جودفرى دوق اللورين السفلى وأول حكام بيت المقدس اللاتين بعنوان « كتاب الحملة المسيحية لأخذ وتطهير واسترداد مدينة بيت المقدس » Liber Christianorum Expeditionis Pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae . وكتاب رادولف أوف كان « أعمال تنكريد فى الحملة إلى بيت المقدس » Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitana . وأخيرا كتاب إيكهارد دورا « بيت المقدس » Hierosolymitana [1] . وإذا كان هؤلاء لم يشاهدوا وقائع الحملة الصليبية الأولى ، فقد استقوا معلوماتهم من مصادر أصلية مثل أعمال مؤلف الجستا وفولشر وريموندأجيل ، كما استمعوا إلى روايات من عادوا إلى أوربا من الصليبيين ، وهذا ينطبق علي البرت دكس ، أما رادولف فقد كان كاهنا خاصا لتنكريد ابن أخت بوهيمند والوصى على إمارة أنطاكية أثناء أسر بوهيمند وبعد رحيله نهائيا إلى غرب أوربا ، وروى له تنكريد ذكرياته عن الحملة الأولى وأحداثها ، فوضع تاريخا لأعمال سيده تنكريد ، أصبح تاريخا لإمارة أنطاكية . أما إيكهارد ، فقد أتى إلى فلسطين عام ١١٠١م / ٤٩٥ هـ . وعاد إلى أوربا ليضع كتابه الذى اعتمد فيه على ذكرياته الشخصية فى الشرق ، وروايات الآخرين التى تتفق مع روايات كثيرة ذكرها غيره من المؤرخين اللاتين . ويغطى كتاب البرت دكس الفترة حتى عام ١١٢٢م / ٥١٦ هـ ، بينما ينتهى كتاب رادولف بأحداث عام ١١٠٥ م / ٤٩٩ هـ .

ومن كتبوا عن أحداث الحملة الصليبية دون أن يشاركوا فيها أو يأتوا إلى الشـرق أبدا ، المؤرخ الأنجلو نورماندى أوردريك فيتاليس Ordric Vitalis الذى

---

(١) عن هؤلاء المؤرخين وأعمالهم ، انظر :

Oliver J. Tatcher, Crirical work on the Sources of the First Crusade, ARAHA, 1, 1900, pp. 502 - 505. Henri Glaesener, Raoul de Caen Historien et Ecrivain, RHE, 46, 1951, pp. 5 - 21; Cahen, op. cit., p. 11.

وضع كتابا بعنوان تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica [1] الذى استقى مادته التاريخية من أكثر من خمسين مصدرا تاريخيا ، إلى جانب ما استقاه من الوثائق والروايات الشفهية . وكتابه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وعلاقة بيزنطة بالصليبيين . وتعد المعلومات التى أوردها عن الحملة الأولى وما تلاها من أحداث حتى عام ١١٢٣ م / ٥١٧ هـ من أهم المعلومات التاريخية الأصلية . فقد استقاها من روايات من عاد من الفرنج إلى فرنسا ، ومما وصل إلى أوربا من تقارير عن أحداث هذه الفترة . وكان فيتاليس محايدا بالنسبة لمشكلة أنطاكية التى قامت بين الكسيس كومنين وبوهيمند ثم تنكريد من بعده . وأكدت روايته عن تلك المشكلة حسن نية الإمبراطور البيزنطى تجاه الفرنج ، وعدم تخليه عن الحملة كما اتهمه الفرنج بذلك .

---

(١) مع أن فيتاليس عاش فى نـــورماندیا ، إلا أنه ولد فى إنجلترا فى عام ١٠٧٥ م لأب نورماندي Odelerius d'Orleans وأم انجليزية Angligena . جاء أبوه إلى انجلترا فيما بين عامى ١٠٦٦ و ١٠٦٨ . وفى سن الخامسة درس فيتاليس فى كنيسة شروسبرى shrewsbury . وفى العاشرة أرسله أبوه إلى نورماندیا حيث صار راهبا فى دير القديس إفرول St. Evroul وعاد إلى إنجلترا فى زيارة قصيرة فى عام ١١١٥ م / ٥٠٩ هـ . وأثر ارتباطه بانجلترا على كتاباته التاريخية لارتباط انجلترا بنورمانديا (وطن النورمان الأصلى) ثقافيا وسياسيا فى عصره . وتأثر كثيرا بالمؤرخين الانجليز ، وكرس كتابه لسرد تاريخ كنيستى انجلترا ونورمانديا . ووضعه بناء على طلب روجر أوف لى ساب Roger of Le Sap أسقف دير إفرول (١٠٩١ - ١١٢٧م) ويتكون الكتاب من ١٣ فصل ، تغطى الفترة من ١ - ١١٤١م . ووضعه فيما بين عامى ١١١٤م و ١١٤١م . وتأثر فيتاليس بالمؤرخين الانجليز مثل بيده Bede ووليم مالمسبرى William of Malmesbery وبعض المؤرخين النورمان مثل وليم أوف بواتييه William Poitiers ومات فيتاليس فى عام ١١٤٣م . وللمزيد عن حياة فيتاليس وأعماله . انظر :

Antonia Gransden, Historical writing in England (C. 550 to C. 1307), 2 Vols. London, 1974, Vol. 1, pp. 151 - 65.

راجع أيضا : حسين عطية : امارة انطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١ - ١٢٦٨ م /

وإلى جانب فيتاليس - من المؤرخين الذين لم يشتركوا في الحملة الصليبية الأولى وكتبوا عنها في أوربا - هناك المؤرخ الأنجلز نورماندي أيضا وليم راهب ديرمالمسبرى William of Malmesbery الذى وضع كتاب «أعمال ملوك الإنجليز» Gesta Regum Anglorum ، الذى تناول فيه أحوال ملوك انجلترا وعلاقاتهم بملوك أوربا والبابوية . وترجع أهمية الكتاب إلى اعتماد المؤلف على مصادر معلومات مفقودة . وقد أورد معلومات قيمة عن سقوط أنطاكية فى أيدى اللاتين ، وكان المؤرخ الوحيد الذى وقف على مادار بين كربوغا وستيفن بلوا من محادثات حين بعث قادة الفرنج بالأخير إلى المسلمين لإثناء كربوغا عن التعرض للفرنج الذين حاصرهم داخل أنطاكية فور استيلائهم عليها [1] .

وإلى جانب كل هؤلاء ، فقد وردت معلومات هامة عن الحملة الصليبية الأولى في أعمال كل من كفارو الجنوى «تحرير مدن الشرق Leberatis Civitatum Orientis . وكتاب جيبرت دى نوجان Guibert de Nogent «أعمال الرب التى تمت بأيدى الفرنجة» Gesta Dei Per Francos ، وكتاب Historia Iherosolimitana «تاريخ بيت المقدس» الذى وضعه روبرت الراهب ، وكتاب بودرى دى بورجى الذى يحمل نفس العنوان [2] .

وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد أخرجت لنا العديد من الأعمال التاريخية اللاتينية التى أمدتنا بالمعلومات الوفيرة التي تميزت بالدقة والأصالة ، فإن الشرق اللاتينى لم يخرج لنا - منذ توقف كتاب فولشر أوف شارتر وحتى عام ١١٨٤م/ ٥٨٠ هـ - سوى مؤرخ لاتينى واحد ، يرجع اليه الفضل فى الوقوف على كثير من الحقائق التي رسمت صورة دقيقة لأحوال الفرنج الشرق وعلاقاتهم السياسية بالمسلمين من جهة ، وببعضهم البعض من جهة أخرى ، كما شمل كتابه تاريخا كاملا للحملة الصليبية الأولى . وهذا المؤرخ هو وليم الصورى [1] الذى وضع كتابه «تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) وحتى عام ١١٨٤م من الميلاد» Historia rerum in Partibus transmarini gestarum a tempore successorum Mahumeth usque ad annum Domini MCLXXXIV ليكون أكثر المصادر اللاتينية دقة وشمولاً. وإذا كان وليم قد أتم كتابة تاريخه بعد عام ١١٨٠م / ٥٧٦ هـ وبدأه فى عهد عمـــورى الأول ملك بيت المقدس (١١٦٣- ١١٧٤م)، ولم يشهد شيئا من أحداث الأربعين عاما الأولى من الوجود الصليبى فى بلاد الشام (ولد وليم فى عام ١١٣٠م / ٥٢٤ هـ) فقد نقل عمن سبقوه من المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الأولى وشاهدى العيان لأحداثها . إلى جانب تميزه ببعد النظر والحس التاريخى والذى لم يجعل منه مجرد ناقل للأخبار بل وناقد للأحداث أيضا ولكثير من الشخصيات التى لعبت دورا فيها . ولم يكن وليم يجهل أحداث الفترة المبكرة من الحروب الصليبية وحتى عهده هو .

---

(١) ولد وليم فى عام ١٠٩٥ م / ٤٨٩ هـ . لوالدين أحدهما نورماندى والآخر انجليزى . وبدأ حياته راهبا فى دير مالمسبرى ، ثم تولى ادارة مكتبة هذا الدير . ويعد كتابه تاريخا لانجلترا منذ قدوم السكسون إليها (٤٤٩ م) وحتى عام ١١٢٧م / ٥٢١ هـ . وقام وليم بوضع عدة كتب أخرى أهمها (أعمال أساقفة الانجليز) Gesta Pontificum Anglorum . ومات فى عام ١١٣٤م/ ٥٣٨ هـ .
أنظـــر :
Antonia Gransden, op. cit., vol. 1, pp. 167 ff.

(٢) Cahen, La Syrie, p. 11.
راجع أيضا : جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ١٤ - ١٨ .

---

(١) عن حياة وليم الصورى وأعماله التاريخية . انظر :
R. B. C. Huygens, Guillaume de Tyre étudiant Un chapitre (XIX, 12) de son "Historia" retrouvé, Latamus, 21, 1962, pp. 811 - 829; R.H.C. Davis, William of Tyre, in Relation between East and West ed. Derek Baker, Edindburgh, 1973, pp. 64 - 76; P.W. Edbury and J.G. Rowe, William of Tyre and the Patriarchal election of 1180, EHR, 366, 1978, pp. 1 - 25; D.W.C. Vessey, William of Tyre and the art of Historiography, MS. 35, 1973, pp. 433-455.
راجع أيضا : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين ، ص ٣٤ - ٣٩ .

وإلى جانب المصادر اللاتينية التي سجلت أحداث الحملة الصليبية الأولى هناك مصدر بيزنطى لايقل قيمة عن المصادر اللاتينية وهو كتاب الألكسياد Alexiad الذى وضعته الأميرة البيزنطية آن ابنة الامبراطور البيزنطى الكسيس الأول كومنين [١] ويعتبر كتابها مصدر ثقة فى دراسة العلاقات بين البيزنطيين وصليبي الحملة الأولى ، وخاصة طوال الفترة التى قضاها الفرنج فى أراضى الدولة البيزنطية وفى القسطنطينية بالذات . إلى جانب تطور العلاقات بين الامبراطور وبين الفرنج أثناء رحلتهم فى بلاد الشام من أنطاكية وحتى استيلائهم على بيت المقدس .

هذا عن مصادر الحملة الصليبية الأولى من لاتينية وبيزنطية ، التى تمتعت بالأهمية القصوى بالنسبة لدارسى تاريخ الحروب الصليبية (والحملة الأولى بصفة خاصة) نظرا لعدم توفر المصادر الاسلامية المعاصرة لأحداث الحملة الصليبية الأولى. فلم يكن هناك من المؤرخين المسلمين المعاصرين سوى ابن القلانسى صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » الذى عالج فيه تاريخ بلاد الشام منذ غزو السلاجقة له وحتى عصر صلاح الدين [٢]. ولذا تفوقت الكتابة التاريخية اللاتينية على

---

(١) ولدت الأميرة آن فى نهاية عام ١٠٨٣م / ٤٧٥ هـ . وتزوجت من نقفور بريثيوس (وهو مؤرخ بيزنطى) وتوفيت فى عام ١١٤٨م/ ٥٤٣ هـ . عن ٦٦ سنة . وهى ابنة الكسيس من زوجته إيرين دوكاس . وقام أخوها حنا الثانى كومنين بحبسها فى أحد الأديرة بعد وفاة والدها . فعكفت آن على كتابة التاريخ . وهى غزيرة العلم وعلى دراية بأدب اليونان وكتب اللاهوت والشعر والفلسفة الاغريقية القديمة . ووضعت كتابها باللغة السائدة وقتذاك ليكون سجلا لأعمال والدها . وهو يغطى الفترة من عام ١٠٦٩م/ ٤٦١ هـ إلى عام ١١١٨م/ ٥١٢ هـ . وبدأت فى تدوينه فى عام ١١٣٧م/ ٥٣١ هـ وأتمته فى عام ١١٤٨م/ ٥٤٣ هـ . أنظر :

Cahen. La Syrie, p. 95; George Ostrogorsky, History of the Byzantine state, English trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, p. 311.

(٢) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٧٦م ، ص ١٦ ، السيد الباز العرينى : مؤرخ الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ...

مثيلتها العربية زمن الحملة الصليبية الأولى حتى ينعكس الأمر خلال النصف الثانى من القرن ١٢ م / ٦ هـ بتفوق الكتابة التاريخية العربية بظهور دولة صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، التى شهدت تغيرا هاما فى الكتابة التاريخية العربية ، وذلك بظهور وفرة من الأعمال التاريخية العربية استمدت انطلاقتها من تأثير توحيد صلاح الدين لمنطقة الشرق الأدنى الاسلامى تحت لوائه من بلاد السودان ومكة جنوبا إلى جبال طوروس شمالاً ، ومن ديار بكر شرقا إلى مصر غربا ، ورفع الأرواح فوق سياسة التحزب والانقسام . فكان لسيادة المذهب السنى فى البلاد أثر فى اختفاء النزعة الشيعية ، بنهاية الدولة الفاطمية ، فى كتابات المؤرخين المسلمين . وكتب الجميع تاريخ البلاد فى هذه الفترة ، وحتى نهاية الحروب الصليبية ، ونقلوا عن بعضهم البعض بلا غضاضة [١] . الأمر الذى سد النقص الذى خلّفته لنا الكتابات التاريخية اللاتينية التى تقلصت بتقلص ممتلكات الفرنج على أيدى صلاح الدين . وفى الوقت الذى نجد فيه من يكتب عن دولة صلاح الدين أو عن جزء من تاريخها أو عن الرجل نفسه ، أعمالا تستمر حتى نهاية الدولة الأيوبية ، نجد مؤرخ واحد أو إثنين على الأكثر من المؤرخين اللاتين الذين أكملوا تاريخ وليم الصورى [٢] .

وهكذا لم يكن للحملة الصليبية إنجازها العسكرى فقط ، بل وإنجازها الأدبى ، والانجازين معا لم يتحققا لأى من الحملات الصليبية التى تلتها .

وكان كتاب ريموندا جيل – محل دراستنا هذه – من أهم الأعمال التاريخية التى تناولت تاريخ الحملة الصليبية الأولى .

---

(١) Cahen. La Syrie du Nord, p. 50.

(٢) حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٧٩ - ٨٠ .

ريموندا جيل وكتابه :

وكان من الممكن أن يطول الحديث عن المؤرخ ريموندا جيل وعن الكتاب الذى وضعه بنفسه . إلا أنه من الأوفق عدم تكرار ما جاء فى تقديم الكتاب وفى مقدمة الترجمة الإنجليزية ، عن الرجل وتاريخه . كما أنه من الأوفق تسجيل التعليق على مايشوبه الغموض من قضايا تناولها الكتاب ، أو مايتعارض مع الحقيقة التاريخية الخالصة ، في حواشي الكتاب . أما هنا فنشير فقط إلى مايبرزه كتاب ريموندا جيل من قضايا لم يلق عليها الضوء بعد . فريموندا جيل رجل دين صليبى أولا ، ثم صليبى بروفنسالى بعد ذلك . ثم تابع لكونت تولوز ، الرجل الذى اشترك فى الحملة الصليبية الأولى كرئيس علمانى لها - إلى جانب رئيسها الروحى أدهيمار - وحصل على هذا المنصب من البابا نفسه [1] . ثم حظى بثقة الامبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين - بعد أن أشعر الامبراطور بأهمية وضعه بين أقرانه من قادة الحملة - وتصرف على هذا الأساس - أثناء سير الحملة من القسطنطينية وحتى غزو الفرنج لبيت المقدس - كحام لمصالح الامبراطور . إلا أن الكونت صُدم لعدم جدوى كا ماحصل عليه من البابا والامبراطور فى آن واحد . فلم تشفع له زعامته للحملة ، ولا علاقته الخاصة بالامبراطور أمام طموحات بوهيمند النورماندى ، ولا أمام الرأى العام الصليبى فى لحظة إختيار حاكم علمانى لمدينة بيت المقدس . ففشل فى الحصول على أنطاكية لنفسه أو المحافظة عليها لصالح الامبراطور ، كما فشل فى الحصول على تاج مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعلى وظيفة أول ملك لها [2] .

وكان من الطبيعى أن ينعكس أثر ذلك على المؤرخ وتاريخه فى آن واحد . فرجل الدين - فى داخل ريموندا جيل - المتشبع بأفكار البابوية عن المسلمين ، يحاول جاهـــدا أن يجعل من كل ما أتى به الفرنج من أعـــال ضد المسلمين

---

(1) Robert le Moine, Historia Iherosolimitana, RHC-H. Occ., vol. III, p. 731.

وأملاكهم ، وحتى أماكنهم المقدسة . عملاً من أعمال الرب [1] - وإن لم تكن مشروعة - تتم على أيدى جند المسيح Militia Christi . وحتى يسبغ الشرعية علي أعمال الفرنج ضد المسلمين ، وحتى يجعل رواياته ، عن انتصارات الصليبيين ، وعن كل ما اختلقه من أحداث ، تحظى بثقة واحترام قراء كتابه الذين يعيشون فى غرب أوربا ، فى عصر الإيمان أو عصر تسلط الكنيسة ، فقد أقحم ضمن أسطر تاريخه إقتباسات من الكتب الدينية (خاصة التوراة والإنجيل) .

أما عن الصليبى البروفنسالى الذى يمثله ريموندا جيل ، فمن الطبيعى أن تحظى أعمال الجيش البروفنسالى وقائده - سيد المؤرخ - كونت تولوز بالجانب الأكبر من تاريخه . ومن الطبيعي أيضا - والبروفنسال أصلا من اللاتين - أن يشارك بقية مؤرخى الحملة من اللاتين كرههم للبيزنطيين . وأن يكيل لهم الاتهامات بخيانة القضية الصليبية المسيحية وبالتخاذل فى تحقيق مشيئة الرب Deus Volt [2] .

أما عن التابع البروفنسالى لكونت تولوز - ريموندا جيل - فيظهر استياءه من تصـرفات بوهيمند ، ولو أدى الأمر إلى اتخاذ جانب الإمبراطـور البيزنطى فى

---

(1) اصطبغت الحركة الصليبية بالصبغة الدينية فى عقول الفرنج بتأثير من كلمات البابا أوربان الثانى التي احتوتها خطبته المشهورة فى كليرمونت (١٠٩٥ م) . ومن القرارات والوعود التى وعد بها البابا المشتركين فى الحملة ضد العالم الاسلامى . فهناك غفران للذنوب كل من يحمل الصليب ويشارك فى هذه الحملة . كما كان هناك قرار الحرمان ضد من يتقاعس عن المساهمة فيها وهو قادر على ذلك . فبينما رأت الحشود المستمعة إلى كلمة البابا خارج كنيسة كليرمونت أن الحركة الصليبية هى « إرادة الله » "Deus Volt" ، فقد رأى روبرت الراهب Robert le Moine - كما رأى ريموندا جيل - أن الحركة الصليبية « من عمل الله وليست من عمل الانسان » . أنظر :

Robert le Moine, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., vol. III, p. 723.

راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور

مشكلة أنطاكية [١] كما يحاول الحفاظ على ماء وجه سيده - كونت تولوز حين يجده شخصا غير مرغوب فيه لأن يكون ملكا لبيت المقدس - فيؤكد رفض سيده لشغل هذا المنصب الذى عرضه عليه الفرنج قبل اختيارهم لجودفرى دوق اللورين [٢] . وحين يرى ريمونداجيل - تابع كونت تولوز - إعراض بنى جلدته عن مساندة سيده وسيدهم فى هذه المشكلة [٣] ، لم يجد المؤرخ بدا من أن يتصرف كرجل دين وليس كتابع بروفنسالى للكونت ، ويشير إلى أن شح الكونت وجشعه حين لم يوزع الجزية التى أخذها من بنى عمار فى طرابلس على الفقراء من جنوده ، كما كان فشله فى حصار عرقه ، وتشككه فى حقيقة الحربة المقدسة بعد أن أظهر اقتناعه برؤى بطرس بارتلميو ، وقبل كل ذلك صداقته للإمبراطور البيزنطى ، كل ذلك كلفه عرش بيت المقدس . وكل ذلك بالطبع كان من دواعى غضب ريموندأجيل رجل الدين الصليبى ، والبروفنسالى على كونت تولوز [٤]

وإذا كان ريموندأجيل قد تعرض لتصرفات الحملة الصليبية والعلاقات التى سادت بين طبقة الأمراء والنبلاء ، فقد مس أيضا ، وعن قرب ، الوسط الذى عاش فيه فقراء الصليبيين الذين كانوا موضع عنايته . وأوضح - كرجل دين - اهتمام هذه الطبقة بالإيفاء بنذرها الدينى حين تلكأ قادة الحملة فى شمال الشام ، متصارعين حول الأسلاب والممتلكات [٥] وبين كيف جاهد فقراء الفرنج فى سبيل تحقيق هدف الحملة المنشود ، حتى أنه لم يهتم بما سوف يكون انطباع القارىء عن بنى جلدته حين يذكر أنهم أكلوا جذور النباتات وقت الأزمات ، الأمر الذى استغله رادولف أوف كان ليندد بسلوك البرفنساليين أمام رفقى النورمان [٦] وهذا يوضح

(١) انظر ما يتقدم ، ص ١٦٤

(٢) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٧

(٣) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٨

(٤) انظر ما يتقدم ص ٢٥٨ ٢٢٢

(٥) انظر ما يتقدم ص ١٧١

(٦) انظر ما يتقدم ص١٦٦ راجع أيضا Radulf of Caen, p 675

أن الصدام الذى كثيرا ما تكرر بين قادة الحملة الصليبية ، والمنافسة التى اشتعلت بينهم ، وعدم الثقة الذى شاب علاقاتهم ببعض ، قد أمتد إلى مؤرخيهم أيضا ، الأمر الذى يوضح طبيعة وأخلاق القوات الصليبية ، وطبيعة الحركة الصليبية نفسها .

وفى الحقيقة ، لم يقتصر التمعن فى تاريخ ريموندأجيل على الوقوف على الجوانب السلبية في العلاقات بين القوات الصليبية وقادتها من نورمان وفرنسيين وألمان ، بل إن تاريخ ريموندأجيل يلقى بعض الضوء على البدايات الأولى لكثير من نظم المجتمع الصليبى في بلاد الشام ، ويثبت أن هذه البدايات كانت وليدة الظروف التى مر بها صليبيو الحملة الأولى . ومثال ذلك أننا نرى زعماء الحملة يسهمون فى إنشاء صندوق - رصيد - لضمان استرداد الخيول التى يفقدها الفرسان أثناء القتال أو وقت المجاعات [١] .

ولاشك أن إشارة ريموندأجيل إلى هذا التقليد هى أول النصوص التي تشير إلى مبدأ الاخوة Confraternitas الذى قامت على أساسه كثير من الجماعات العسكرية مثل جماعات الفرسان الرهبان من الداوية والإسبتارية والتيوتون وغيرها من الجماعات الدينية الأخرى التى تعد من المؤسسات التى نشأت فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام دون إقتباسها من الغرب الأوربى مثل سائر النظم الأوربية التى اتبعها فرنج الشام [٢] .

(١) انظر ما يتقدم ، ص ٩١ .

(٢) أخذ الوجود الصليبى كل أفكاره ونظمه من التجارب الأوربية ، ونادرا ما غامر بابتداعها فى الشرق إلا إذا أجبر على ذلك نتيجة لظروف محلية . ومن التجارب التي خاضها الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، دون الارتكاز على التجارب الأوربية تجربتان ، أطلق الفرنج العنان لقدراتهم فى خوضها ، وهما إنشاء الجماعات الرهبانية العسكرية ، ثم الحرب وبناء الاستحكامات . انظر :

Prawer, The Latin Kingdom, p. 252; J. Riley - Smith, A Note on Confraternities in Latin Kingdom of Jerusalem, BIHR, 44, 1971.

مشكلة أنطاكية [1] كما يحاول الحفاظ على ماء وجه سيده - كونت تولوز حين يجده شخصا غير مرغوب فيه لأن يكون ملكا لبيت المقدس - فيؤكد رفض سيده لشغل هذا المنصب الذى عرضه عليه الفرنج قبل اختيارهم لجودفرى دوق اللورين [2] . وحين يرى ريموندا جيل - تابع كونت تولوز - إعراض بنى جلدته عن مساندة سيده وسيدهم فى هذه المشكلة [3] ، لم يجد المؤرخ بدا من أن يتصرف كرجل دين وليس كتابع بروفنسالى للكونت ، ويشير إلى أن شح الكونت وجشعه حين لم يوزع الجزية التى أخذها من بني عمار فى طرابلس على الفقراء من جنوده ، كما كان فشله فى حصار عرقه ، وتشككه فى حقيقة الحربة المقدسة بعد أن أظهر اقتناعه برؤى بطرس بارثلميو ، وقبل كل ذلك صداقته للإمبراطور البيزنطى ، كل ذلك كلفه عرش بيت المقدس . وكل ذلك بالطبع كان من دواعى غضب ريموندا جيل رجل الدين الصليبى ، والبروفنسالى،على كونت تولوز [4]

واذا كان ريموندا جيل قد تعرض لتصرفات الحملة الصليبية والعلاقات التي سادت بين طبقة الأمراء والنبلاء ، فقد مسّ أيضا ، وعن قرب ، الوسط الذى عاش فيه فقراء الصليبيين الذين كانوا موضع عنايته . وأوضح - كرجل دين - اهتمام هذه الطبقة بالإيفاء بنذرها الدينى حين تلكأ قادة الحملة فى شمال الشام ، متصارعين حول الأسلاب والمتلكات [5] وبيّن كيف جاهد فقراء الفرنج فى سبيل تحقيق هدف الحملة المنشود ، حتى أنه لمْ يهتم بما سوف يكون انطباع القارىء عن بنى جلدته حين يذكر أنهم أكلوا جذور النباتات وقت الأزمات ، الأمر الذى استغله رادولف أوف كان ليندّد بسلوك البرفنساليين أمام رفقى النورمان [6] وهذا يوضح

---

(1) انظر ما يتقدم ، ص ١٦٤

(2) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٧

(3) انظر ما يتقدم ، ص ٢٥٨

(4) انظر ما يتقدم ص ٢٥٨ ٢٢٢

(5) انظر ما يتقدم ص ١٧١

أن الصدام الذى كثيرا ما تكرر بين قادة الحملة الصليبية ، والمنافسة التي اشتعلت بينهم ، وعدم الثقة الذى شاب علاقاتهم ببعض ، قد أمتد إلى مؤرخيهم أيضا ، الأمر الذى يوضح طبيعة وأخلاق القوات الصليبية ، وطبيعة الحركة الصليبية نفسها .

وفى الحقيقة ، لم يقتصر التمعن فى تاريخ ريموندا جيل على الوقوف على الجوانب السلبية في العلاقات بين القوات الصليبية وقادتها من نورمان وفرنسيين وألمان ، بل إن تاريخ ريموندا جيل يلقى بعض الضوء على البدايات الأولى لكثير من نظم المجتمع الصليبى في بلاد الشام ، ويثبت أن هذه البدايات كانت وليدة الظروف التى مر بها صليبيو الحملة الأولى . ومثال ذلك أننا نرى زعماء الحملة يسهمون فى إنشاء صندوق - رصيد - لضمان استرداد الخيول التى يفقدها الفرسان أثناء القتال أو وقت المجاعات [1] .

ولاشك أن إشارة ريموندا جيل إلى هذا التقليد هى أول النصوص التي تشير إلى مبدأ الاخوة Confraternitas الذى قامت على أساسه كثير من الجماعات العسكرية مثل جماعات الفرسان الرهبان من الداوية والإسبتارية والتيوتون وغيرها من الجماعات الدينية الأخرى التى تعد من المؤسسات التى نشأت فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام دون إقتباسها من الغرب الأوربى مثل سائر النظم الأوربية التى اتبعها فرنج الشام [2] .

---

(1) انظر ما يتقدم ، ص ٩١ .

(2) أخذ الوجود الصليبى كل أفكاره ونظمه من التجارب الأوربية ، ونادرا ماغامر بابتداعها فى الشرق إلا إذا أجبر على ذلك نتيجة لظروف محلية . ومن التجارب التي خاضها الوجود الصليبى فى بلاد الشام ، دون الارتكاز على التجارب الأوربية تجربتان ، أطلق الفرنج العنان لقدراتهم فى خوضها ، وهما إنشاء الجماعات الرهبانية العسكرية ، ثم الحرب وبناء الاستحكامات . أنظر :

... Kingdom ... P. 252; J. Riley - Smith, A Note on

وهكذا يلقى تاريخ ريموندا جيل الضوء على جوانب كثيرة من جوانب تاريخ الحروب الصليبية وحياة الصليبيين فى بلاد الشام ، ويجعلنا نكتشف فى كل لحظة معلومات جديدة في نص ربما يدفع إلى الاعتقاد بأنه لم يعد أحد يقرأه ، أو لم يعد يأتي بجديد من فرط ما اقتبس عنه . وربما يرجع ذلك إلى أن تاريخ ريموندا جيل يحفل بالفقرات التى تتعلق بالرؤى ، والتى تلقى بظلالها على النص كله ، وتدفع إلى الظل بكثير من المعلومات الأكثر قيمة بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ، وطبيعة وخصال الفرنج أنفسهم . أما عن إنفراده – دون غيره من مؤرخى الحملة – بسرد تفاصيل رؤى بنى جلدته ، وقصص زوارهم السماويين ، فيرجع ذلك إلى أنه أتى على رأس مجموعة من المتحمسين الذين أفادوا من حسن نية ، وخزعبلات الصليبيين وسذاجتهم الدينية . فقد كان ريموندا جيل ، بمساعدة بعض المتواطئين ،هو الذى خطّط ونفّذ خدعة اكتشاف الحربة المقدسة في أنطاكية . ولما وُجه إليه هذا الإتهام،فقد كتب تاريخه عن الحملة الصليبية كدفاع عن نفسه ، ولكنه أثناء محاولته تبرأة ساحته ، قد كشف – دون قصد – عن ذنبه . وبالرغم من كل ذلك . فإن كتاب ريموندا جيل قد أبرز الكثير مما يتعلق بفرنج الحملة الأولى ، وعلاقات هذه الحملة ، وكشف عما اكتنفه الغموض فى كتابات بقية مؤرخيها المعاصرين ، الأمر الذى يمنح تاريخه أهمية تاريخية كبيرة [1] .

وفى النهاية لم يكن من السهل الوقوف على كل تلك المعلومات – على سبيل المثال لا الحصر – إلا بالاطلاع على تفاصيل تاريخ ريموندا جيل ، الذى لمس جوانب كثيرة من تاريخ الحملة الصليبية الأولى لم تتطرّق إليها كتابات أقرانه من مؤرخى الحملة . وكان لشخصية المؤلف وثقافته وفكره والبيئة التي أتى منها أثر كبير فى تميّز تاريخه عما سجله غيره عن هذه الحملة ، الأمر الذى يؤكد ضرورة الرجوع إليه للإلمام بكل ماهو جديد بالنسبة لها .

---

(1)

مقدمة الترجمة الإنجليزية

استمرت الحروب الصليبية فى شد الإنتباه ، بالرغم مما كتبه البروفيسور لامونت La Monte منذ عدة سنوات ، بأنه فى ضوء المجالات الأخرى للتاريخ الوسيط ، فإن الحروب الصليبية قد قُتلت بحثا [1] . ومن فترة وجيزة فقط ، وضع هانز ماير فى كتابه الممتاز « مصادر تاريخ الحروب الصليبية » ، وضع قائمة تضم حوالى٥٣٣٢ عمل فى مجال الدراسة حتى عام ١٩٥٨ [2] . وبالعودة إلى الماضى ، تدرك أنه لم تكن لدى البابا أوربان الثانى فكرة عن التصادم الأدبى الناتج عن خطبته التى ألقاها فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م على الجمع المحتشد على التلال المتموجة فى كليرمونت [3] . ولكن الدفع بعالم شبه بربرى من اللاتين ضد المجتمع الإسلامى شغل بال ذرية أوربان . فاستجاب المؤرخون والشعراء والقصاصون وعلماء النفس ، وحتى رواد السينما الحديثة جميعا للجذب العاطفى لحركة التاريخ غير العادية هذه . وارتبطت فوحة الرومانسية والمثالية السامية بالتمهلات الصليبية فى القرن العشرين ، ولايزال تعبير « حملة صليبية » يستعمل بحرية عند الأيديولوجيات المتصارعة .

ولقد دشّنت دعوة البابا أوربان الثانى الحملة الصليبية الأولى ، أكثر الحملات الصليبية نجاحا ، وأكثرها تعرّضا للجدل . ولقد نوقشت دوافع البابا أوربان على نطاق واسع ، ولا تزال خططه تثير الجدل العلمى [4] . وبالمثل ، ثار الجدل حول مقدمات الحروب الصليبية ، وأيضا حول دوافعها . كما أولى المؤرخون إنتباهم لكثير من جوانب الحملة الصليبية الأولى بما فى ذلك الشئون العسكرية ، وهزائم الفرنج ، وتتابع الأحداث ، والقادة [6] . وبالإضافة إلى ذلك ، لم يقتصر الاهتمام على بلد بذاته بالرغم من ريادة فرنسا وألمانيا فى هذا المجال . وفي الولايات المتحدة ، أدى تحمس البروفيسور مونرو ، ومن أتوا بعده ، إلى استنتاج أن ستيفن رنسيمان قد أسف على التنافس مع حشد الآلات الكاتبة فى هذا

وبالرغم من وفرة الكتابة عن تاريخ الحروب الصليبية ، فمازال هنا الكثير ليكتب عنها (٨) . ولقد نبعت الحاجة إلى الدراسة المستمرة من سوء الاستخدام للمصادر المتوفرة ، بالاضافة إلى أخطاء المؤرخين المركبة ، حيث رفضوا أن يجندوا خدمات المتخصصين في المجالات المرتبطة بالتاريخ . بالاضافة إلى ذلك ، فقد حاول مؤرخو القرن العشرين أن يطبقوا نظرياتهم،فى الدوافع الإنسانية،على ماديات الحملة الصليبية الأولى ، إلى جانب أن نقص المادة العلمية يرجع إلى الاحتمالات الايحائية التى أخذ بها هؤلاء المؤرخون . فمن بداية الحروب الصليبية كان الكُتّاب أكثر اهتماما بوسائل الرب منهم بوسائل الانسان . ودائما مايصطدم المبتدىء بحقيقة أن السجلات الديرية لا تفى بالغرض . وكثيرا ما تتنافس أسطر قليلة عن غزو الفرنج لبيت المقدس مع أسطر عديدة عن الشهب الهابطة من السماء . وإذا كان من الممكن الوثوق ببعض الشىء فى الحوليات ، فإن هذه الحوليات تبين أن أهمية الحرب الصليبية قد لاحت للناس بعد سقوط بيت المقدس ، وبعد وصول تقارير الصليبيين العائدين إلى أوربا .

وبحسن الحظ ، فلدينا عدد من روايات باقية لشهود عيان . وفى ضوء التقارير الحديثة ، فإن جميع هذه الروايات لا تفى بالغرض ، كما أنها مليئة بعلوم الكنيسة ، ولكن بالمقارنة بالفترات المبكرة من العصور الوسطى ، فإن تقارير شهود العيان هذه أكثر وفرة وأكثر نقلا للأخبار . وربما تتضمن مجالات الدراسة المهملة أصول الحروب الصليبية ومشاريع البابا أوربان . ولقد تناقش المؤرخون الحديثون بسبب التكتم ex silentio [٩] . وينجح المؤرخ عندما يبلغ السيرة الفعلية للحملة الصليبية الأولى . وهناك عدد من الخطابات المتاحة التى تبدأ بخطابات البابوات ، والامبراطور ألكسيس ، وقادة الحملات الصليبية وحتى خطابات ستيفن كونت بلوا المتوقدة إلى زوجته أديلا Adela [١٠] . وعلى أحسن الفروض ، فإن هذه الوثائق موجزة ، وتحتوى على عدد من الكلمات أقل مما يحتويه أى تقرير صباحى لسرية من الجيش . وعلى أية حال ، فإن هذه الرسائل تتمتع بالأصالة ، وتعد من أفضل مصادر المعلومات .

وبحسن الحظ ، فلدى المؤرخين

ولاتينية ، وضعها من يطلق عليهم شهود العيان . فقد بدأ فولشر Fulcher ، وهو مواطن من شارتر Chartres ، رحلته الصليبية مع روبرت النورماندى وستيفن كونت بلوا وشارتر . ثم التحق فيما بعد بقوات بولدوين ، شقيق جودفرى دوق بوايون ، وأصبح القس الخاص ببولدوين . وتاريخه « تاريخ بيت المقدس » مكون من عدة أجزاء ، الأول منها يعالج ، أساسا ، الحملة الصليبية الأولى .وهذا العمل الذى من المحتمل أن تم كتابته فى عام ١١٠١م ، ينقل القارىء إلى الرها حيث ترك فولشر الحملة ، وروايته عن إكمال الرحلة ليست رواية شاهد عيان [١١] . أما آن كومنين ، ابنة الإمبراطور ألكسيس كومنين ، فقد كتبت الألكسياد Alexiad . وهذا التاريخ الذى كتب بعد أربعين عاما من قيام الحملة الصليبية الأولى ، يعالج أساسا دور أبيها وبعيد عن أن يُرتكن إليه . فقد كانت الأميرة زمن الحملة الصليبية لا تزال طفلة ، وبالعودة إلى الماضى جاءت أحداث كتابها وتواريخه مضطربة [١٢] .

وكتب بطرس توديبود ، وهو قس مدينة كيفراى Civray ، قبل عام ١١١١م « تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس » ، الذى يعتبر لسنوات عديدة تاريخ شاهد عيان هام . ولاشك أنه كان حقيقة مشاركا فى الرحلة إلى بيت المقدس ، ولكن المؤرخون الحديثون اعتبروا كتابه انتحالا لعمل آخر ، وهو التاريخ المجهول الذى يحمل عنوان « أعمال الفرنجة Gesta Francorum » ، مع الاقتباس من تاريخ ريموند اجيل [١٣] . ومن المؤكد ، من الناحية الجوهرية ، أن المعلومات التى وردت فى تاريخه ومثيلتها التى وردت فى الجستا معلومات متقاربة جداً . ولدراستنا هذه ، يمكن القول بأن هناك تاريخين لشاهدى عيان مهمين جدا لمتابعة الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها حتى ختامها الناجح ، وهذان التاريخان بالتحديد هما كتاب مؤرخ الجستا ، وكتاب ريموند اجيل .

ويعتبر الجستا هو أكثر هذين التاريخين خضوعا للدراسة ، وأكثرهما فهما لدى المؤرخين الحديثين . وقد تبع المؤرخ المجهول سيده بوهيمند إلى أنطاكية

واستمر فى الرحلة إلى بيت المقدس بعد أن بقى النورمان فى أنطاكية بصحبة صليبيين آخرين . ومنذ قيام فون سيبل Von Sybel بدراسته لهذا المصدر التاريخى ، فقد تمت أبحاث كثيرة حوله . ولم يصل الباحثون إلى اتفاق حول كثير من جوانب المشكلة . وبقى المؤلف المجهول مجهولا . وبالرغم من أن ستيفن رنسيمان يجد عام ١١٠٠م (أو عام ١١٠١م) تاريخا لإتمام الجستا ، فإن هذه المشكلة أيضا لم يبت فيها برأى قاطع . وتضم قائمة المؤرخين ، الذين أولوا إهتماما كبيرا لكتاب المؤرخ المجهول ، هاجنمير وبيريه ولبر وهيل على سبيل المثال لا الحصر [14] .

ومن الغريب أن لايتمتع المصدر المتبقى ، الذى يحمل عنوان « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » بمثل هذا الاهتمام . وإذا كان ذلك حقيقيا فيما يخص البحث العلمى عن المؤلف أو مناهجه ، فإنه من الحقيقى أيضا فيما يتعلق بالقصور الذى شاب النصوص الموجودة لهذا التاريخ ، الأمر الذى أسف له رنسيمان [15] . ولابد لأى مؤرخ جاد ، يتناول تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، وأن يتعامل مع تاريخ ريموندأجيل ، بالغ الأهمية لتاريخ الحروب الصليبية . ومع أن كتاب ريموندأجيل يطابق الجستا ، فإنه فى بعض الأحيان ، يمدنا بمعلومات غير متوفرة فى أعمال تاريخية أخرى . فريموندأجيل يقدم لنا تفصيلات عن الرحلة البروفنسالية إلى القسطنطينية غير واردة فى روايات بطرس توديبود . كما كان ريموندأجيل أكثر توفيقا من مؤلف الجستا فى تعامله مع شخصية أدهيمار (أسقف لى بويه) الغامضة . وجاءت رواية ريموندأجيل عن الرحلة من القسطنطينية إلى أنطاكية موجزة جدا ، ومع ذلك ، فهى تحتوى على بعض المعلومات الإضافية . وبالرغم من أن روايته عن حصار أنطاكية مضطربة زمنيا فى بعض الأحيان ، إلا أنه يضيف بها ، بشكل فعال ، إلى معلوماتنا التاريخية . وكان وصفه للأحداث منذ سقوط أنطاكية وحتى التخلى عن عرقة فى غاية الأهمية ، وبصفة خاصة روايته عن قصة الحربة المقدسة ، ومن الغريب أنها لم ترد فى الجستا . وتسد المعلومات التى أوردها عن الصراعات الكنسية بعد سقوط بيت المقدس الفراغ الذى تركته الجستا .

وباختصار فلابد من الرجوع إلى تاريخ ريموندأجيل فوليم الصورى ، أحد أشهر مؤرخى الحملة الأولى الثقاة ، اضطر إلى الرجوع إلى كتاب ريموندأجيل ، وكذلك فعل مؤرخون آخرون [16] . وبينما تعلم المؤرخون أنه لابد لهم من معايشة هذا القس ، فقد أدركوا أنهم تعاقدوا مع بارون مونتخاوزن [17] من العصور الوسطى،أقسم أن يكون محررا أمينا ، والأكثر احتمالا أنه مزج الحقيقة والخيال بمنتهى السهولة . وحين يفشل المؤرخون فى إدراك ذلك ، فغالبا مانجدهم يسيئون فهم ريموندأجيل بسبب الغموض الشديد الذى اكتنف حياته . وماذا نعرف بالفعل عن هذا الراوى ، الذى يغزل الروايات الصليبية المبهجة ؟ للأسف ، فنحن مضطرين إلى الاعتماد على كتابه وعلى النقد الداخلى من أجل الحصول على معلوماتنا عنه .

وقد خلف لنا ريموندأجيل ، مؤلف « تاريخ الفرنجة الذين غزوا بيت المقدس » ، ذو الأسلوب الخاص ، أثرا باهتا . ولقد عرفنا به لأول مرة منذ عشرين عاما ، أثناء قيامنا بعمل سيرة منقحة لريموند كونت سانجيل [18] ، وإذا كان لنا أن نصدقه ، فقد كان ريموندأجيل قسا خاصا لريموند الرابع كونت تولوز ، ورافق الكونت فى الحملة الصليبية الأولى ، وتم تعيينه قسيسا أثناء الرحلة . ويشير ريموندأجيل إلى نفسه على أنه كاهن لى بويه . ويشير إلى تاريخه ككتاب وضع لتبليغ أسقف فيفييه Viviers [19] .وكانت لى بويه ، البهيجة بتكويناتها البركانية ، مركزا مرموقا للنشاط الدينى قبل الحملة الصليبية الأولى . ولقد قابل أسقف لى بويه (أدهيمار) البابا أوربان الثانى هناك فى ١٥ أغسطس ١٠٩٥م، وأصبح وثيق الصلة بالمشاريع البابوية للحملة الصليبية [20] . وكان دير Chaise-Dieu ، أحد أماكن العبادة المفضلة لدى كونت تولوز ، قريبا أيضا من مشاريع البابا . وحين يشاهد المسافر اليوم كنيسة القديس ميشيل دى أجيل St. Michel-d'Aiguilhe وشرفات كونتات بوليجناك Polignac فى الطريق إلى دير Chaies-Dieu ، ربما يغريه ذلك على الاعتقاد بأن البيئة كانت مناسبة لتدريب مؤرخ الحرب المقدسة [21]

وعلى أية حال ، فإن معظم التفاصيل الدقيقة لحياة ريمونداجيل مفقودة ، وليس هناك تاريخ محدد لمولده أو لوفاته . وتعطى أغلبية المخطوطات المتاحة أشكالاً مختلفة لإسمه مثل Aguillers, Agilers, Agiles, Aguilers ، وهذه الهجاءات المتنوعة ليست إلا من عمل النُّسَّاخ وليس لها أى مغزى . ومن الممكن أن يكون ريمونداجيل ينتمى إلى مقاطعة اللوار الأعلى Haute - Loire ، كما يقترح رنسيمان . ومرة أخرى فإن هذا لايعدو كونه مجرد تخمين (٢٢) . ونفضل أن نفكر فى ريمونداجيل إرتباطا بكنيسة نيدل أوف لى بويه Needle of Le Puy، ولكن ينقصنا الدليل .

وإذا كانت تفاصيل حياته طفيفة ، فكذلك مايتعلق وضع تاريخه من حقائق . فيروى ريمونداجيل أنه قد اضطلع بدراسته كمشروع مشترك مع بونز بالازون Pons of Balazun ، ذلك الفارس المغمور فى حاشية ريموند سانجيل . كما يرى أيضا أنه عنى بوضع كتابه ليخفف من نقد الحملة الصليبية ، وليبين كذلك مجد وعدالة سبل الرب . ويوضح ريمونداجيل أنه يعرف أكثر مما يروى ، إلا أنه يفضل أن يكرس وقته لإبراز نشاطات قوات ريموند الرابع كونت تولوز . ولقد سقط زميله المؤرخ بونز قتيلا ، نتيجة جرح قاتل فى معركة عرقة ، وترك مهمة إكمال التاريخ لريمونداجيل (٢٣) . ويعتقد رنسيمان أن ريمونداجيل قد أتم تاريخه فى عام ١٠٩٩م ، ولكنه جانبه الصواب فى ذلك ، لأنه كما ذكرنا من قبل ، فإن المؤرخ كان مطلعا على تأثير عدم المبالاة بالعرف ، الذى تلا سقوط بيت المقدس . وربما كان كرى Krey أقرب إلى الصحة حين إفترض أن العمل فى هذا الكتاب قد انتهى فى عام ١١٠٢م ، ولكن فى إمكاننا أن نكون متأكدين أنه تم فقط قبل موت ريموند كونت تولوز (٢٤) . ويبين تاريخ ريمونداجيل أنه قد ولف روايته مستخدما ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، وتواريخ أخرى توفرت لديه . وتشير كل الدلائل إلى أنه رتب مادته التاريخية بتسلسل الأحداث . ولسوء الحظ ، فإن المخطوط الأصلى مفقود ، ويرجع أقدم مخطوطان إلى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى (٢٥) .

ويوضح كتاب ريمونداجيل ، لحسن الحظ ، عـدة حقائق تتعلق بالرجل نفسه ، تعليمه ، وميوله ، ومشاعره ، وتحيّزه . وقد كتب رنسيمان ، فى نقده لكتابنا عن ريموندسانجيل ، أننا نرى أن ريمونداجيل كان غبيا ، وغير دقيق ، ومتحيزا (٢٦) . إلا أننا كنا نهدف إلى إعطاء انطباع بأنه كان مؤمنا بالخزعبلات ، ومتحيزا ، وغير مهتم بالتفاصيل ، ولكننا لم نكن نريد أن توصل فكرة أنه كان غبيا . وكان ريمونداجيل أمينا حين اعترف بنواقصه ، ولكنه مثل معظم كتاب عصره ، كان يمقت سرقة المؤلفات دون الشعور بوخز الضمير . وكان صريحا فى طلب الصفح من الرب ، وكونت تولوز ، والجيش المسيحى . ولكن كان للكاهن الطيب إنحرافاته التى يمكن اكتشافها بسهولة . وكما فعل الكثيرون من كهنة عصره ، فقد ألقى ريمونداجيل بمسئولية الكوارث العسكرية الصليبية على الداعرات . وكذلك فقد كره البيزنطيين ولم يبذل جهدا ليثق فى مناصرتهم للقضية الصليبية . ولكونه ميالا إلى المبالغة فى إظهار بسالة الصليبيين ، فقد بالغ فى وصف المعارك بمادة شعائرية ، وقدم لنا المعجزات لينعش الأحداث الكئيبة للحياة اليومية . ويشير استخدامه للمادة التاريخية المتعلقة بتاريخ القديسين إلى مهارته أكثر مما يشير إلى سذاجته . وقبل كل شىء ، فهو يكشف عن حساسية معينة للأحداث التى تدور من حوله ، وأحيانا يصدم قارئه بطرح تساؤلات تتعلق بشرعية الحروب الصليبية .

وبصفة عامة ، فإن التاريخ الذى وضعه ريمونداجيل يكشف عن رجل على درجة متوسطة من التعليم ، بارع فى أداء الطقوس الكنسية ، ومتشرب بالآراء المادية للنصر النهائى للمسيحية ، رجل حول أحداث الحملة الصليبية الأولى إلى تاريخ إرشادى ، ذلك التاريخ الذى جاء محيراً بقدر ما أوضح من أمور . وباختصار ، فإنه بالمعايير الحديثة للسير الذاتية ، فنحن نعرف القليل عن ريمونداجيل . ولسوء الحظ ، فإن نقص المعلومات غير المرضي هذا ينطبق على مخطوطات كتابه .

مخطوطات الكتاب :

توجد سبعة مخطوطات كاملة أو شبه كاملة لكتاب ريمونداجيل ، كما توجد عدة روايات غير كاملة أو مُحرّفة للكتاب . والمخطوط الذى وقع عليه إختيارنا لنقوم بترجمته هو مخطوط سان فيكتور St. Victor الرائع (Ms Latin 14,378) وهو من مقتنيات المكتبة الأهلية بباريس .ويضم هذا المخطوط ، على التوالى ، أعمال كل من فولشر أوف شارتر ، ووالتر المستشار [٢٧] ، وريمونداجيل ، وقد أضيف هذا الأخير ، كما أشير علينا ، لأن الرواية استمرت فى تفاصيل أكثر مما جاء فى تاريخ فولشر . وتوجد أيضا نسخ من كتاب ريمونداجيل ممزوجة بتاريخ كل من فولشر ووالتر فى المخطوط Ms Latin 5131 الذى تمتلكه أيضا المكتبة الأهلية بباريس ، وفى المخطوط Ms Latin 1102 ، بمكتبة الأرسنال بباريس ، والمخطوط Ms Latin 262 بمكتبة دى لافيل بكليرمونت ، والمخطوط Ms Latin 261 بمكتبة برن ، والمخطـوط Ms Latin 8927 بمكتبة المتحف البريطانى . أما المخطوط Ms Latin 5511 A بالمكتبة الأهلية بباريس ، فيحتوى فقط على كتاب ريمونداجيل ويحمل عنوان « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » .

وفى النسخة المطبوعة لكتاب ريمونداجيل ، أدرج بونجارز Bongars فى بداية القرن السابع عشر الميلادى فى كتابه « أعمال الرب التى تمت بأيدى الفرنجة » "Gesta Dei per Francos" ، تاريخ ريمونداجيـل مستخدما مخطوط مفقود الآن ، وهو على مايبدو تنقيحا للنمط الذى يقدمه المخطوط رقم 5511 A ومخطوط برن 261 . وقد استخدم بونجارز أيضا هذا المخطوط كأساس لطبعته ، وليس تحت أيدينا الآن القراءات المضبوطة لهذا العمل المفقود ، لأن بونجارز خلال محاولته لبناء نص من مصدريه ، استخدم تهذيبات ، وقدم قراءات من المخطوط 261 (برن) . ونحن متأكدين من أن مخطوط بونجارز قد فقد الأوراق التى تحتوى على رواية معركة عسقلان ، وأن ناسخ المخطوط قد نقل الرواية من مؤلف آخـــر .

وفى عام ١٨٦٦ م نُشر نص لتاريخ ريمونداجيل فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) (RHC - H.Occ.) . واستخدم المخطوط 14,378 كأساس مع تنقيحات اقتبست من المخطوط 5131 والمخطوط 5511 A والمخطوط 1102 والمخطوط 262 . ولم تُستخدم مخطوطات برن ولندن فى هذه الطبعة ، مع أنه قد تم اقتباس قراءات مختلفة من بونجارز . التى يتبع الكثير منها مخطوط برن 261 . وكذلك ، فإن ترجمات كتاب ريمونداجيل لم تحمل إلا القليل من النقد ، وربما لم تحمل شيئا من النقد بالمرة ، ولم يتم القيام بأى شئ مميز حول منهجه منذ أصدر كليمنس مقالته [٢٨] .

وفى دراستنا للمخطوطات والطبعات المنشورة لكتاب ريمونداجيل وأعمال النقد حوله ، توصلنا إلى أن المناهج التى اتبعتها هذه الأعمال النقدية واتبعها المتخصصون ، لايمكن أن تكشف عن القليل مما هو جديد في مجال الدراسة . وقد عملت الطبعات المنشورة على تحديث ترقيم النص وعلامات الوقف فيه . وخلاف ذلك ، فقد حجبت دليل النُسّاخ ، بتغيير أقسام المخطوط والتنقيح حسب الرغبة ، وأحيانا دون ملاحظة . وغالبا ما تم تجاهل التورية الأدبية ، والمتطابقات ، وأيضا المقتبسات من الكتب الدينية ومصادر القداس .

وبحثا عن وسيلة نتبع بها أساليب أكثر فائدة لالتقاط المعلومات من هذه المصادر ، فقد رجعنا إلى المخطوطات لمزيد من الدراسة . ولما تخلينا عن القيام بجهد للتثبت من قراءات الأصول المفقودة ، فقد رجعنا إلى مخطوط سان فيكتور ، وهى نسخة كاملة من كتاب ريمونداجيل ومحررة بعناية ، كما تبقت لنا اليوم . واتبعنا ، فى نشر الكتاب ، تشكيل المخطوط (دليل من العصور الوسطى لارتفاع وانخفاض الصوت أثناء القراءة جهرة) والتمسنا الإيضاح الحُر فى المصادر والنماذج التى ربما كان المؤلف على دراية بها ، والمادة التى توجد فى كتب أداء الطقوس الكنسية التى توفرت لديه . والترجمة الحالية لنص المخطوط رقم 14378 الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس ، وهى لاتعتمد على المصادر المطبوعة ، وتعكس ما تعلمناه من دراسة ومقارنة المخطوط . وأصبح لا مناص من أن تتعلم

– خــلال دراستنا للمخطوط إلى جانب ترجمة تاريخ ريموندا جيل – أسلوبه ومنهجه . وفى هذا الصدد يجب أن نقرر أنه كان كاتبا بارعا يجب أن يجعل الخيال يبدو حقيقة .

الأسلوب والمنهج :

ترك لنا كتاب ريموندا جيل من التاريخ والمعلومات التفصيلية الكثير مما ترغب فيه ، وبالمقابلة مع الجستا ، فإن منهجه يوضح أنه اتجه إلى استخدام معلومات غير معلوماته الخاصة . ومن المحتمل أن يستخف المدققون فى المحافظة على اللغة وقواعدها بعمل ريموندا جيل ، لأن لغته اللاتينية تقابل – بشكل غير ملائم – لاتينية جيوبرت أوف نوجنت ووليم الصورى وكتاب آخرين كانوا أكثر منه إهتماما بالأسلوب . ولايمكن أن نمسك عن التعليق بأن الأسلوب فى حد ذاته ربما يخفى الحقيقة [28] . ومع ذلك فلدى مؤرخنا موهبة أدبية فى وصف الأحداث . وتعكس بعض فقراته حساسية لبيئته ، وبذلك تملؤها روح الصليبية ، وكانت لاتينية معبرة ، وغالبا ماتكشف عن عاطفة وإحساس انسانى أكثر مما يكشف الأسلوب المتأنق لكتاب جاهدو من أجل التأثير الأدبى . وعلى أية حال ، فسرعان مايكتشف القارىء أن ريموندا جيل كان – كما يعترف هو بأمانة – رجل كنيسة بسيط ، يعرف ماهو أكثر من كتب الطقوس الكنسية والأمور الدينية المتعلقة بوظيفته . وما يظهر من تلميحات كلاسيكية فى عمله ، فهى عادة ما تكون مقتبسة من كتب الطقوس الكنسية . وهكذا إلتفتنا إلى زخرفة عمله هذه حتى يمكن قراءة كتابه بفهم .

وقد ظلت هذه الزخرفة غير ملحوظة بالنسبة لكثير من العلماء ، ولكن ثمة دراسة عرضية . لتاريخ ريموندا جيل ، قدمت لنا جزءا كبيرا من استعاراته من كتب الطقوس ، وهى سمة تبديها الروايات الأخرى بدرجة أقل ، والتى نبه إليها لويس بيريه بشكل طفيف [29] . وتذكرنا لغة ريموندا جيل بمزامير العهد القديم . وتوحى صلواته بسياقاته عن كفارة الجيش . ويقتبس المؤرخ بحرية ، من الكتب الدينية الشكوك فى صحتها والحركة ، ومن معجزات وحياة القديسين . ولازال المؤرخون المحدثون يرددون روايته النامية عن نهب المسيحيين للمسجد الأقصى ، وعلى مايبدو ، دون أن يعرفوا أن المؤرخ قد جعلهم يكررون فقرات من الرؤى [30] . ويدرج ريموندا جيل ترنيمة مع ما جاء فى كتب أداء الطقوس الكنسية ، وأحيانا يستخدم نغمة إرشادية (وعظية) كخطبة عن خطايا الصليبيين . ولايتردد المؤرخ فى استخدام جزء من الطقوس التى تُردَّد خلف القس الذى يؤدى القداس. وبالمثل ، فإنه يستخدم الأسفار القصيرة مثل « إنهض أيها المسيح » Exsurge Christi ومايردده خلف القساوسة مثل « وحرّرنا » Et Libera nos ، عندما يقع الصليبيون فى كمين . وليعد الفرنج بمساعدة آتية من الرب يستخدم الترتيلة « أنتم جميعا » Vos Ommes مع جزء من المزامير يتلى قبل وبعد الصلاة الربانية . ومن هذه الأمثلة القليلة نود أن نصور كاهننا (ريموندا جيل) جالسا على مكتبه محاطا بكتب الطقوس ، التى تتضمن نسخة من تاريخ المكابيين ، وربما مع مصدر عام للحروب الصليبية ، وهو يعانى من البرد والحر بينما هو يشرح للمتشككين وسائل الرب الغامضة ، وأخيرا وهو يتنفس الصعداء عندما ينتهى من وضع تاريخه بسعادة بالغة [31] .

وهكذا ، فنحن مضطرين – ونحن نواجه هذه الوفرة من كتب الطقوس الدينية – كما لاحظنا من قبل ، أن ننظر إلى ريموندا جيل كمؤلف ، يستعرض قدرة وثقافة أدبية . وهو يفهم الشكل المقبول لأسلوب وصفه أحسن وصف البروفيسور رادولف ويلارد Rudolph Willard كخيال كنسى ، كما يظهر ريموندا جيل مقدرة ملحوظة على مزج الحقائق العريقة فى تخيل عاطفى ودينى [32] . وقد مكنته مهارته فى هذا المجال من أن يخدع كثير من المؤرخين . فقد أحاط روايته جيدا بإطار صممه بعناية . فالأحداث التالية تلقى بظلالها إلى الامام ، وهكذا يظهر أن تطلعاته الأدبية تفوق رغبته فى تسجيل روايته يوما بيوم أثناء رحلته إلى بيت المقدس . ويستعير المؤرخ عبارات من الأدب الكلاسيكى (الرومانى) ربما بأسلوب الكتب الكنسية ، وبصفة خاصة من معلوماته عن أعمال القديس أمبرواز

Ambrose . ومع ذلك ، فهو يستخدم تلك العبارات بطريقة تتناسب مع القيم الوصفية ، ويعتد بجمالها .

ويستعين المؤلف بالأناجيل ليؤكد عدالة المناسبة ، ويبذل جهده ليعطى لروايته وضعا دنيويا . ويُشهد على حقيقة المعجزة إثنين أو أكثر من شاهدى العيان كما فى كتاب العظات ، والعهد القديم والعهد الجديد . فقد أصيب بطرس بارثلميو مكتشف الحربة المقدسة بحروق طفيفة عندما مر باختبار النار ، بسبب شكوكه المبكّرة حول الحربة . وتكشف لنا روايته كلها عن الحربة ، إلى جانب كل تشعباتها ، عن إختلاق ماهر للأحداث . وحتى فى وصفه لأردية الزوار السماويين ، فإن الراهب الطيب كان حريصا على أن يقدم لنا تفاصيل تقوم على نماذج أيقونية كانت شائعة آنذاك (٣٣) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد استخدم ريموندا جيل شعارا أدبيا صار ذا شعبية بعد عدة سنوات ، عندما استعرض المهتمون بإحياء العلوم القديمة درايتهم باللاتينية ، بتوجيه السباب إلى عدو وهمى ، وبذلك يقودون قراءهم إلى التشوق إلى معرفة اسم الشخص المسكين ، وفى اللحظة الأخيرة يحرمون جمهورهم من متعة اكتشاف ذلك بكتابة تعبير « لاسمح الله » . وبالنسبة لريموندا جيل فسيأخذ قراءة حتى باب الماخور ، وعبث الراقصات ، واغتصاب النساء الصارخات ، ولكنه يتوقف ، تاركا مشاهديه لخيالهم . وعلى العكس من ذلك ، فإنه إلى جانب ذلك ، يستمتع بلذة وصف أعمال سفك الدماء العنيفة .

وأحيانا ، يكشف ريموندا جيل عن موهبة أدبية كما ثبت ذلك ببعض الأمثلة . فيذكر الخلافات بين البيزنطيين والبروفنساليين باختصار شديد ، ثم يسارع إلى إخبار قراءه « هل اكتب عن أبشع خيانة حملتها مشورة الامبراطور ؟ أم أسجل الهروب المشين لجيشنا ، وعجزه الذى لايمكن لأحد أن يتصوره ؟ على العكس من ذلك ، فليستغفر من شاء أن يعرف ذلك من غيرنا » (٣٤) .

ومثل الكثيرين من كتاب العصور الوسطى ، فقد تفوق ريموندا جيل فى الكتابة الوصفية ، كما هو موضح فى الفقرات التالية . فبعد انتصار كونت الفلاندرز بالقرب من أنطاكية ، يروى ريموندا جيل أنه كان بإمكان الشخص أن يرى « القتلى منطرحين بطول الطريق مثل حزم القمح زمن الحصاد » (٣٥) . ويبتهج ريموندا جيل متتبعا هزيمة أهل طرابلس حين كتب « لقد كان مشهدا مبهجا ، والمياه المتدفقة فى المجرى المائى تدحرج أجساد النبلاء والدهماء إلى طرابلس دون رؤوسهم » (٣٦) . كما يجعل ريموندا جيل أن لا طائل من الخطيئة حين يحكى عن مصرع الفرسان الأتراك حين قفزوا من جرف هاو ليهربوا ممن يلاحقونهم من الفرنج . فيعتقد أن ذلك كان مشهدا يسر الرب ، ولكن فقدان الخيول كان أمرا مزعجا بالنسبة له (٣٧) . وربما يدرس القارئ تاريخ ريموندا جيل ، وهو متنبه بهذه المعلومات ، بشكل نقدى ، وهو يتذكر دائما أن المؤلف يعالج التاريخ معالجة لها غاية . وهكذا ، فقد أثار كتاب ريموندا جيل مشكلة فهم منهجه وكذلك مشكلة ترجمة تاريخه لتقديمه لقراء القرن العشرين دون الهجوم على مؤلفه الأدبى الكبير .

الترجمة

لقد اضطلعنا بمهمة القيام بهذه الترجمة منذ عدة سنوات مضت – إلى حد بعيد – نتيجة للمساندة التى تلقيناها من الجمعية الفلسفية الأمريكية فى شكل ثلاث منح . كما تلقينا العون من الجامعة الزراعية والميكانيكية بتكساس ، وجامعة هوستن . وأثناء القيام بهذا الجهد ، قمنا بإنجاز عدة ترجمات ومراجعات . وفى النهاية ، وبعد بحث دقيق ، قررنا أن نقوم بترجمة بتصرف ، وبذلك أخضعنا أنفسنا للنقد المتوقع من قِبَل المدققين فى المحافظة على اللغة وقواعدها . وبعد التعمق المبدئى ، شعرنا أننا تمكنا – بنوع ما – من استعادة روح ريموندا جيل وجعلنا من تاريخه جزءا من تاريخ البشرية ، أكثر من أثر جاف تبقى لعلماء اللغة اللاتينية . وبذلك نأينا عن التعبيرات التى غالبا ماملأت الترجمات الوسيطة . فحذفنا ضمير المخاطب « أنت » "thee" و « وأنت » thou (التى تستعمل لعدم الكلفة) وتحررنا كثيرا من التركيبات اللفظية لإيضاح المعانى . ومثل كل

الترجمات ، سيكون هناك بلاشك من الأخطاء ، مايُسعد المتفحص لهذه الترجمة . ولكننا نأمل فى أن يكون القارئ، أكثر اهتماما بتدفق الرواية ، وهى قصة مستها عواطف مجموعة جاهلة من اللاتين قاموا بالإرتحال لاسترداد القبر المقدس . ويكشف ريمونداجيل بأسلوبه البسيط عن آمالهم ومخاوفهم ، وابتهاجاتهم ، وسجل يأس الضعفاء منهم ، وبطولة من سقطوا قتلى فى ميدان القتال ، كما سجل رجاءهم فى الجزاء السماوى ، وتساؤل القلب البشرى لماذا تكون الحرب هى مشروع الرب .

* * * * *

(١) John L. La Monte, Some problems in Crusading Historiography, in speculum, 15, 1940, pp. 57 - 75.

(٢) Hans E. Mayer, Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzüge, Hannover, 1960.

(٣) D.C. Munro, The Speech of Pope Urban at Clermont, 1095, in A.H.R., 11, 1906, PP. 231 - 242, F. Duncalf, The Councils of Piacenza and Clermont, in setton, vol. 1, p. 237 - 247.

(٤) M.W. Baldwin, some Recent Interpretations of Pope Urban's Eastern, Policy, in C.H.R., 25, 1940, pp. 459 - 466; A.C. Krey, Urban's Crusade-Success or Foilure, in A.H.R., 53, 1948, pp. 235 - 250, James A. Brundage, Recent Crusade Historiography, Some observations and Suggestions, in C.H.R., 49, 1964, pp. 493 - 507.

ويقدم فريدريك دنكوف قائمة شاملة للمراجع الأدبية فى هذا الموضوع .

أنظـــر : Frederic Duncalf, op. cit., p. 221, n.

(٥) P. Alphandéry and A. Dupront, La Chrétienté et l'idée de Croisade, Paris, 1954; C. Erdman, Die Entstehung des Kreuzzugsgedanken, stuttgart, 1935; P. Rousset, Les Origines et caractères de la première croisade, Neuchâtel, 1954; M. Villey, La Croisade : Essai sur la formation d'une théorie juridique, Paris, 1942.

(٦) R.C. Smail, Crusading Warfare (1097 - 1193), Cambridge, 1956; Heinrich Hagenmeyer, Chronologie de la première croisade, in R.O.L., 6-8, Paris, 1898 - 1901; J. C. Andersson, The Ancestry and life of Godfrey of Bouillon, Bloomington, 1947; Charles W. David, Robert Curthose, Duke of Normandy, Cambridge, 1920; J.H. Hill and Lauria L. Hill, Raymond -

IV de Saint- Gilles, Toulose, 1959, and translation, Raymond IV, Count - of Toulouse, Syracuse, 1962; Marshall M. Knappen, Robert II of Flanders in the First Crusade, in Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 79 - 100; Robert Lawrence Nicholson, Tancred, Astudy of his career and work in their relation to the First crusade and the setablishment of the Latin states in syria and Palestine, chicago, 1940; R.B. Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioche, Princeton, 1917.

(٧) Steven Runciman, A History of the crusades, 1, cambridge 1951.

(٨) A.S. Atiya, The Crusade : Historiography and Bibliography, Bloomington, 1962.

(٩) F. Duncalf, The Pope's plan for the First Crusade, in The Crusades and other, Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 44 - 56.

(١٠) H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus, den Jahren 1088 - 1100, Insbruck, 1901; P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, in A.O.L., 1, 1881.

(١١) Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, in R.H.C. - H. Occ., vol. 3; Historia Hier osolymitana. Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg, 1913. Mary E. Mc Ginty, Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, Philadelphia, 1941.

والعمل الأخير عبارة عن ترجمة جزئية لكتاب فولشر . ويعمل هارولد فينك الآن فى ترجمة كاملة له . ويعتقد بعض المؤرخين أن فولشر قد بدأ تاريخه فى عام ١١٠١م . فإذا كان الأمر كذلك ، فإن ذلك يبين أن عمل ريمونداجيل كان قد أتم . وعلى أى حال ، فليس لدينا دليل قاطع على ذلك .

(١٢) Anna Comnena, Alexiade, ed. B. Leib, in Collection byzantine de Association Guillaume Budé. Paris, 1937 - 1945. E.A.S. Dawes, The Alexiad of the Princess Anna Comnena. London, 1928.

(١٣) Petrus Tudebodus, Historia de Hierosolymitano itinere, in RHC Occ., 3, Paris 1866.

(١٤) H. Hagenmeyer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, Heidelberg, 1890; Louis Bréhier, Histoire anonyme de la première Croisade, in Les Classiques de l'histoire de France au Moyen Age, 4, Paris, 1924.

وللمزيد عن الطبعات الأخرى والأعمال النقدية حول هذا الكتاب انظر :

H. Mayer, Bibliographie.

(١٥) Runciman, op. cit, p. 329.

وسوف تنشر قريبا ريمونداجيل فى : "Documents relatifs à - l'histoire des croisades" (l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres).

انظر أيضا : A.C. Krey, The First crusade, Princeton, 1921.

قام كرى بترجمة عدد من المصادر ومزجها فى رواية عن الحملة الصليبية الأولى .

راجع أيضا ترجمة M. Guitoz لتاريخ ريمونداجيل فى Collection des memoires relatif à l'histoire de France, No. 21, Paris, 1824.

ولم يقدم جويتوز ترجمة نقدية ولا هوامش .

(١٦) Willelmus Tyrensis archiepiscopus, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, in RHC Occ, 1, Paris, 1844; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the seas, trans. by E.A. Babcock and A.C. Krey, 1, New York, 1943; Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ, 4, Paris, 1879.

ولقد تأثر وليم الصورى بتاريخ ألبرت دكس .

- وبارون مونخاوزن هو بطل قصة ألمانية خيالية وضع عنها R.E. Raspe كتابا بالانجليزية مليئا بالمغامرات .(الترجمة العربية).

IV de Saint- Gilles, Toulouse, 1959, and translation, Raymond IV, Count - of Toulouse, Syracuse, 1962; Marshall M. Knappen, Robert II of Flanders in the First Crusade, in Crusades and other Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 79 - 100; Robert Lawrence Nicholson, Tancred, Astudy of his career and work in their relation to the First crusade and the setablishment of the Latin states in syria and Palestine, chicago, 1940; R.B. Yewdale, Bohemond I, Prince of Antioche, Princeton, 1917.

(٧) Steven Runciman, A History of the crusades, 1, cambridge 1951.

(٨) A.S. Atiya, The Crusade : Historiography and Bibliography, Bloomington, 1962.

(٩) F. Duncalf, The Pope's plan for the First Crusade, in The Crusades and other, Historical Essays presented to Dana C. Munro, New York, 1928, pp. 44 - 56.

(١٠) H. Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe aus, den Jahren 1088 - 1100, Insbruck, 1901; P. Riant, Inventaire critique des lettres historiques des croisades, in A.O.L., 1, 1881.

(١١) Fulcherius Carnotensis, Historia Hierosolymitana Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, in R.H.C. - H. Occ., vol. 3; Historia Hierosolymitana Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg, 1913. Mary E. Mc Ginty, Fulcher of Chartres, Chronicle of the First Crusade, Philadelphia, 1941.

والعمل الأخير عبارة عن ترجمة جزئية لكتاب فولشر . ويعمل هارولد فينك الآن في ترجمة كاملة له . ويعتقد بعض المؤرخين أن فولشر قد بدأ تاريخه في عام ١١٠١م . فإذا كان الأمر كذلك ، فإن ذلك يبين أن عمل ريموندأجيل كان قد أتم . وعلى أي حال ، فليس لدينا دليل قاطع على ذلك .

(١٢) Anna Comnena, Alexiade, ed. B. Leib, in Collection byzantine de Association Guillaume Budé, Paris, 1937 - 1945. E.A.S. Dawes, The Alexiad of the Princess Anna Comnena, London, 1928.

(١٣) Petrus Tudebodus, Historia de Hierosolymitano itinere, in RHC Occ., 3, Paris 1866.

(١٤) H. Hagenmeyer, Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum, Heidelberg, 1890; Louis Bréhier, Histoire anonyme de la premiére Croisade, in Les Classiques de l'histoire de France au Moyen Age, 4, Paris, 1924.

وللمزيد عن الطبعات الأخرى والأعمال النقدية حول هذا الكتاب انظر :

H. Mayer, Bibliographie.

(١٥) Runciman, op. cit, p. 329.

وسوف تنشر قريبا ريموندأجيل في : "Documents relatifs à - l'histoire des croisades" (l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres).

انظر أيضا : A.C. Krey, The First crusade, Princeton, 1921.

قام كري بترجمة عدد من المصادر ومزجها في رواية عن الحملة الصليبية الأولى .

راجع أيضا ترجمة M. Guitoz لتاريخ ريموندأجيل في Collection des memoires relatif à l'histoire de France, No. 21, Paris, 1824.

ولم يقدم جيتوز ترجمة نقدية ولا هوامش .

(١٦) Willelmus Tyrensis archiepiscopus, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, in RHC Occ. 1, Paris, 1844; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the seas, trans. by E.A. Babcock and A.C. Krey, 1, New York, 1943; Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. Occ, 4, Paris, 1879.

ولقد تأثر وليم الصوري بتاريخ ألبرت دكس .

- بارون مونخاوزن هو بطل قصة ألمانية خيالية وضع عنها R.E. Raspe كتابا بالانجليزية مليئا بالمغامرات .(الترجمة العربية).

(١٧) John Hugh Hill and Laurita L. Hill, Raymond IV de Saint-Gilles, see n.6.

(١٨) هذه المعلومات مستقاة من مقدمة ريمونداجيل . انظر مايتقدم ، ص ٥٤ .

(١٩) John Hugh Hill and Laurital L. Hill, Contemporary Accounts and the Later Reputation of Adhémar, Bishop of Puy, in MH,9, 1955, pp. 30-38; James A. Brundage, Adhémar of Puy and His Critics, speculum, 34, 1959, pp. 201 - 212; H.E. Mayer, Zur Beurteilung Adhemars von Le Puy, in DA, 16, 1960; Jean Richard, Raymod D'Aguilers, Historien De la Première Croisade, in JS, 1960 - 61, pp. 206 - 212.

(٢٠) Pierre - Roger Gaussin, L'Abbaye de la Chaise - Dieu (1043 - 1138), Paris, 1960, pp. 1130 - 132.

ويبرز هذا الكتاب الممتاز تأثير كنيسة Chaise - Dieu على حياة ريمونداجيل .

(٢١) Ibid, pp. 70 - 72.

(٢٢) Runciman, op. cit., p. 328.

(٢٣) انظر ما يتقدم ، ص ٥٤ .

(٢٤) Runciman, op. cit., p. 328; A.C. krey, The First Crusade, p. 9, n. 15.

(٢٥) لم ندرج القراءات من المخطوط (MS Latin 5131 A) الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ، والذي يرجع إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، لأنه متأخر زمنيا ، ولأنه به محاولة لمزج تاريخ فولشر وتاريخ ريمونداجيل ، كما لم ندرج قراءات المخطوط (MS Latin 6041 A) لأنه متأخر زمنيا وغير كامل . كما أن المخطوط (MS Harley 4340) الموجود بالمتحف البريطاني لأنه يحمل العنوان خطأ ولا يحتوى على كتاب ريمونداجيل .

(٢٦) لستيفن رنسيمان نقد لكتاب « ريموند الرابع دى سان جيل » انظر :

E H R, July, 1961, pp. 515 - 16.

(٢٧) يعتبر والتر المستشار Walter the Chancellor أول المؤرخين اللاتين الذين نشأوا فى الشرق . وقد وضع كتابه « الحرب الأنطاكية » Bella Antiochena بتكليف من روجر دى سالرنو أمير أنطاكية (١١١٣ - ١١١٩م) ويعالج الكتاب الفترة من ١١١٤م إلى= ١١٢٢م . وأهم مايحتويه ، إلى جانب حروب روجر ضد السلاجقة ، المعلومات الجغرافية عن بلاد الشام . ويعد والتر آخر من أنجبه المجتمع اللاتينى بشمال الشام من مؤرخين ، وآخر من اهتم بسرد تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية . وكتابه منشور فى الجزء الخامس من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٣٣ - ٣٤ . (الترجمة العربية) .

(٢٨) أنظر ما سبق ، حاشية ١٥ . راجع أيضا :

Clemens Klein, Raimund Von Aguilers, in Quellenstudie zur Geschichte des ersten kreuzzuges, Berlin, 1892.

(٢٩) Krey, The First Crusade, p. 8.

(٣٠) Louis Bréhire, op. cit., p. 131, n. 4.

(٣١) انظر ما يتقدم ، ص ٢٤٧ .

(٣٢) سنذكر مصادر هذه الأشكال المختلفة فى حواشى الترجمة ، انظر مايتقدم ، ص ٩٦ حاشية رقم ١١ على سبيل المثال .

(٣٣) Radulf Willard Two Apocrypha in Old English Homilies, in Beitäge zur Englischen Philologie, 30, 1935, p. 2.

(٣٤) انظر مايتقدم ، ص ٢٠٤ - ٢٠٧ . والمقصود باختبار النار ذلك الذى مر به بطرس بارثلميو .

(٣٥) انظر ما يتقدم ، ص ٧٠ .

(٣٦) انظر ما يتقدم ، ص ٩٠ .

(٣٧) انظر ما يتقدم ، ص ٢١٦ .

(٣٨) انظر ما يتقدم ، ص ١٢٠ .

تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس

كتبه ريموندا جيل (راهب نوتردام دى بويه)

يلتمس بونز أوف بلازون Pons of Balazun [1] وريمـــوند ، راهب لى بويه [2] ، منك ياسيدى ، أسقف فيفيه Viviers [3] ، ومن كل مستقيمى العقيدة مباركتكم ومشاركتكم فى عنائنا . ونقوم بوضع هذا الكتاب لنخبركم وكل شعب ماوراء الألب بكل الأعمال المجيدة التى نفذها الرب ، بكرمه المعتاد على الدوام ، من خلالنا . وسوف تعين هذه المهمة التى اضطلعنا بها - أساساً بسبب عدم مواتمة الحرب ، ومن هنا دأب الآبقين على نشر الأكاذيب دون الحقيقة - قراء المستقبل على تجنب صداقة ومشورة مثل هؤلاء المرتدين ، لأن أعمالهم ستكون كتابا مفتوحاً . وجدير بالتسجيل أن جيش الرب ، بالرغم من أنه تحمّل سوط الرب بسبب خطاياه ، ومع ذلك انتصر على كل الوثنيين بسبب عطف الرب الودود . ولكن يبدو أنه أمر شاق جدا أن نكتب عن كل رحلة ، لأن بعض الصليبيين عبروا دلماشيا Sclavonia [4] . وعبر آخرون بلاد المجر[5] ، ولومبارديا ، أو ذهبوا بحرا . لذلك ، فقد كان محل اهتمامنا هو الكتابة عن كونت سانجيل [6] ، وأسقف لى بويه [7] ، وجيشهم ، دون القلق بشأن الآخرين .

* * * * *

(١) بونز أوف بلازون . المؤلف المشارك لكتاب ريموندا جيل ، من المحتمل أنه كان فارســا من دوقية فيفيه . وهناك عدة أشكال لإسمه ومنها Baladun, Ballon, Balun . ولقد لقى حتفه أثناء حصار عرقة ، وأكمل ريموندا جيل الكتاب بنفسه .

(٢) ريموندا جيل راهب مدينة Le Puy هو مؤلف « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » أنظر : Runciman, op. cit., pp. 328 - 329.

(٣) كان أسقف فيفيه زمن الحملة الصليبية الأولى شخص يدعى لجر Leger . وتقع فيفيه إلى الجنوب الشرقى من Chaise - Dieu, Le Puy (كرسى الرب) وكانت منضمة إلى الأخيرة التى كانت كنيسة ريموند كونت تولوز المفضلة . أنظر :

Dom. Cl. Devic ande Dom. J. Vaisette, Histoire génerale de Languedoc, in HGL., 3, p. 542.

(٤) سكلافونيا هو الاسم الذى أطلقه ريموندا جيل على دلماشيا ، موطن السلاف . ومن المحتمل أن وصفه لدلماشيا أرض مهجورة ، صعب الوصـــول إليها . جبلية ، مقتبس من المزامير (Psalm, 62 : 3) وهذا المزمور « يارب . يارب . ياربنا » " Deus. Deus. Meus " يردد فى صلاة الأحد ، عند أداء التسابيح الصباحية التى تمجد الرب ، وفى صلاة الموتى عند أداء هذه التسابيح . وفى مثل هذه المناسبات الأخرى التى يستلزم فيها كتاب الصلوات ترديد مزامير الأحد .

(٥) مرت المجـــر بفترة سلام قبل الحروب الصليبية بفضل جهود الملك لاديسلاس (١٠٧٧ - ١٠٩٥ م) . وكانت مشكلة الملك كولومان الذى خلف لاديسلاس هى كيفية كبح جماح الجيوش الصليبية .

(٦) غالبا ما استخدم المؤرخون اللاتين والمؤرخون المسلمون اسم كونت سان جيل للإشـــارة إلى كونت تولوز . وكانت سان جيل - زمن الحملة الصليبية الأولى - مدينة مزدهرة ، وتقع عند مصب نهر الرون .

- درج المؤرخون المسلمون على تسمية كونت ترلوز باسم الصنجيل . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٣ . (الترجمة العربية) .

(٧) المقصود بأسقف لى بويه Le Puy هو أدهمار .

- وقد عيّنه البابا أوربان الثانى رئيساً دينياً للحملة الصليبية الأولى إلى جانب رئيسها العلمانى ريموند كونت ترلوز . انظر :

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 109 - 110.

(الترجمة العربية) .

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »

صدق الله العظيم

(الكهف ١٠٣ - ١٠٤)

الفصل الأول

الرحلة عبر دلماشيا وغدر البيزنطيين

وبعد الرحيل ، دخل الجيش إلى دلماشيا ، وعانى كثيرا من الصعوبات خلال فصل الشتاء . وفي الحقيقة ، فإن دلماشيا أرض مهجورة ، وصعب الوصول إليها ، وهي جبلية ، حيث لم تقع أنظارنا على حيوانات برية أو حتى طيور . أما سكانها الهمجيون [8] ، فلم يتاجروا معنا ، ولم يمدونا بالأدلاء ، بل إنهم هربوا من قراهم وحصونهم ، وكأنه وقع بهم أذى شديد من [illegible] القوم . فقد أزهقوا هذه الأرواح المسكينة - المنهكين ، النساء ، والرجال العجائز ، الفقراء ، والمرضى - كما لو كانوا مواشي تذبح ، ولاعتياد السلاف على المناطق الريفية ، فقد كان من الصعب على فرساننا ثقيلي التسليح أن يطاردوا هؤلاء اللصوص غير المسلحين في جوف الجبال الوعرة والغابات الكثيفة [9] . إلا أن قواتنا قد صمدت على قطاع الطرق هؤلاء ، لأنه لم يكن في استطاعة جنودنا أن يقاتلوهم في الخلاء ، أو يتجنبوا مناوشاتهم .

ولقطع روايتنا عند هذه النقطة ، لنروي قتالا مجيدا للكونت في أحد الأيام ، على الطريق عندما اندفع رهوند وفرقته ، عندما وجدوا أنفسهم محاطين بالسلاف ، وأسروا حوالي ستة منهم [10] . وأدرك الكونت ، وقد ضغط عليه الآن رفاقهم المتوحشون بشدة ، أنه مضطر إلى اقتحام صفوفهم ، حتى يصل إلى قواته . وهكذا أصدر أمرا بسمل أعين بعض أسراه ، وبتر أقدام البعض ، وجدع أنوف وأيدي الباقين وإخلاء سبيلهم . وهكذا ، سلم هو ورفاقه ، بينما تملك الأعداء الرعب بسبب المنظر البشع الذي كان عليه زملاؤهم المشوهين ، وألجمهم الحزن . وبهذه الوسيلة نجا الكونت من خطر الموت ، ومن هذا المكان الخطر بفضل إحسان الرب .

وفي الواقع ، نجد أنه من الصعب أن نسجل الشجاعة والحكمة التي أظهرها رهوند في دلماشيا (11) ، وسرنا لمدة أربعين يوما تقريبا ، في هذه البلاد ، أحيانا

تواجه سحب الضباب ، ونكاد نلمس هذه الأبخرة وندفعها بأجسادنا إلى الأمام [١٢] . ووسط هذه المخاطر كان الكونت يحمى دائما أناسه بالقتال فى مؤخرة الجيش ، وبالبقاء حتى يكون هو آخر من يصل إلى مركزه فى الركب . وربما كان البعض يعود إلى المعسكر وسط النهار أو عند غروب الشمس ، إلا ريموند ، فدائما ما كان يصل إلى خيمته فى منتصف الليل أو عند صياح الديكة [١٣] .

وعبرنا دلماشيا دون خسائر بسبب الجوع أو الصراع المكشوف ، برحمة الرب ، وبأعمال الكونت ومشورة أدهيمار . ويرشدنا هذا العبور الناجح ، للبلاد الهمجية ، لنؤمن بأن الرب أراد لجيشه من المحاربين أن يعبر دلماشيا كى يبرأ الهمجيون والوثنيون ، فى وقت من الأوقات ، من همجيتهم ، أو يساقوا ، مثل المخطئين غير المغفور لهم ، إلى عذاب الرب .

وعند وصولنا إلى سكوتارى Scutari [١٤] بعد رحلتنا الشاقة عبر دلماشيا ، أكد الكونت مبدأ الأخوة (١٥) ، ومنح ملك السلاف العديد من الهدايا حتى يتسنى للصليبيين أن يشتروا احتياجاتهم فى سلام ، ويبحثوا عن ضروريات الحياة [١٦] . إلا أن هذا لم يكن إلا وهما ، لأننا ندمنا بمرارة على ثقتنا فى السلام الوهمى ، حين انتهز السلاف فرصة هذه المناسبة ، وقاتلوا بوحشية ، وذبحوا قومنا ، واختطفوا ما أمكنهم إختطافه من العُزّل . وربما تُصدِّقوا إذا قلت أننا كنا نصلى من أجل ملاذ وليس من أجل الانتقام [١٧] ، ولكن لماذا نستمر فى سرد قصة دلماشيا الكئيبة هذه .

وعند ضرب الخيام بالقرب من دورازو [١٨] ، كنا على اقتناع بأننا فى بلادنا ، لأننا صدقنا أن ألكسيوس وأتباعه كانوا اخواننا المسيحيين وحلفاءنا . ولكنهم فى الحقيقة انقضّوا بوحشية الأسود ، على رجالنا المسالمين ، الذين كانوا فى غفلة عما يحتاجونه للدفاع عن النفس . وقام قُطّاع الطرق هؤلاء ، وهم يعملون ليلا ، بذبح أهلينا فى الحدائق ، وفى الأماكن النائية عن المعسكر ، وسرقوا منهم ما استطاعوا سرقته . وبينما كان البيزنطيون يتصرفون على هذا

المنوال دون ردع ، فقد وعد قائدهم حنا كومنين [١٩] بالسلام ، ولكنهم أثناء هـ المعاهدة ، قتلوا بونتيوس رينو Pontius Rainaud ، وجرحوا شقيقه بطرس جر قاتلا ، وهما أميران فى منتهى النبل [٢٠] . وتوفرت لنا الفرصة للانتقام ، لكـ استأنفنا مسيرتنا ، مفضلين إثبات الظلم الذى وقع بنا . وفى الطريق وصلـ خطابات تتحدث عن الأمن والأخوة ، وربما جاز لى أن أقول ، بالبنوة ، من قـ الامبراطور [٢١] . لكن هذه كانت كلمات جوفاء ، لأنه من أمامنا ومن خلفنا وعن يميننا وعن يسارنا ، كان الأتراك والكومان والغز ، والشعوب المتشبثة البجناك والبلغار - متربصين بنا [٢٢] .

* * * * *

هوامش الفصل الأول

(٨) عن تاريخ رحيل القوات البروفنسالية . انظر :

J. H. Hill and L. Hill, Raymond IV, pp. 38 - 39.

ومن المحتمل أن تكون قوات ريموند قد رحلت خلال سبتمبر أو أكتوبر . أنظر :

Norman Golb, New light on the Persecution of French Jews at the time of the first Crusade, in PAAJR, 34, 1966, pp. 1 - 63.

حيث يلقي جوانب الضوء على الاضطهاد اليهودي في جنوب فرنسا . ويميل إلى الاعتقاد بأن البروفنساليين لم يشتغلوا بمثل هذه الحركات التي كانت في ألمانيا . فقد احتل اليهود مركزا أعلى في جنوب فرنســـا . ومن المؤكد أنه كانت هناك إنتفاضات مضادة لليهود قامت بها عناصر غير منضبطة في الجيش البروفنسالي . ولقد استخدمت تعبيرات « الهمجيين » و « الجهلة » في العصور القديمة . انظر :

Cicero, Oration for A. Licinius Archias, 8.

(٩) قام الصليبيين بمطاردة السلاف في « قلب الجبال الوعرة والغابات الكثيفة الكثــافة » دون طائل . ولابد أن هذا التعبير مقتبس من القديس أمبروز « عن الوصي الأول » . أنظر :

MPL, 16, cols. 932 - 935.

(١٠) أنّ كونت تولوز « أطبق على » السلاف . هو تعبير عادة ما كان يستخدم في اللاتينية القديمة . انظر :

Caesar, The Gallic War, I, 22.

وقصة مشاركة ريموندداجيل للسلاف هي إحدى الروايات التي وُضع فيها الكونت يحيط به الخطر مع قلة من رفاقه . وهو قادر على يخرج سالما من الخطر بفضل ذكاء الكونت وتصرفه السريع .

(١١) كانت خصال ريموندداجيل « الشجاعة والحكمة » حسن الخصال التي حــددها القديس أمبروز ليتحلى بها رجال الإكليروس والأباطرة ومن يعاونوا في الحكم . انظر :

St. Ambrose, De Officiis Ministrorum, in MPL, 16, Cols. 40 - 76.

(١٢) استخدم تعبير « أربعين يوما » بشكل رمزي . فقد كان ريموندداجيل على علم بتعوّد في الأدب المتعلق بالعهد القديم .

- كان معدلُ سير قوات كونت تولوز حوالي ١١ ميل في اليوم الواحد . انظر : ــه

John W. Nesbitt, The rate of march of Crusading Armies in Europe; in =

Traditio, vol. 19, 1963, p. 176.

(١٣) كان ريموندآخر من يعود إلى المعسكر « عند الفجر » . إقتبس المؤرخ هذا التعبير من إنجيل مرقص . انظر :

Mark, 13 : 35.

(١٤) سكوتارى Scutari هي إحدى مدن العصور الوسطى، وتعرف الآن باسم شكودر Shkodër فى ألبانيا . ولقد وصل الجيش البروفنسالى إلى سكوتارى حوالى نهاية يناير ٩٧ . ١م .

(١٥) كثيرا ما استخدم ريموندا جيل تعبير « الأخوة » . انظر :

William Daly, Christian Fraternity the Crusaders, and security of Constantinople (1097 - 1204), in MS, 22, 1960, pp. 43 - 91.

- يعتبر ذكر ريموندا جيل لقرار قادة الحملة بإنشاء صندوق (رصيد) لضمان استرداد الخيول هو أول النصوص التاريخية التى تحكى هذا التقليد الذى يسميه المؤرخ confraternitas . فقد تطور هذا التقليد بين الفرنج فى بلاد الشام ، وسرعان ما تكونت جماعات (الأخوة الدينية الصليبية) ، وأصبحت نواة لفكرة جماعات الفرسان مثل الداوية والاسبتارية والتيوتون . كما كانت نواة لقيام نظام القوميونات فى الامارات الصليبية المختلفة . راجع مقدمة الترجمة العربية ص ٣٣ .

(الترجمة العربية)

(١٦) يعتقد رنسيمان أن كونت تولوز قد ساوم بودين Bodin ، الأمير الصربى فى سكوتارى.

- بالرجوع إلى رنسيمان ، نجد أن مصدر معلوماته الوحيد فى هذا الصدد هو ريموناداجيل . ولم يزد رنسيمان عما سجله مؤرخ حملة كونت تولوز شيئا سوى إسم الأمير الصربى . انظر :

Runciman, op. cit, p. 161.

(الترجمة العربية) .

(١٧) حذر القديس أمبرواز من الانتقام . انظر :

St. Ambrose, De Oficiis, MPL, 16, col. 62.

— كان أمبرواز حاكما لميلانو واختير أسقفا لها فى عام ٣٧٤ م بناء على رغبة أهلها إبان المشكلة النيقية الأريوسية فى عهد الامبراطور فالنتيان (٣٦٤ - ٣٧٥ م) . وبعد توليه الأسقفية أخذ أمبرواز فى دراسة الكتاب المقدس ومؤلفات آباء الكنيسة وخاصة اليونان . ووضع رسالة عن الايمان المسيحى De Fide وكتابه عن وظائف الاكليروس = الذى اقتبس منه ريموندا جيل كثير من الفقرات - متأثرا فيه بالمفكر الرومانى الأشهر شيشرون Cicero وكتابه عن الوظائف De Officiis ، وان كانت معالجة أمبرواز للفضائل تغلب عليها الروح المسيحية . وتأثر كثير من آباء الكنيسة بكتابه وأولهم القديس أوغسطين . وأمضى القديس أمبرواز حياته فى توجيه الأباطرة الوثنيين إلى صالح الكنيسة والدولة . وله فى ذلك عدة رسائل بعث بها إلى مختلف الأباطرة الوثنيين والمسيحيين . أفرد لها الدكتور رأفت عبد الحميد جزءا من السلسلة التى أصدرها عن العلاقة بين الدولة والكنيسة فى العصور الوسطى . انظر : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ٤ ، القاهرة ، ١٩٨٣ م ، صفحات متفرقة . (الترجمة العربية) .

(١٨) دورازو Durazzo (Dyrrachium) إحدى المدن البيزنطية ، وتقع على الساحل الشرقى للأدرياتى جنوب سكوتارى . وقد وصل إليها الصليبيون فى أوائل فبراير . انظر

Runciman, The First Crusader's Journey Across the Balkan Peninsnla, in AB, 19, 1949, pp. 207 - 221.

ولقد أخذنا فى معظم الحالات بالتواريخ التى حددها هاجنمير . وعلى أية حال ، فإن محاولة وضع تواريخ لتحركات جيوش الحملة الصليبية الأولى هو موضوع عرضة للخطأ . انظر :

H. Hagenmeyer, H. Chr., Nos. 116, 117.

(١٩) حنا كومنين هو إبن أخت الامبراطور الكسيس كومنين . بعثه الامبراطور إلى دورازو بتعليمات خاصة باستقبال الصليبيين .

- بعد تجربة ألكسيس مع حملة الشعوب بقيادة بطرس الناسك ووالتر المفلس ، اتخذ الامبراطور عدة تدابير لتلافى ماقد يقوم به صليبيو حملة الأمراء ، من شغب فى بلاده . فبعث بقادته إلى كل من دورازو وأفلونا Avlona بصحبة مترجمين من اللاتين وقوات من المرتزقة . وأصدر أوامره إلى هؤلاء باستقبال الفرنج بترحاب ، وأن يجهزوا المؤن لإمداد القوات الصليبية بها ، وأن يرقبوا الفرنج بحصافة ، وأن يضغطوا عليهم ليعودوا إلى جادة الصواب ، إذا ما خرجوا عن الطريق المحدد لسيرتهم ، للسلب والنهب . وقد نجح حنا كومنين فى تنفيذ المهمة الموكلة إليه بدقة بالغة . انظر :

Runciman, op. cit., p. 210.

(الترجمة العربية) .

(٢٠) بونتيوس ريتو وأخوه ، بطرس ، فارسان من القوات البروفنسالية .



خريطة رقم (١) : خط سير القوات الصليبية إلى أنطاكية

(٢١) استعمل ريونداجيل تعبير « إذا جاز لى أن أقول » كوسيلة ليضيف مزيدا من المعلومات . انظر:

Cicero, for the Manilian law, 4.

(٢٢) سلك الصليبيون طريق إجاتيا . ويظهر ريونداجيل استياءه من الاستقبال البيزنطى للفرنج تحت الحراسة المشددة ، ومن جهة أخرى ، فقد كان البيزنطيون على دراية بأعمال النهب التى قام بها اللاتين . ويقصد ريونداجيل بالكرمان القبيلة التركية التى يطلق عليها كيشاك Kipchaks ، والبتشنير Pechenegs شعب تركى يعرفه البيزنطيون بالبجناك . أما الأوزس uzes فهم شعب تركى يدعى أحيانا بالأتراك الغز .

— عمد الأباطرة البيزنطيون – ومن بينهم ألكسيس كومنين – إلى استخدام الجند المرتزقة فى جيوشهم من عدة أجناس مختلفة ، حتى لايتيسر توحيد كلمة هذه الأجناس المتباينة الديانات واللغات والتقاليد تحت إمرة رجل واحد ربما يطيح بالامبراطور كما حدث فى أخريات عهد الامبراطورية الرومانية على أيدى الجرمان فى غرب أوربا . لذلك نجد إلى جانب كتائب الجرمان كتائب من الفرنجة والنورمان والمجريين والروس ، وعناصر من الأتراك كالبجناكية والغز والكومان والتركبول وغيرهم . وللمزيد عن هذه القوات انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢٠٧ ، حاشية (١) . (الترجمة العربية) .

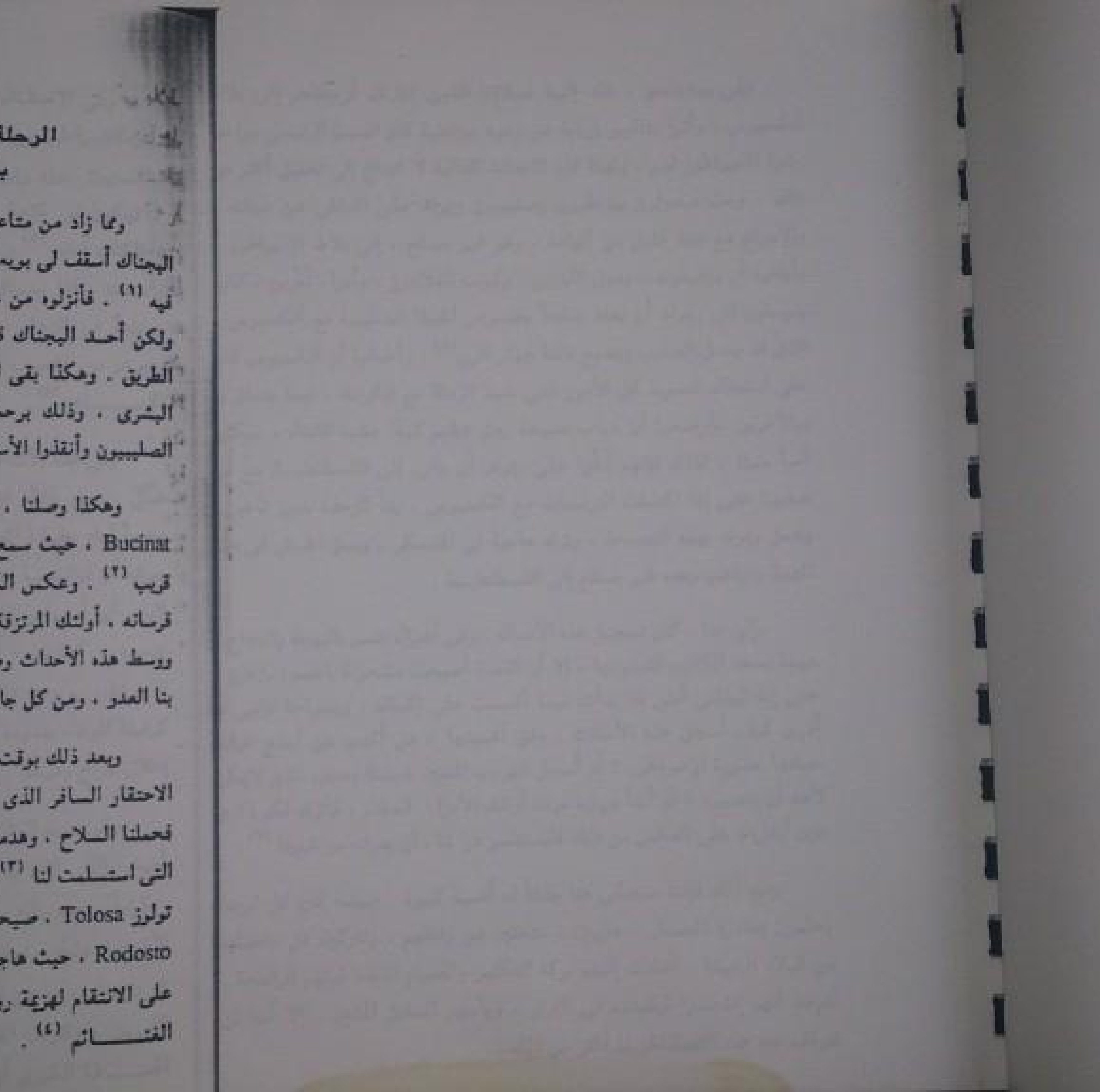
الفصل الثاني

الرحلة عبر الأراضي اليونانية والعلاقات بين ريموند سانجيل وألكسيوس

ومما زاد من متاعبنا أننا كنا في أحد الأيام في وادي بيلاجونيا عندما أسر البجناك أسقف لي بويه الذي ابتعد عن المعسكر قليلاً بحثا عن مكان مريح ليقيم فيه [1] . فأنزلوه من على بغله وجردوه من ملابسه وضربوه على رأسه بشدة . ولكن أحد البجناك في سعيه وراء ذهب أدهيمار أنقذه من زملائه من قطاع الطريق . وهكذا بقي الأسقف العظيم الذي لا غنى عنه لعدالة الرب ، للجنس البشري ، وذلك برحمة الرب . وعندما سمعت الجلبة في المعسكر ، هجم الصليبيون وأنقذوا الأسقف من البجناك الذين لم يسرعوا بالإجهاز عليه .

وهكذا وصلنا ، وقد أحاط بنا جنود الإمبراطور الخونة ، إلى قلعة بوسينات Bucinat ، حيث سمع ريموند أن البجناك قد أعدوا لنا كميناً في مضايق جبل قريب [2] . وعكس الكونت الوضع بأن أعد لهم كميناً هو الآخر ، وباغت ، مع فرسانه ، أولئك المرتزقة في هجوم مفاجيء ، فقتلوا منهم كثيرين ودحروا الباقين . ووسط هذه الأحداث وصلت رسائل مطمئنة من ألكسيوس . ومع ذلك فقد أحاط بنا العدو ، ومن كل جانب كنا نواجه خداع الامبراطور .

وبعد ذلك بوقت قصير ، وصلنا إلى روسا Roussa ، وهي مدينة نتج عن الاحتقار السافر الذي أبداه سكانها تجاهنا ، أن فقدنا صبرنا الذي عرفنا به ، فحملنا السلاح ، وهدمنا الأسوار الخارجية ، وغنمنا غنائم كبيرة ، واستلمنا المدينة التي استسلمت لنا [3] ثم غادرنا المدينة بعد أن رفعنا رايتنا على المدينة وهتفنا تولوز Tolosa ، صيحة التجمع الخاصة بالكونت . وزحفنا بعد ذلك إلى رودوستو Rodosto ، حيث هاجمتنا قوات المرتزقة التابعة لألكسيوس والتي كانت متلهفة على الانتقام لهزيمة روسا ، لكننا ذبحنا بعض أولئك المأجورين وأخذنا بعض الغنائم [4] .



وفى وودوستو ، عاد إلينا عملاؤنا الذين كنا قد أرسلناهم إلى بلاط ألكسيوس . وأتوا بتقارير وردية عن وعود بيزنطية كان السبب الرئيسى وراءها رشوة الامبراطور لهم ، ولهذا فإن الاحداث التالية لا تحتاج إلى تعليق أكثر من ذلك . وحث مبعوثون بيزنطيون وصليبيون ريموند على التخلى عن جيشه ، والإسراع مع عدد قليل من أتباعه ، وهو غير مسلح ، إلى بلاط الإمبراطور ، وأبلغوه أن بوهيموند ، ودوق اللورين ، وكونت الفلاندرز ، وأمراء آخرين ، كانوا يتوسلون إلى ريموند أن يعقد صلحاً بخصوص الحملة الصليبية مع ألكسيوس ، الذى قد يحمل الصليب ويصبح قائداً لجيش الرب[٥] . وأضافوا أن ألكسيوس كان على استعداد لتسوية كل الأمور التى تفيد الرحلة مع الكونت ، فيما يتعلق به وبالآخرين .وأوضحوا أن غياب نصيحة رجل عظيم كهذا عشية القتال ، سيكون أمراً سيئا . لذلك فإنهم ألحوا على ريموند أن يأتى إلى القسطنطينية مع قوة صغيرة حتى إذا اكتملت الترتيبات مع ألكسيوس ، بدأ الزحف بدون تأخير . وعمل ريموند بهذه النصيحة ، وترك حامية فى المعسكر ، وسبق الجيش فى هذه المهمة ، وذهب وحده غير مسلح إلى القسطنطينية .

وإلى هنا ، كان تسجيل هذه الأعمال ، وهى أعمال تتسم بالبهجة والنجاح ، مهمة يسعد الكاتب القيام بها ، إلا أن القصة أصبحت مشحونة بالقسوة والحزن ، حتى إنه ليؤلمنى أننى قد بدأت فيما أقسمت على إكماله . وبصراحة فإننى لا أدرى كيف أسجل هذه الأحداث ، وفق أهميتها ، هل أكتب عن أشنع خيانة حملتها مشورة الإمبراطور ؟ أم أسجل الهروب المشين لجيشنا وعجزه الذى لايمكن لأحد أن يتصوره ؟ أو أبدأ برواية موت أولئك الأمراء العظام ، فأترك لكم ذكرى حزن أبدى ؟ على العكس من ذلك فليستفسر من شاء أن يعرف من غيرنا[٦] .

ومع ذلك فإننا سنحكى هنا حدثاً له أهمية كبيرة . فبينما كان كل قومنا يحلمون بمغادرة المعسكر ، هاربين ، متخلين عن رفاقهم ، وتاركين كل ماحملوه من البلاد البعيدة ، أعادت إليهم بركة التكفير والصيام المنقذة قوتهم الراسخة . لدرجة أنهم إندهشوا لرغبتهم فى الفرار ، ويأسهم السابق المشين . إلا أننا لن نتوقف عند هذه القصة الحزينة أكثر من ذلك .

وفى الإستقبال البالغ الاحترام الذى أعده ألكسيوس وأمراؤه لريموند طلب الامبراطور من الكونت أن يحلف يمين الولاء الذى أقسمه له الأمراء الآخرون . ورد ريموند بأنه لم يحمل الصليب ليدين بالولاء لسيد آخر ، أو ليكون فى خدمة أى كائن آخر غير الرب الذى من أجله هجر وطنه وممتلكات آبائه[٧] . ومع ذلك فإنه سيأتمن الإمبراطور على نفسه وأتباعه وأمتعته ، إذا سافر إلى بيت المقدس مع الجيش . ولكن ألكسيوس سايره معتذراً عن الزحف متعللا بخوفه من أن يقوم الألمان والمجريون والكومان ، وغيرهم من الشعوب المتوحشة ، بنهب امبراطوريته ، إذا اشترك فى الزحف مع الحجاج[٨] .

وفى هذه الأثناء عرف الكونت ، بعد أن علم بهزيمة رجاله وموتهم ، أنه قد ضُلِّلَ ، ومن خلال خدمات بعض قادتنا استدعى الإمبراطور إلى المحاكمة متهماً إياه بخيانة الصليبيين . ولكن ألكسيوس رد بأنه هو نفسه لم يكن يعرف أن قواتنا نهبت مملكته وأن شعبه قد ارتكب كثيرا من الأخطاء ، وأنه لايرى أى أساس قانونى لتحقيق الكونت ، إلا إذا كان جيش ريموند ، أثناء تدميره - كعادته - للقرى والمدن المحصنة ، فر رجاله هاربين لدى رؤية جيش الإمبراطور . ومع ذلك فإنه وعد بتقديم ترضية للكونت ، وأعطاه بوهيموند كرهينة للوفاء بتعهده . وتوصلا إلى اتفاق ، وأجبر الكونت - ظلماً - على إطلاق سراح رهينته .

وفى ذلك الوقت وصل جيشنا إلى القسطنطينية ، وبعده جاء الأسقف مع أخيه ، الذى كان قد تركه مريضا فى دورازوا[٩] . وأرسل ألكسيوس مراراً وتكراراً ، يعد بأنه سيكافىء الكونت بسخاء إذا أقسم له يمين الولاء كالأمراء الآخرين . ولكن ريموند كان دائم التفكير فى الانتقام للمعاملة الظالمة التى لقيها هو ورجاله ، وسعى إلى محو عار هذه الفضيحة . ومع ذلك ، فقد أسف دوق اللورين ، وكونت الفلاندر وأمراء آخرون لمثل هذه الأفكار ، قائلين أنه من الحماقة الكبرى أن يقاتل المسيحيون المسيحيين بينما الأتراك على مقربة .

والواقع أن بوهيموند قد تعهد بتقديم دعمه لألكسيوس ، فى حالة إتخاذ ريموند إجراء ضده ، أو إذا اعتذر الكونت أكثر من ذلك عن أداء يمين الولاء والقسم . عند هذا المنعطف ، وبعد التشاور مع البروفنساليين ، أقسم الكونت أنه لن ينتزع - سواء بنفسه أو عن طريق آخرين - حياة الامبراطور وممتلكاته . وعندما ذكر بالولاء رد بأنه لن يقسم يمين الولاء بسبب تعرض حقوقه للخطر . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن ألكسيوس أعطاه القليل من المتاع الدنيوى بسبب عناده وتشـــــدده (١٠) .

* * * * *

هوامش الفصل الثانى

(١) بيلاجونيا Pelagonia منطقة تقع إلى الشمال الغربى من مقدونيا . انظر :

Runciman, op. cit, The First crusader's Journey, p. 217; H Chr. 124, 125, 134.

وكان البروفنساليون قد وصلوا إلى هذه المنطقة فى أواسط فبراير ١٠٩٧ م .

(٢) بوسينات Bucinat ، قلعة لم تقف على موضعها .

(٣) روسا Roussa ، مدينة فى إقليم ترافيا . واسمها التركى هوكيشان keshan . وقد وقع الهجوم على روسا فى ١٢ أبريل ١٠٩٧ م . وعن رحلة قوات كونت تولوز من دورازو إلى القسطنطينية انظر : H. Chr., 118, 124, 125, 134.

كانت قوات بوهيمند النورماندى قد مرت بمدينة روسا قبل أن تدخلها قوات كونت تولوز بحوالى اسبوعين ، ولقيت الترحيب المناسب . وربما يرجع هجوم البروفنساليين على المدينة إلى أن أهل المدينة لم يتوفر لديهم من المؤن مايبيعونه لعساكر ريموند الذين استشعروا الجفاء من قبل سكان المدينة . انظر :

Runciman, History of the Crusades, Vol. I, p. 162.

(٤) رودوستو Rodosto مدينة بيزنطية تستغرق الرحلة منها إلى القسطنطينية حوالى أربعة أيام . وفى ١٨ أبريل ١٠٩٧ م ، قابل كونت تولوز سفراء الإمبراطور ألكسيوس هناك .

(٥) بوهيمند (١٠٥٠ - ١١١١م) ابن روبرت جيسكارد Robert Guiscard ، الذى سبق أن حارب البيزنطيين قبل الحملة الصليبية الأولى (١٠٨١ - ١٠٨٥م) . وآلت أملاك روبرت جيسكارد فى جنوب إيطاليا إلى روجر بورسا Roger Borsa الأخ الأصغر لبوهيمند من أبيه . فشارك بوهيمند فى الحملة الصليبية الأولى على أمل أن يحوز لنفسه على اقطاع فى الشرق الأدنى . واستولى على أنطاكية لنفسه وبقى أميرالها من ١٠٩٩م وحتى توفى فى إيطاليا عام ١١١١م . ودوق اللورين هو جودفرى God frey (١٠٦٠ - ١١٠٠م) دوق اللورين السفلى . ولم يكن دوره فى الحملة الصليبية الأولى كبيرا مع أنه صار حامى القبر المقدس . وقد جعل منه المؤرخون اللاحقون واحدا من أعظم أبطال الحركة الصليبية . أما كونت الفلاندرز (ت ١١١١م) فهو إبن روبرت الفريزى الذى توجه حاجا إلى بيت المقدس حوالى ١٠٨٧م أو ١٠٩١ م . وللمزيد عن هؤلاء القادة انظر حاشية رقم (٦) فى مقدمة الترجمة الانجليزية .

= يحدد هيوج ولوريتا هيل بداية تاريخ إمارة بوهيمند الأول فى أنطاكية بعام ١٠٩٩م. إلا أن غالبية المؤرخين يحددون تاريخ حكمه فى الإمارة الصليبية بتاريخ تحرير اتفاقيته التى عقدها مع الجنوية (١٤ يوليو ١٠٩٨م / ١١ شعبان ٤٩٢ هـ) . انظر :

E.G. Rey, Résume de l'Histoire des Princes d'Antioche, in ROL. 4, p. 362.

(الترجمة العربية) .

(٦) هذه الفقـــرة تذكرنا بخطباء أوائل عصر النهضة الذين لجأوا إلى التلميح لترك جمهورهم دون إجابة على التساؤلات التى يطرحونها . ومن الواضح أن ريموندا جيل هنا لم تتوفر لديه المعلومات بخصوص ماحدث . فلجأ إلى هذه الوسيلة الأدبية .

- ما حدث هنا هو أنه بعد رحيل كونت تولوز لمقابلة الامبراطور البيزنطى - وبالطبع لم يصحبه مؤرخنا ريموندا جيل - فقد عاودت قواته الهجوم على سكان رودستو . ولكن فى هذه المرة كانت القوات البيزنطية موجودة ، وأطبقت على البروفنساليين ، وسيطرت عليهم تماما بعد أن استولت على أمتعتهم . واعتقد البروفنساليون ، الذين لم يدركوا أن اللوم يقع عليهم ، اعتقدوا أن كونت تولوز قد استدرج إلى القسطنطينية حتى يمكن تدمير قواته دون قيادة توجهها . وكان نفس الانطباع لدى ريموند نفسه ، الأمر الذى جعله أصبح أكثر تشككا فى الكسيوس ، وعنيفا فى مفاوضاته معه . ويبدو أن قوات ريموند التى أصابها الهلع من البيزنطيين ، قد بقيت فى موقعها حتى لحق بها المندوب البابوى أدهيمار ، الذى قاد هذه القوات إلى القسطنطينية ، وكانت لباقته هى السبيل للتغلب على كثير من الصعاب التى عاقت حسن العلاقات بين الامبراطور وكونت تولوز . ولذلك تبدو رواية ريموندا جيل فى هذا الموضع شديدة الصرامة ضد البيزنطيين . ولكن من السهل إدراك ماحدث بالفعل . انظر :

Runciman, The First Crusaders Journey, p. 218.

(الترجمة العربية) .

(٧) كانت حماسة كونت تولوز الدينية محل تشكك وأقاويل . فقد أشيع أنه قرر أن لايعود إلى موطنه الأصلى . ومن المؤكد أن الروايات تعكس الرأى السائد حول شخصيته. وريموندا جيل هنا ينسخ عبـــارة متأنقة ، ربما تقوم على ما كان من المتوقع أن يقوله كونت تولوز .

(٨) يؤيد استعمال ريموندا جيل لتعبير « الشعوب المتوحشـــة » الذى يلى كلمة الكرمان Kumans رأينا فى أنه فى فقرة سابقة (حاشية ٢٤ . الفصل الأول) قد استعمل كلمة الكرمان وكلمة tanaces . وفى هذا الفصل يستعمل الكرمان و feras gentes .. شعوب متوحشة » . وهكذا ، نعتقد ، أن كلمة tanaces لم تكن تعنى جنسا من الناس ولكنها تعنى تعبيرا عاما عن الشعوب المتوحشة .

(٩) لم يعرف دور أدهيمار فى مشـــاحنات ريموند وألكسيوس ، وعلى أية حال ، فيرى المعجبين بشخصية المندوب البابوى أن رأيه السديد هو الذى تسيد الموقف بين الامبراطور والكونت . انظر :

John and Laurita Hill, Raymond IV, count of Toulouse, pp. 50 - 51.

(١٠) ترجمنا قسم ريموند على أن يكون معناه أنه لن « يسلب من الامبراطـــور حيـــاته أو ممتلكاته » . بينما يجعل كرى وآخرون ريموند يتعهد بأنه لن يلوث « حياة الامبراطور أو شرفه » . ومثل هذا القسم كان مألوفا فى جنوب فرنسا ، وأفضل ترجمة للكلمة اللاتينية " honorem " هى « ممتلكات » . وفى الواقع ، فقد قام كونت تولوز بأداء قسم مشابه فى بلاده . وقد أصبح بدون معنى تابعاً للإمبراطور . انظر :

John and Lauritta Hill, The Convention of Alexius Comnenus and Raymond of Saint-Gilles, in AHR. 58, 1953, pp. 322 - 27.

- أصرّ الإمبراطور البيزنطى ألكسيس كومنين على أن يؤدى له قادة الحملة الصليبية الأولى يمين الولاء والتبعية المرتبط بالنظام الإقطاعى فى غرب أوربا آنذاك ، ليلزم قادة الحملة بطاعته حتى يحافظ على بلاده من عبثهم وليستخدمهم لصالحه فى استرداد ما استولى عليه السلاجقة من أملاك . ومن المعروف أن أول من قام بأداء يمين الولاء والتبعية أمام الامبراطور كان هيوفيرماندوا شقيق فيليب ملك فرنسا وتبعه كل من جودفرى بعد تردد ، ثم روبرت النورماندى وستيفن كونت بلوا وشارتر . ومن بعدهم روبرت كونت الفلاندرز . بينما أبدى بوهيمند رغبته منذ البداية فى الاتفاق مع الإمبراطور ولم يتردد فى حلف اليمين أمامه ليحافظ على حسن العلاقات مع ألكسيس ليحقق مصالحه فى الشرق . ولم يقسم هذا اليمين أو حتى يذهب إلى القسطنطينية تنكريد ابن أخت بوهيمند . وبذلك لم يرتبط أبدا باتفاقية القسطنطينية التى عقدت بين الامبراطور وقادة الحملة الصليبية الأولى فى مايو ١٠٩٧م ، والتى تعهد فيها الامبراطور بمساعدة الفرنج فى مهمتهم ، والمحافظة على سلامتهم خلال مرورهم بأراضى =

= دولته . كما تعهد بإمدادهم بالمؤن مع إمدادهم بفرقة عسكرية تكون تحت تصرفهم . وفى المقابل تعهد الصليبيون بأن يعيدوا إلى بيزنطة كل ما استولى عليه السلاجقة من أملاكها . انظر :

Anne Comnene, The Alexiad, English trans. by Elezabeth Dawes, London, 1928, pp. 257 - 267; Albert d'Aix, pp. 304 - 313; Gesta Francorum, pp. 5 - 7.

ويقدم الدكتور جوزيف نسيم يوسف بحثا وافيا عن سياسة ألكسيس تجاه الصليبيين ، واتفاقية مايو ١٠٩٧م معهم ، مع مناقشة دقيقة لآراء المؤرخين المعاصرين والحديثين ، وهو أشمل ما كتب فى هذا الموضوع . انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢١٩ – ٢٢٨ .
(الترجمة العربية) .

الفصل الثالث

حصار نيقية وعبور الأناضول

وبعد عبور البحر (مضيق البسفور) أسرعنا إلى نيقية حيث حاصرها جودفرى وبوهمند وقادة آخرون ، ممن كانوا فى الطليعة ، ونيقية مدينة تتمتع بحماية طبيعية ودفاعات بارعة [١] . كانت تحصيناتها الطبيعية تتكون من بحيرة كبيرة تصل إلى أسوارها ، وخندق ملىء بالماء المتدفق من الجداول القريبة ، يسد المدخل من ثلاث جهات . وقد أحاط رجال مهرة نيقية بأسوار عالية جداً ، حتى أن المدينة لم تكن تخشى هجوم الأعداء، ولا قوة أى آلة . وكانت مجانيق الأبراج القريبة موضوعة فى شكل متناوب ، حتى أن أحدا لم يكن يستطيع التحرك بالقرب منها ، دون أن يتعرض للخطر ، وإذا أراد أحد أن يتحرك إلى الأمام ، لم يكن يمكنه أن يلحق أى ضـرر بها لأنه سيكون من السهل جدا ضربه من أعلى البـرج .

وباختصار ، كما قلنا ، فإن بوهميند حاصر المدينة من الشمال ، بينما حاصرها الدوق والألمان من الشرق ، والكونت وأسقف لى بويه من الجنوب ، وللتسجيل نذكر أن كونت نورماندى كان متغيباً [٢] وهنا يجب أن نسجل الحدث التالى : فبينما كان كونت تولوز يرغب فى إقامة معسكره هناك ، زحف الأتراك هابطين من الجبال فى تشكيلين ، وانقضّوا على جيشنا . ولاشك أنهم قد وضعوا خططهم على أمل أن تقاتل إحدى فرقتيهم جودفرى والألمان المخيّمين فى الشرق ، بينما تدخل الفرقة الأخرى من الأتراك نيقية من خلال الباب الجنوبى ، وتخرج من باب آخر ، فتبدد بذلك ، بكل سهولة ، قواتنا التى لا تتوقع شيئا . لكن الله ، النقمة المعتادة على مستشارى السوء ، أحبط خططهم ، وبدا وكأنه قد دبّر للمعركة بحيث تؤدى إلى النتيجة التالية . فقد جعل الله الكونت ، الذى كان على وشك إقامة معسكره مع رجاله ، يهاجم الفرقة التركية التى كانت فى ذلك الوقت على وشك دخول نيقية . وفى الهجوم الأول ، أباد ريموند منهم الكثيرين وقتل الكثيرين. ثم طارد من بقى منهم إلى جبل قريب ، بينما فى الوقت نفسه أجبر الأتراك الذين كانوا يخططون للقضاء على الألمان على الفرار ، وأبيدوا .

بعد هذا النجاح نصبنا الآلات وقصفنا السور دون أى نتيجة . كان السور لا يُخترق . وكان الدفاع الجسور بالأسهم والآلات يبعث على الإحباط . وأخيرا وبعد خمسة أسابيع من الحصار غير المجدى ، وبمشيئة الله ، اندفعت بعض القوات من حاشية أدهيمار وريموند بعد مناوشات ، إلى الأمام فى مخاطرة كبيرة إلى أسفل أحد الأبراج . وتحت حماية دبابة [٣] . دكّوا ذلك البرج دكا ، وقوضوا أسسه وسوّوه بالأرض . وحال حلول الليل دون الإستيلاء على نيقية . وفى الصباح التالى ثبت أن جهودنا كانت بلا طائل ، ذلك أن المدافعين عن المدينة أصلحوا الأسوار تحت جنح الظلام . واستولى الخوف على نيقية ، فاستسلمت . وكان الدافع الأكبر إلى استسلامها أن السفينة اليونانية التى سحبت على الأرض كانت تطفو الآن على مياة البحيرة ، وبالتالى فإن الأتراك الذين انعزلوا بذلك عن أصدقائهم ، انحنوا لألكسيوس ، حيث لم يعد لهم أمل فى وصول النجدة إليهم ، بينما كانوا يشهدون الجيش الفرنجى يزداد يوما بعد يوم ، وزاد من ذلك وصول كونت نورماندى [٤] .

وتعهد ألكسيوس للأمراء والشعب الفرنجى أنه سيسلمهم كل ما فى نيقية من ذهب وفضة وخيول وأمتعة ، وزاد على ذلك أن قال أنه سيؤسس بها ديرا لاتينياً وملجأ للمعوزين من الفرنجة . كما وعد بأن يعطى لكل فرد بسخاء يجعل كل جندى فى الجيش يتمنى أن يخدمه مدى الحياة . ووثق الفرنجة فى هذه الكلمات المخلصة ، واغتبطوا لاستعادة نيقية ، ولكن ما إن أصبحت نيقية فى حوزة ألكسيوس ، حتى تصرف بجحودٍ مع الجيش ، حتى أن الناس سيبونه ويصمونه بالخيانة طالما كان حيا [٥] .

في ذلك الوقت علمنا أنه عندما وصل بطرس الناسك وحشود المزارعين التى صحبته إلى القسطنطينية قبل شهور من وصول القوة الصليبية الرئيسية ، خانه ألكسيوس ، بأن أجبره وأتباعه ، الذين لم يكونوا على معرفة بموقع الحرب ولا بفنونها ، على عبور المضايق وليس معهم دفاعات ضد الأتراك [٦] . وهكذا ، فعندما شعر أتراك نيقية بأنهم وقعوا على فريسة سهلة ، قتلوا ، بسرعة وسهولة ، ستين ألفا من المزارعين ، ولم يفلت منهم إلا من فروا ولجأوا إلى إحدى القلاع .

وتجرأ المنتصرون وركبهم الغرور لنجاحهم ، فأرسلوا الأسلحة التى استولوا عليها والصليبيين الذين أسروهم ، إلى نبلائهم وإلى القادة المسلمين فى أماكن نائية ، ونشروا فى بلادهم كتابات تفيد بأن الفرنجة لم يكونوا أهل حرب .

وفى أعقاب هذه الأحداث تركنا نيقية متجهين إلى الأناضول وأثناء الزحف ، تصرف بوهيمند وبعض الأمراء فى اليوم التالى تصرفا غير حكيم ، حيث انفصلوا عن الكونت والأسقف والدوق [٧] . وفى اليوم الثالث من زحف بوهيمند منفصلاً وبينما كان يفكر فى أن يخيم ، رأى جنوده مائة وخمسين ألف رجل يقتربون فى تشكيل معركة [٨] . وبينما كان ينظم صفوفه للمعركة كما تقتضى الظروف ويستعد للقتال ، فقد الكثير من جنوده الذين تأخروا خلفه وضلوا الطريق ، وهكذا ، فعندما احتدم القتال ، استدعى بوهيمند لمساعدته الكونت والدوق ، الذين كانا على مسافة ميلين فقط منه . ولم تلبث النجدة أن وصلت . فارتدى الصليبيون دروعهم وامتطوا صهوة خيولهم ، وأسرعوا لقتال العدو فور وصول رسول بوهيمند بالأخبار .

وتحطمت آمال قلج أرسلان القائد المهاجم ، لدى رؤية الفرسان المندفعين فأسرع بالفرار [٩] . ويبدو لنا أن عدالة السماء هى التى جعلت قلج أرسلان الذى أسر الأسرى ، واستولى على الكثير من خيام بوهيمند ، يهجر أمتعته الآن ، بفضل قدرة الله . ورغم أننا لم نر ذلك ، فإن البعض قد حكى عن معجزة كبيرة رأوا فيها فارسين وسيمين فى دروع لها بريق ، وهما يركبان أمام جنودنا ولايبدو أن طعنات رماح الأتراك تؤثر فيهما ، يخيفان الأعداء ، حتى أنهم لم يستطيعوا القتال [١٠] ورغم أننا علمنا بذلك من أتراك ارتدُّوا عن عقيدتهم ويعملون فى صفوفنا الآن ، فإنه يمكننا أن نؤكد من الأدلة أننا كنا نرى وليومين فى زحفنا فرساناً موتى وخيولاً ميتة .

وبعد هزيمة الأتراك وصدهم ، مررنا بسرعة من خلال الأناضول بسلام ، وإن تأخرت المسيرة قليلاً لمرض ألمّ بريموند [١١] ورغم أن ما سنحكيه الآن ينفر

أذواق الساخرين المتهكمين ، فإنه ينبغي تسجيله علناً ، لأنه وصف لمعجزة من تدبير السماء . فقد قال كونت ساكسوني يزعم أنه مبعوث من لدن القديس جيلز ، أنه قد تلقى أمراً مرتين بأن يطلب إلى الكونت : « اهدأ بالا . فلن تموت من هذا المرض لأنني ضمنت لك راحة من عند الله ، وسأكون دائما قريبا منك »[١٢] .

ورغم أن الكونت كان سريع التصديق ، فقد أضعفه المرض ، حتى أنه عندما أُخذ من سريره ووُضع على الأرض ، لم يكد يتردد في صدره نفس من أنفاس الحياة . وهكذا فإن أسقف أورانج قرأ الصلاة كما لو كان ريموند ميتاً . إلا أن السماء ، التي جعلته قائداً للجيش ، رفعته في الحال من الموت وأعادته سليماً معافى[١٣] .

* * * * *

هوامش الفصل الثالث

(١) بنيت مدينة نيقية في عهد الامبراطور أنتيجونوس Antigonus حوالي عام ٣١٦ ق.م . وتقع في إقليم بثينيا بالقرب من بحيرة أسكانيوس Ascanius في آسيا الصغرى . وفي زمن الحملة الصليبية كان يحكم فيها قلج أرسلان السلجوقي . وقد بقي كونت تولوز في جوار القسطنطينية حتى ١٠ مايو ١٠٩٧م . ثم رحل إلى نيقية . ومن المحتمل أن علاقاته مع ألكسيوس كانت ودية أكثر مما يدفعنا ريموندا جيل إلى الاعتقاد فيه .

أنظر :

Hagenmeyer, Chr., 148.

- بدأ الصليبيون في حصار نيقية في ١٤ مايو ١٠٩٧ م . ووصل كونت تولوز إلى نيقية في ١٦ مايو . ولم يحدد ريموندا جيل هذه التواريخ التي حددها لنا كل من مؤرخ الجستا وفولشر أوف شارتر

Gesta Francorum, p. 14; Fulcher of Chartres, p. 80. (الترجمة العربية) .

(٢) كونت نورماندي (١٠٥٤ - ١١٣٤م) المعروف بروبرت كورثوس Robert Curthose ، دوق نورماندي . وهو إبن وليم الفاتح (ت ١٠٨٧م) ، الذي استولى علي عرش إنجلترا في ١٠٦٦ م . وقام روبرت برهن أراضيه لدى أخيه ، الملك وليم الثاني (روفوس Rufus) ، ليشارك في الحملة الصليبية وقد سجل معاصروه مآثره في الحملة الصليبية ، ولكنه - بشكل عام - كان شخصا غامضا فيما يخص الأمور السياسية للحركة الصليبية . انظر :

C.W. David, Robert Curthose of Normandy, Cambridge, 1920.

(٣) الدبابة آلة تصنع من الخشب يدخل فيها المقاتلون - وغالبا النقابون - ليقتربوا بها من الأسوار لينقبوها . وكما ذكر مرضى بن علي،فهي تستخدم أيضا كسترة للرجال الذين يقومون بجر المنجنيق وما شاكله من أن يُرموا بحجارة منجنيق مقابل فيحمل عنهم مضرتها . وسميت دبابة لأنها تدفع فتدب - وقد أورد مرضى بن على الطرسوسي وصفا دقيقا للدبابة وعجلاتها وقارنبيتها وبين سائرأنواع الستائر ، وذلك في كتابه « تبصرة ألباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » الذي وضعه خصيصا لصلاح الدين الأيوبي . وقد نشرت مقتطفات من هذا المخطوط مع ترجمة فرنسية وتعليقات هامة للمؤرخ كلود كاهن . أنظر :

= Claud Cahen, Un Traité d'Armurérie Compose pour Saladin. BEO, 12, 1947-1948, pp. 104 - 163.

(الترجمة العربية) .

(٤) جاءت رواية ريموندأجيل عن حصار نيقية قريبة من رواية مؤلف الجستا المجهول . إلا أن في كل منهما تفاصيل تشير إلى المزيد من مصادر المعلومات . وقد استسلمت الحامية السلجوقية الموجودة داخل نيقية للقائد البيزنطي بوتوميتس Butumites في ليلة ١٨ يونية ١٠٩٧ م . وفي صباح اليوم التالي شاهد الفرنج الرايات البيزنطية ترفرف فوق نيقية . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 159, 160.

(٥) لا شك أن ريموندأجيل - مثل بقية الصليبيين - قد صُدم لاستسلام سلاجقة نيقية للبيزنطيين ، الأمر الذي أضاع الفرصة على الصليبيين في نهب ثروات المدينة . إلا أن كل من فولشر أوف شارتر ومؤلف الجستا إلى جانب ستيفن كونت بلوا - في خطابه إلى زوجته أديلا - والراهب أنسلم - في خطابه إلى منسى رئيس أساقفة ريمس - وألبرت دكس قد أشاروا صراحة إلى الهدايا التي وزعها الامبراطور البيزنطي على قادة الصليبيين ، وإلى كميات الطعام التي وزعها على فقرائهم . انظر :
Hagenmeyer, Epistolae, pp. 140, 145; Gesta Francorun, pp. 13 - 17; Fulcher of Chartres, p. 80.
وقد نشر دكتور جوزيف نسيم يوسف خطاب ستيفن كونت بلوا إلى زوجته أديلا وترجمته العربية . انظر: جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، الملحق الرابع ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

وقد قمت بنشر النص اللاتيني (وترجمته العربية) لرسالة أنسلم راهب ريبمونت في رسالتي للماجستير . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها بالدول الاسلامية المجاورة ، الملحق الثاني ، ص ٢٩٤ - ٣٠١ .
(الترجمة العربية) .

(٦) كان بطرس الناسك شخصاً مجهولاً حتى دعا البابا أوربان الثاني إلى قيام الحملة الصليبية الأولى في مؤتمر كليرمونت . وقد قام بطرس - كداعية مجتهد - الفلاحين ليبدأوا المسيرات مشئومة المصير إلى بيت المقدس . ولقد جرّد هنريش هاجنمير في كتابه « بطرس الناسك » هذا الرجل من دوره الأسطوري في الحملة الصليبية الأولى . ومهما يكن من أمر ، فقد بقي بطرس شخصية لها شعبيتها لدى المؤرخين المعاصرين . =

= وكان يمثل لديهم رجل الرب غير الأناني . وسيلاحظ القارئ أن ريموندأجيل ينتهز كل فرصة ليظهر كراهيته للبيزنطيين .

(٧) استخدم المؤرخون اسم « روماينا » " Romania " دون تدقيق ، والمقصود بها هنا الأناضول .
- لم تسمح مرتبة ريموندأجيل ككس خاص لكونت تولوز بحضور مجالس أمراء الحملة الصليبية . لذا فهناك الكثير من القرارات التي يتخذها هؤلاء ولايدري عنها مؤرخنا شيئا . ويتضح هذا من بعض رواياته خاصة إذا ما ألقى اللوم على أقران سيده من قادة الفرنج . وهنا لم يدر ريموندأجيل . أن الأمراء قد عقدوا مجلساً للتشاور قبل وصولهم إلى دوريليوم . وقرروا تقسيم الجيش إلى مجموعتين . الأولى - التي يلقي المؤرخ باللوم على قادتها - وتضم قوات بوهيمند وكونت الفلاندرز وكونت بلوا والبيزنطيين ، والثانية وتضم قوات كونت تولوز وجودفري وهيو فرماندوا . وعمد القادة إلى ذلك للتغلب على مشكلة المؤن . انظر :
Gesta Francorum, p. 18; Albert d'Aix, pp. 328 - 329.
(الترجمة العربية) .

(٨) من الصعب الأخذ بالأرقام التي يوردها ريموندأجيل . انظر :
Runciman, History of the Crusades, 1, pp. 446 - 341.

(٩) يصف ريموندأجيل هنا معركة دوريليوم (بالقرب من إسكي شهر الحالية) . ودارت المعركة في أول يوليو ١٠٩٧ م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 169.
ونتج عن هذه المعركة هزيمة السلاجقة . ولم يتحدث ريموند عن هجوم أدهيمار أسقف لي بوية الذي حوّل مسار المعركة لصالح الفرنج ، بينما يتعامل ريموند مع المظاهر السماوية . ويبرز بروندانج Brundage مهارة أدهيمار العسكرية . ويعتقد رنسيمان أن الجهد المشترك للصليبيين هو سبب انتصارهم في ذلك اليوم . وقلج أرسلان هو ابن سليمان بن قتلمش ويعرف بأن سليمان ، ويعرفه الصليبيون بسُليمان . وقد أصبح قلج أرسلان ، بعد موت ملكشاه في ١٠٩٢م ، حاكماً لآسيا الصغرى ، ولم يحكم سيطرته عليها حتى موته في ١١٠٧م . وكانت السمة الإنقسامية التي اتسمت بها دولة السلاجقة هي التي أدت إلى نجاحات الفرنج .

(١٠) يحرص المؤرخ خلال تاريخه كله على تقديم التفاصيل التى يمكن أن يؤيدها الشهود . ومن الواضح أن هذا لم يكن مجرد أسلوب كتابى . والفارسان و ذوى الدروع اللامعة » عبارة من المحتمل أنها مقتبسة من كتاب المكابيين و وتحقق النصر من خلال قوة الرب وذبح الحماة السماويين ذو الدروع اللامعة العدو » .انظر :

St. Ambrose, De Officiis, in MPL., 16, Col. 82.

(١١) يحذف المؤلف هنا كل تفاصيل الرحلة الشاقة عبر جبال طوروس ومن قبلها الرحلة عبر هضبة الأناضول . ومن الصعب تفسير سبب تلك الفجوة فى تاريخه .
– من المعروف أن الصليبيين رحلوا عن نيقية فى ٣ يوليو ووصلوا إلى جسر الحديد خارج سور أنطاكية الشمالى فى ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ م . أى أن ريموند أغفل أحداث مايقرب من أربعة أشهر ، شارك بنفسه فيها . انظر :

Gesta Francorum, p. 17, 28 Fulcher of Chartres, pp. 83, 89.

(الترجمة العربية) .

(١٢) رؤيا مرض ريموند كرنت سان جيل مقتبسة من سفر يوشع (٣٨ : ١-٦) . وقصة شفاء حزقيا من المرض المميت عن طريق التدخل السماوى معروفة جيدا . ونشيد حزقيا – بعد شفائه – (سفر يوشع ٣٨ : ١٠ – ٢٠) هى جزء من صلاة الموتى . والغريب هنا هو كيف يكون كرنت تولوز مريضا مرض الموت لعدة مرات ويسترد عافيته – بشكل عجيب – ليعود إلى ميدان القتال خلال أيام قليلة . ويحدد هاجنمير « أغسطس ١٠٩٧م تاريخا لمرض ريموند . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 177.

(١٣) كان يطلق على أسقف أورانج Orange اسم وليم ، وكان عضوا بارزا فى الكنيسة البروفنسالية . وبعد موت أدهيمار ، حظى وليم باحترام الصليبيين حتى مات فى معرة النعمان .

الفصل الرابع

إغلاق الطرق وبداية حصار أنطاكية

وبعد ذلك وبينما كنا نقترب من أنطاكية . إقترح كثير من الأمراء أن نؤجل الحصار ، خاصة وأن الشتاء كان يقترب ، وقد توزع الجيش فى الاستحكامات بعد أن أرهقه حر الصيف [١] ، كما قالوا بأنه ينبغى على الجيش أن ينتظر القوات الإمبراطورية ، والتعزيزات التى وردت تقارير تفيد بأنها فى الطريق من فرنسا . فنصحونا بالدخول فى موقع الشتاء حتى يأتى الربيع . وقدم ريموند مع بعض الأمراء الآخرين المعارضين اقتراحاً مضاداً : « لقد وصلنا بوحي الله ، وبعطفه ومحبته ، وفزنا بمدينة نيقية الحصينة ، وبرحمته ننتصر ونعيش فى أمن من الأتراك ، وفى سلام وانسجام فى جيشنا ، لهذا ينبغى أن نعهد إليه بأمورنا . فلاينبغى أن نخشى الملوك أو قادة الملوك ، ولا نرهب الأماكن ولا الأيام ، حيث أن الرب قد أنقذنا من أخطار كثيرة » [٢] . وانتصر الرأى الأخير ، ووصلنا أنطاكية وخيمنا بالقرب منها ، حتى أن المدافعين عن المدينة قذفوا علينا النار من أعالى أبراجهم فأصابوا رجالنا فى خيامهم ، وخيولنا .

وننتهز هذه الفرصة لنصف أنطاكية وتضاريسها حتى يمكن لقرائنا الذين لم يروها أن يتابعوا المعارك والهجمات [٣] . ففى أحضان جبال لبنان يقع سهل عرضه مسيرة يوم وطوله مسيرة يوم ونصف اليوم . ويحد السهل مستنقع ، وإلى الشرق يجرى نهر يتدفق حول جزء من هذا السهل ، فيعود إلى حافة الجبال الواقعة فى الاقليم إلى الجنوب ، بحيث لايمكن العبور من الجبال إلى النهر ، ومن هناك يلتف ليصل إلى البحر الأبيض المتوسط القريب منه . تقع أنطاكية فى هذه المضايق التى يكونها الجدول الذى يشق طريقه فى الجبال المذكورة ، بحيث أن تدفق النهر غرباً عبر السور الأسفل يجعل الأرض بينه وبين المدينة تتخذ شكل السهم . والواقع أن المدينة التى تقع إلى الشرق قليلاً ، ترتفع فى هذا الاتجاه وتحتضن داخلها قمم ثلاثة جبال . وتفصل الجبل الواقع فى الشمال عن الجبلين الآخرين هضبة عظيمة بحيث لايمكن إلا بصعوبة بالغة الانتقال من أحدهما إلى الآخر .

ويزهو التل الشمالي بقلعة ، والتل الأوسط بأخرى تسمى باليونانية كولاكس أما التل الثالث فليس به إلا أبراج . فضلا عن ذلك فان المدينة تمتد ميلين طولاً وتحميها الأسوار والأبراج والمتاريس حتى أنها لا يمكن أن تخشى هجوم الآلات ولا هجمة الانسان عليها حتى إذا اجتمع على حصارها الجنس البشرى كله (٤) .

وباختصار ، فإن الجيش الفرنجي الذى كان يتكون من مائة ألف من الرجال المسلحين ، والذى كان يخيم على طول خط شمالى أنطاكية التى وصفناها ، قنع بالبقاء فى مكانه دون أن يشن هجوماً على الجبهة . ورغم أن المدينة لم يكن بها إلا ألفان من الفرسان الممتازين ، وأربعة أو خمسة آلاف من الفرسان العاديين ، ونحو عشرة آلاف أو أكثر من المشاة . فإن أنطاكية كانت فى مأمن من الهجوم ، طالما أن الأبواب كانت عليها الحراسة ، لأن وادياً ومستنقعات كانت تحمى الأسوار العالية (٥) وعند وصولنا ، اتخذنا مواقعنا بشكل عشوائى ، ولم نعين مراقبين ، وتصرفنا بغباء شديد ، حتى أن الأعداء لو عرفوا بذلك ، لأمكنهم أن يجتاحوا أى قطاع فى معسكرنا .

فى ذلك الوقت وقعت فى أيدينا قلاع إقليمية ومدن قريبة بسبب الخوف منا ، والرغبة فى التخلص من نير الاتراك . وترك فرساننا أنطاكية ، متجاهلين المصلحة العامة ، وجريا وراء الآمال الأنانية لكسب بعض المنافع المادية . حتى من بقوا فى المعسكر كانوا يستمتعون بحياة الترف ، لدرجة أنهم كانوا لا يأكلون إلا أحسن قطع اللحم ، كالفخذ والأكتاف ويحتقرون لحم الصدر ، ولا يفكرون بالمرة فى القمح والنبيذ .فى تلك الأيام الطيبة لم يكن هناك من يذكرنا بأعدائنا المختبئين داخل أنطاكية إلا رجال المراقبة على طول الأسوار ، إلا أن الأتراك سرعان ما اكتشفوا أن المسيحيين كانوا يخربون القرى والحقول علانية وبدون سلاح . ورغم أن معلوماتى قليلة عن تحركات الأتراك ، فان أعدائنا سرعان ماخرجوا من أنطاكية أو جاءوا من حلب ، على بعد مسيرة يومين وقتلوا كلاً تينا (جنودنا الباحثين عن المؤن) المتناثرين بلادفاع (٦) وقد عكرت هذه الاجراءات الانتقامية صفو حياتنا الهانئة ، كما أن الفرص الجديدة للقتل والنهب شجعت المسلمين على شن إغاراتهم بشكل متكرر .

وحفزت أنباء هذه الأحداث الصليبيين على أن يطلبوا من بوهيمند ليقود هجوماً مضاداً . ورغم أن بوهيمند لم يستطع أن يجمع إلا مائة وخمسين فارساً ، فانه انطلق أخيرا بصحبة كونت الفلاندر ، وكونت نورماندى ، يدفعه الخجل من أن يوصم بالتهرب من الإقدام ، وكان السبب الأكبر فى خروجه أمر الله . فعينوا مواقع الأعداء ، وطاردوهم ودفعوهم إلى حتفهم فى نهر الأورنت (العاصى) . ثم عاد المسيحيون إلى المعسكر فرحين بالغنائم . وفى نفس الوقت رست السفن الجنوية على الساحل فى ميناء سيميون على بعد نحو عشرة أميال (٧) . وفى هذه الأثناء كان الأعداء يتسللون تدريجيا من أنطاكية ، فيقتلون السادة والمزارعين الذين كانوا يرعون خيولهم وماشيتهم عبر النهر ويعودون بما نهبوه إلى داخل المدينة .

نتوقف الآن عن سرد روايتنا لكى نصف الإطار الذى وقعت فيه الأحداث حتى نوضح هذه الأحداث . كانت خيامنا تقوم على النهر مباشرة ، بينما يقطع هذا النهر جسر عائم مصنوع من الزوارق التى كانت موجودة هناك . كما كان لأنطاكية جسر عند الركن الغربى الأسفل ، وتل فى مواجهتنا يقوم عليه مسجدان ، وكنيسة صغيرة بها قبور . ونعود إلى روايتنا ، فنلحظ أن قواتنا التى كثيرا ما كان العدو يتفوق عليها عددياً ، كانت تتجرأ وتشتبك مع المقاومة الطامعة . ولكن الأتراك الذين كانوا ينهزمون ويتبعثرون كثيراً ، كانوا يجدّدون القتال وسبب ذلك ، من ناحية ، أنهم كانوا يحملون أسلحة خفيفة ، هى الأقواس ، كما كانوا يتميزون بخفة الحركة على الخيول ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانوا يستطيعون الإسراع بالعودة عبر جسرهم الذى ذكرناه . كما كانوا يحبون أن يمطرونا بسهامهم من جبلهم . وأذكركم بأن جسرهم كان يبعد ميلا عن جسرنا ، وعلى السهل الممتد بين الجسرين كانت تدور اشتباكات يومية . ولما كان ريموند وأدهيمار يخيمان بالقرب من ضفاف النهر ، فإنهما كانا يتحملان ثقل الإغارات ، وكلفت هذه الإغارات التى تعتمد على الضرب الخاطف والفرار ، هذين القائدين كل خيولهما لأن الأتراك لم يكونوا يتقنون استخدام الرماح والسيوف ، فكانوا يقاتلون من على بعد ، فكانوا يشكلون خطورة فى المطاردة أو الفرار .

وفى الشهر الثالث من الحصار عندما تغيب كونت نورماندى ، ومرض جود فرى ، وارتفعت الاسعار إرتفاعا هائلا ، تم اختيار بوهيمند وكونت الفلاندر لقيادة حملة البحث عن المؤن فى هيسبانيا Hispania بينما تولى ريموند وأدهيمار حماية المعسكر [٨] . وعندما علم المحاصَرون (داخل أنطاكية) بأخبار هذه التطورات فإنهم استأنفوا هجماتهم المعتادة . وتحرك ريموند بدوره لمواجهتهم بطريقته المعتادة ، ووضع مشاته فى تشكيل قتالى ، ثم راح يطارد الأتراك فى صحبة عدة فرسان . وفى الاشتباك الذى تلا ذلك ، أسر وقتل اثنين من المهاجمين على جانب التل ، وطرد الآخرين عبر جسرهم إلى أنطاكية . كان المنظر أكثر مما يتحمل المشاة الذين اضطربت صفوفهم ، وألقوا راياتهم ، وجروا فى فوضى شاملة إلى الجسر . وفى أمنهم الزائف راحوا يلقون بالصخور والقذائف الأخرى على المدافعين عن الجسر . وتجمع الأتراك من جديد وشنوا هجوماً مضاداً عن طريق الجسر ومخاضة سفلية .

فى ذلك الوقت اندفع فرساننا بخيولهم نحو جسر لمطاردة حصان شارد جعلوه يجرى بلا فارس . وظن المشاة خطأ أن ذلك هروب يقوم به الفرسان ، وأسرعوا هاربين من الهجوم التركى . وفى الاشتباك ذبح الأتراك الهاربين بلا رحمة ووجد الفرسان الفرنجة - الذين توقفوا عن القتال - أنفسهم وقد تلقفتهم الحشود الهاربة التى راحت تخطف أسلحتهم وتشُد خيولهم وذيولها وتجذبهم من فوق صهوات جيادهم . وتبعهم فرسان آخرون فى اندفاعهم بدافع من الشعور بالرحمة والحرص على سلامة قومهم . وأسرع الأتراك بمطاردة الاحياء بلا هوادة ، وسرقوا ممتلكات الموتى . ولم يكف رجالنا عار إلقاء أسلحتهم والفرار دون أن يشعروا بأى خجل ، بل أنهم قفزوا فى النهر ليرتطموا بالصخور أو السهام أو ليغرقوا . ولم يعبر النهر ويصل إلى بر الأمان الا السباحون والأقوياء .

وفى القتال الذى دار من جسر الأتراك إلى جسرنا ، قتل الأتراك نحو خمسة عشر فارساً وعشرين من المشاة . ولقى حامل راية أسقف لى بويه وأحد النبلاء ، يدعى برنارد أوف بيزيه ، مصرعهم هناك ، واستولى الاتراك على

راية أدهيمار [٩] . واننا نأمل ألا تكون روايتنا لعدم حياء جيشنا ، سبباً فى لوم عباد الله وغضبهم علينا ، لأن الله قد جعل الصليبيين الزناة التاهين يتوبون إليه من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى جعل جيشنا يطيب نفساً فى بلاد المسلمين .

وانتشر الكلام من معسكرنا عن حالة الازدهار التي كانت عليها قوات ريموند وانتصاره العظيم، حتى وصل بوهيمند وارتفعت نتيجة لذلك الروح المعنوية بين رجاله . وأثناء هجوم على إحدى القرى سمع بوهيمند بعض مزارعيه يفرون ويصرخون طالبين النجدة ، فأرسل قوة تستطلع الأمر . ورأت هذه القوة جمعاً من الأتراك والعرب فى مطاردة محمومة . وكان من بين المجموعة المساعدة كونت الفلاندر وبعض البروفنساليين وهو اسم يطلق على كل من هم من برجندى وأوفرنى وجاسكونى وجوتيا . وألفت نظركم إلى أن كل ماعدا ذلك من قوات فى جيشنا يطلق عليهم إسم الفرنجة ، ولكن العدو لايميز ويستخدم كلمة فرنجة للإشارة إلى الجميع . لكن يجب أن أعود إلى قصتنا [١٠] . فقد اندفع كونت الفلاندر فى تهور على حصانه فى مواجهة الأتراك حتى لايناله عار الإنسحاب ليبلغ من اقتراب العدو . ولما كان الأتراك لم يألفوا القتال بالسيف ، فقد ركنوا إلى الفرار ، ومع ذلك فان كونت الفلاندر لم يضع سيفه حتى قتل مائة من أعدائه .

وعندما عاد كونت الفلاندر منتصراً إلى بوهيمند ، اكتشف إثنى عشر ألفاً من الأتراك يقتربون من حرس مؤخرته ورأى إلى يساره عدداً كبيراً من المشاة يقفون على تل غير بعيد . وبعد مشاورات مع بقية جيشه ، عاد بتعزيزات وبادر بالهجوم ، بينما تبعه بوهيمند مع الصليبيين الآخرين عن بعد ، فحموا بذلك خطوط مؤخرته . وكان للأتراك أسلوب معتاد فى القتال حتى عندما يفوقهم عدوهم عدداً ، هو أن يحاولوا الإحاطة بأعدائهم . وهنا مافعلوه فى تلك المواجهة ولكن بعد نظر بوهيمند جعله يتوقع حيلتهم .

وقد فر الأتراك والعرب الذين هاجموا كونت الفلاندر عندما أدركوا أن القتال الذى سيقع سيكون وجهاً لوجه بالسيوف وليس عن بعد بالسهام . ثم إن

كربت الفلاندر طارد الأعداء لمسافة ميلين ، وكان الأحياء يرون القتلى منطرحين علي طول الطريق كحزم القمح في الحقل زمن الحصاد . وأثناء ذلك القتال وجه بوهيمند ضرباته إلى القوات التي كانت تكمن له في الكمين وقضى عليها ، إلا أنه لم يستطع أن يمنع الطغمة سالفة الذكر من مشاة الأعداء ، من التسلل من خلال أماكن لايمكن عبورها على ظهور الخيل .

ولولا التواضع لحسبت هذه المعركة أعظم من الحرب المكابية لأن ماكابيوس قضى بثلاثة آلاف علي ثمانية وأربعين ألفا من أعدائه ، بينما دحر فرساننا الأربعمائة ستين ألفاً من الوثنيين ، ولكننا لانقلل من قيمة شجاعة ماكابيوس ، ولا نزهو ببسالة فرساننا ، ومع ذلك ، فاننا نقول أن الله ، الذى كان عظيماً مع ماكابيوس ، كان أكثر عظمة مع جيشنا [11] .

ولقد كان ردنا علي هروب المهاجمين تناقصاً فى الشجاعة حتى أن الصليبيين أخفقوا فى تتبع الهاربين . وبالتالى فإن جيشنا المنتصر عاد إلى المعسكر بدون مؤن ، وكان من شأن المجاعة التى أعقبت ذلك أن ارتفعت الأسعار ، حتى أن اثنين من الصولدى لم تكد تكون لهما أي قوة شرائية تعادل نصيب الرجل الواحد من الخبز فى اليوم ، كما ارتفعت أسعار الأشياء الأخرى بنفس الدرجة ، فما كان من الفقراء ، والأغنياء أيضا الذين كانوا يريدون إنقاذ ممتلكاتهم ، إلا أن تركوا الحصار . وأما من بقى لقوة روحية فيه ، فقد كان عليه أن يتحمل رؤية خيوله وهى تنفق من الجوع . كان التبن شحيحاً ، ولم تكن سبعة أو ثمانية صولديات تكفى لشراء كمية من الحبوب لإطعام حصان واحد لليلة واحـــدة .

ومما زاد من كربنا ، أن بوهيمند - وقد اشتهر لخدمته الباهرة فى بلاد المسلمين - هدد بالرحيل ، قائلا أن الشرف هو الذى جعله يتخذ هذا القرار ، لأنه رأى رجاله وخيوله تموت من الجوع ، فضلا عن ذلك ، فقد أوضح أنه رجل ذو إمكانات محدودة لاتكفى ثروته الشخصية لحصار مطوّل . وقد علمنا فيما بعد ، أنه قد أعلن تلك البيانات لأن طموحه كان يدفعه إلى اشتهاء أنطاكية .

في ذلك الوقت وقعت هزة أرضية فى اليوم الأول من يناير كما رأينا علامة معجزة فى السماء [12] . ففى فترة المناوبة الأولى من الليل ، كانت السماء حمراء فى الشمال بحيث بدا كما لو أن الشمس أشرقت فى يوم جديد . ورغم أن ذلك كان توبيخاً من الله لجيشنا ، حتى تتحول إلى النور الذى أشرق فى الظلام ، فإن عقول البعض كانت غُلفاً ، وكانوا عنيدين ، حتى أنهم لم يكفوا عن حياة الشغب والنهب . ثم أن أدهيمار حث الناس على أن يصوموا ثلاثة أيام ، وأن يصلوا ، ويتصدقوا ، ويقيموا موكباً . كما أمر الكهنة باقامة القداسات ، ورجال الدين بترديد المزامير وهكذا ، فإن الرب المبارك ، وقد أظهر عطفه ومحبته ، أخرّ عقاب أبنائه حتى لايزداد تفاخر الوثنيين .

انتقل الآن إلى شخص كدت أنساه ، لأنه ألقى به فى طىّ النسيان . وهذا الرجل ، هو تاتيكيوس ، الذى صحب جيشنا بدلا من ألكسيوس ، وكان له أنف مشوّه ، ويفتقر إلى أى صفات تعوضه عن ذلك [13] . كان تاتيكيوس كل يوم يحذر الأمراء بهدوء ، أن يتراجعوا إلى القلاع القريبة ويطردوا المحاصَرين بهجمات وكمائن متعددة . ولكن عندما علم الكونت بكل هذه المسائل ، وكان مريضا من يوم هروبه الاضطرارى بالقرب من الجسر ، جمع أمراءه وأسقف لى بويه . وفى نهاية الإجتماع وزع ريموند خمسمائة مارك على المجموعة ، على شرط أنه إذا فقد أى واحد من الفرسان حصانه يُعطى واحد آخر بدلا منه من الخمسمائة مارك ومن أرصدة أخرى منحت للأخوة (brother hood) [14] .

كانت هذه إتفاقية الأخوة هذه مفيدة جدا فى ذلك الوقت ، لأن فقراء الناس فى الجيش الذين كانوا يرغبون فى الانتقال إلى الجانب الآخر من النهر للبحث عن المؤن كانوا يرهبون هجوم الأتراك . وكان القليل فقط هم الذين يرغبون فى قتالهم ، حيث أن خيول البروفنساليين ، والتى لم تكد تبلغ المائة حصان ، كانت هزيلة ضعيفة . وأبادر فأقول أن نفس الموقف كان سائداً فى معسكر بوهيمند والقادة الآخرين [15] .

وبعد التصرف الأخوى ، هاجم فرساننا العدو بجرأة لأن من كان معهم خيول لا قيمة لها ومنهكة القوى ، كانوا يعرفون تماماً أنه يمكنهم أن يستبدلوا بخيولهم

المتقدمة خيولاً أفضل ، آه ، حقاً يكتفى إضافة شئ آخر . فقد عرض كل الأمراء ، ما عدا الكونت ، أنطاكية على بوهيمند فى حالة الاستيلاء عليها . وهكذا بناء على هذا الإتفاق ، أقسم بوهيمند والأمراء الآخرون على ألا يرفعوا الحصار عن أنطاكية لمدة سبع سنوات إلا إذا وقعت قبل ذلك [16] .

بينما كانت هذه الأمور تجرى فى المعسكر ، انتشرت قصة غير مؤكدة بأن جيش الامبراطور كان يقترب ، وهو جيش قيل أنه كان يتكون من عدة أجناس ، من السلاف ، والبجناك ، والكومان والتركوبولية [17] وقد أطلق هذا الاسم على التركوبولية لأنهم إما كانوا قد تربوا مع الأتراك أو كانوا ذرية أم مسيحية وأب تركى ، وكانوا يخشون الارتباط بنا لسوء معاملتهم لنا طوال الرحلة . والواقع أن تاتيكيوس ، ذلك المشوّه ، الذى كان يتلهف على عذر يهرب به لم يلفق هذه الكذبة فحسب ، بل أضاف إلى ذنوبه الحنث باليمين ، وخيانة أصدقائه ، بأن أسرع هاربا بعد أن تنازل لبوهيمند عن مدينتين أو ثلاث ، هى طرسوس والمصيصة وأذنه . وهكذا ترك تاتيكيوس المعسكر بحجة الإنضمام إلى جيش ألكسيوس ، وتخلى عن أتباعه ، ومضى تصحبه لعنة الله . وجلب بهذا العمل الخسيس ، العار الأبدى على نفسه ورجاله [18] .

* * * * *

هوامش الفصل الرابع

(١) أنطاكية مدينة قديمة تقع على الضفة الجنوبية لنهر الأورنت فى سهل يقع بين النهر وجبل حبيب النجار silpius . وترجع تحصيناتها إلى عهد جستنيان ، وقام كل من البيزنطيين والسلاجقة بترميم هذه التحصينات . واستولى السلاجقة على المدينة فى عام ١٠٨٥م، وحصنوا الأسوار بشدة . وقد وصل الصليبيون إلى أنطاكية فى الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ أكتوبر ١٠٩٧م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 203.

- كان يطلق على أنطاكية فى العصور القديمة إسم ربلاتا Reblata . ثم جاء أنطيوخوس أحد خلفاء الاسكندر المقدونى وأقام حولها سورا وجعلها عاصمة له وأطلق عليها إسم أنطاكية نسبة إليه . وأكمل بناءها سليوقس الذى بنى اللاذقية وحلب وأفامية . ودخلها المسلمون لأول مرة عندما فتحها أبو عبيدة بن الجراح فى سنة ٦٣٨م/ ٣٢ هـ أثناء فتح الشام . وبقيت أنطاكية فى أيدى المسلمين حتى استولى عليها الامبراطور نقفور فوقاس فى عام ٩٦٩ م / ٣٥٨ هـ . ثم عادت إلى أيدى المسلمين عندما فتحها سليمان بن قتلمش السلجوقى فى عام ١٠٨٥م / ٤٧٧ هـ . وبقيت فى أيدى السلاجقة حتى قدوم الفرنج إلى الشام . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٨٢ - ٨٣ . (الترجمة العربية) .

(٢) إختلق المؤرخ هذا الحديث من العهد الجديد : وعلى سبيل المثال « لقد أنقذنا الرب من مهالك عديدة » . انظر : New Testament, 11 Corinthians, 1 : 10.

(٣) يتبع وصف أنطاكية هنا أسلوب المؤرخين . انظر وصف وليم الصورى لأنطاكية :
William of Tyre, History of Deeds, vol. 1, pp. 200 - 204.

(٤) مدينة أنطاكية على شكل دائرة قطرها متصل بالجبل ، والأسوار تصعد مع الجبل ، فتتم دائرة يبلغ محيطها اثنى عشر ميلا ، يمكن اجتيازها عن طريق عدة أبواب . وتتم حراسة هذه الأسوار عن طريق ثلاثمائة وستين برجا ، عدد شرفاتها حوالى أربعة وعشرون ألف شرفة . وفى أقصى الجنوب من المدينة توجد القلعة فى أعلى جبل حبيب النجار ، حيث يرتفع عن المدينة بحوالى ألف قدم ، وهى قلعة حصينة لايمكن اختراقها . ومن الملاحظ أن فتح أنطاكية على أيدى السلاجقة ثم على أيدى الصليبيين لم يتم إلا عن طريق الخيانة من داخل المدينة . حتى أن صلاح الدين الأيوبى فى أوج قوته وجد أن أمرها يطول . ولم تسقط المدينة بالسيف إلا فى عهد الظاهر بيبرس المملوكى فى الوقت =

= التى لم يكن بداخلها من يدافع عنها . كل ذلك بسبب التحصينات الهائلة التى أحاطت بالمدينة . وللمزيد عن طبوغرافية أنطاكية وأهميتها ، انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص ٨٤ - ٨٥ .
(الترجمة العربية) .

(٥) الأرقام التى يوردها ريمونداجيل غير حقيقية . انظر :

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 336- 341.

ولا يعنى تحديد الفرسان من الدرجة الأولى أو الفرسان العاديين لنا الا القليل . انظر :

R.C. Smail, Crusading Warfare, passim.

(٦) كان يحكم حلب فى زمن الحملة الصليبية الأولى القائد السلجوقى الماكر رضوان ، الذى تلاعب بجمهور الشيعة القوى والعصبة الفاطمية .

- وكان يحكم فى دمشق دقاق شقيق رضوان . وهما ولدا تاج الدولة تتش عم السلطان السلجوقى بركيارق . وكان الأخوان فى صراع دائم ، يعتبر هو لب الموقف فى بلاد الشام عند قدوم الصليبيين إلى المنطقة ، ونجاحهم فى اجتياحها دون مقاومة اسلامية فعالة . وفى صراعهما بحث كل من الأخوين عن حلفاء ، وكان ياغى سيان حاكم أنطاكية حليفا لدقاق . وعندما تخلص رضوان من اتابكة جناح الدولة صاحب حمص وعدو ياغى سيان ، انضم الأخير إلى رضوان وأقام نفسه أتابكا له ، وساعده فى الهجوم على أملاك أخيه . وعند قدوم الصليبيين عاد رضوان إلى حلب تاركا ياغى سيان ليواجه وحده الحملة الصليبية الأولى . وكان رضوان قد تحالف مع الفواطم ضد أخيه دقاق . وأقام الخطبة للخليفة الفاطمى المستعلى فى حلب فى ١٠٩٦م/ ٤٩٠ هـ وحتى ١٠٩٨م/ ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨م ، ص ١٣٣ . ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ٣ جـ ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥١م ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ . راجع أيضا : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، الاسكندرية ، ١٩٨٩م ، ص ١١٢ .
(الترجمة العربية) .

(٧) ميناء سمعان simon ، مدينة ساحلية تقع عند مصب نهر العاص ، وكان الجنوية الذين رسوا فيه حلفاء لكونت تولوز . وقدموا له يد المساعدة بعد ذلك أثناء حصار الصليبيين لبيت المقدس .

- فى الحقيقة قدم الجنوية هنا المؤن وآلات الحصار للفرنج دون تمييز بين قادتهم . إلا أنهم سيدافعون عن دعاوى بوهيمند بعد أن تسقط أنطاكية فى أيدى الفرنج وبعد أن عقد معهم بوهيمند اتفاقية ١٤ يوليو ١٠٩٨م ، التى منحهم بمقتضاها امتيازات كثيرة . ثم نراهم يساعدون كونت تولوز فى حصار بيت المقدس . فالجنوية ينظرون إلى مصالحهم أولا قبل النظر إلى شخصية الحليف - ويطلق المسلمون اسم السويدية على ميناء سان سيمون .
(الترجمة العربية) .

(٨) يستعمل ريموند هنا اسم Hispania للتعبير عن بلاد المسلمين .

- خرج كل من بوهيمند وكونت الفلاندرز على رأس قوة قوامها عشرون ألف مقاتل فى ٢٨ ديسمبر ١٠٩٧م / ١٣ محرم ٤٩١ هـ متجهين إلى حماة . ويحدد ابن القلانسى عدد الفرنج بثلاثين ألف مقاتل وأيده فى ذلك ابن العديم . ويبدو أن العدد الأول - الذى حدده مؤلف الجستا - هو الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣١ . راجع أيضا :

Gesta Francorum, p. 30.

راجع أيضا : F. Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, Paris, p. 187.

وأما استعمال المؤرخ لكلمة Hispania ليعبر بها عن بلاد الوثنيين فيوحى بأن ناسخ المخطوط من سكان جنوب فرنسا.واعتاد هذا الناسخ أن يرى الفرسان يعبرون البرانس لقتال مسلمى أسبانيا . كما نرى المؤرخ فى عدة مواضع يستخدم كلمة Chorazaim للتعبير عن بلاد الوثنيين أيضا . وهى احدى المدن التى لعنها المسيح لإقامة المسيح الدجال فيها . وقد بحث الناشران عن اسم هذه المدينة فى الكتاب المقدس (Liber de Antichristo) . ومن الواضح أن هذا الاسم يشير إلى إقليم خراسان بشمال فارس وهو الاقليم الذى جلب منه ملك حلب تعزيزاته السلجوقية . انظر :

J. Richard, Raymond d'Aquillers, p. 207.

(الترجمة العربية) .

(٩) كان برنارد أوف بيزييه Bernard of Béziers ضمن رجال ريمونسان جيل . ويظهر اسمه كشاهد على منحه قدمها كونت تولوز لكنيسة القديس فيكتور بمرسيليا فى عام ١٠٩٤م . وكان حامل لواء أودهيمار يدعى هرقل Heraclius . انظر :

J. '[illegible]isette, HGL, 3. p. 732.

(١٠) يؤدى استخدام ريموندا جيل لكلمة البروفنساليين بشكل إجمالى إلى ارتباك المؤرخين . وعلى أية حال فقد كتب فولشر أوف شارتر « ريموند كونت ، البروفنساليين ، مع القوط وأهل جاسكونى » انظر : Mc Ginty, op. cit., p. 22.

ويجب أن يدرك القارىء أن ريموندا جيل يطلق اسم البروفنسال على كل جنوب فرنسا أكثر مما يطلقه على إقليم بروفانس .

(١١) يظهر ريموندا جيل احترامه لجسارة مكابيوس لكنه يتمنى لو أن جنوده المسيحيين يتفوقون عليه . وهذا مثال للأرقام التى لايمكن الوثوق فيها والتى يوردها المؤرخ . انظـــــر :

Berviarium Romanum, in 11 Nocturno, EX Libro Officiorum Sancti Ambrosii Episcopi, Lib. 1, 40.

ومن المحتمل أن المؤلف يكرر صلوات القديس أمبرواز فى فقرته هذه .

– والمكابيون هم حكام إقليم يهوذا من سنة ١٦٧ ق . م إلى سنة ٣٧ ق . م والإسم فى أصله كان يطلق بصفة خاصة على يهوذا إبن ماتياس ، ثم أطلق فيما بعد على أسرته وأتباعه . ويطلق الآن على ذرية ماتياس فقط . وكان لماتياس خمسة أبناء ، هم حنا وسمعان ويهوذا وايلعازر وجوناثان . وهؤلاء قادوا الكفاح ضد قوات أنطيوخوس Epiphanes الذى حاول صبغ بلادهم بالصبغة الهللينية . وقاد هؤلاء حركة الاستقلال السياسى فى عهد يهوذا الذى مات فى عام ١٦٠ ق . م واستمر أسلافه فى الكفاح ضد الحكم اليونانى حتى عام ٣٧ ق.م حين قضى هيرود ، الذى اعترف به الرومان ملكا على يهوذا ، كل بقايا هذه الأسرة . انظر :

Morris A. Gutstein, Maccabees, in CE, vol. 15, New York, 1984, pp. 151 - 152.

أما عن المعركة بين المسلمين والصليبيين فهى نتيجة لأول رد فعل إسلامى للوجود الصليبى فى بلاد الشام . وقام به دقاق ملك دمشق السلجوقى بعد ثلاثة أشهر من قدوم الفرنج إلى شمال الشام ، مما يوضح انشغال حكام الشرق الأدنى الاسلامى آنئذ بمصالحهم الشخصية دون الصالح الاسلامى العام ، فجاءت كل ردود الفعل الاسلامية إما متأخرة ، وإما ضعيفة ، وإما تتسم بالجهل بطبيعة الحركة الصليبية . وفى هذا الموضع يحاول ريموندا جيل أن يرجع انتصار الفرنج على دقاق وأتابك جناح الدولة أمير حمص وقواتهم ، إلى كونت الفلاندرز ، فى حين أن المسلمين كادوا أن يقضوا على – روبرت لولا نجدة بوهيمند له . وطبيعى أن يبخس مؤرخنا الأمير النورماندى – بوهيمند – حقه فى هذا الإنجاز للعداوة القائمة بين الأخير وكونت تولوز الذى يدين له المؤرخ بالولاء . وقد وقعت هذه المعركة عند قرية البارة فى جنوب شرق أنطاكية فى ٣١ ديسمبر ١٠٩٧م / ١٦ محرم ٤٩٢ هـ . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣١ . راجع أيضاً :

Albert d;Aix, p. 374.

(الترجمة العربية) .

(١٢) استعار المؤرخ فى وصفه للزلزال من كتاب صلوات القديس أمبرواز " Et ecce, terraemotus factus est magnus " وها هى هزة أرضية عظيمة تحدث » . وكتبها ريموندا جيل " Interea terremotus factus est magnus " و فى تلك الأثناء ، حدثت هزة أرضية عظيمة » ويضع هاجنمير هذه الهزة الأرضية فى ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧م. انظر: Hagenmeyer, Chr. 221.

(١٣) تاتيكوس Taticius هو القائد البيزنطى الذى اصطحب الصليبيين إلى أنطاكية . ويبدو كره المؤرخ له أمرا غريبا إذا ما وضعنا فى اعتبارنا حقيقة أن كونت تولوز كان متعاطفا مع القضية البيزنطية .

(١٤) فى هذه الفقرة نرى تطبيقا عمليا للفكرة الأخوة . وهو دليل واضح على أن الصليبيين قد عقدوا المجالس واتخذوا القرارات التى تمليها الضرورة . ومن الواضح أن كونت تولوز قد استخدم ثروته لمساعدة المعدمين . انظر :

Edmund Bishop, Liturgica Historica, Oxford, 1918.

وهناك مناقشة ممتازة لفكرة الأخوة . انظر :

Thomas N. Bisson, The Military Origins of Medieval Representation, in AHR, 17, 4 (1966), pp. 1199 - 1218.

– راجع أيضا حاشية رقم (١٥) من الفصل الأول .

(الترجمة العربية) .

(١٥) يذكر أنسلم أوف ريبونت فى رسالته إلى مناسيس رئيس أساقفة ريمز أنه لم يتبق لدى الفرنج بصفة عامة سوى ٧٠٠ حصان . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ملحق رقم ٢ ، ص ٢٩٩ .

(الترجمة العربية) .

(١٦) هذه الرواية تدفعنا إلى الاعتقاد بأن ريموندأجيل قد سبب الاضطراب فى كتابه . فمؤرخ الجستا يورد رواية مشابهة ولكنه يضع تاريخ وعد الصليبيين باعطاء أنطاكية لبوهيمند فى الليلة السابقة على سقوط المدينة . وحسب ما جاء فى الجستا ، فإن تسليم أنطاكية لبوهيمند كان مرتبطا بفشل ألكسيس كومنين فى إمداد الصليبيين بالقوات المساعدة . انظـــــر : Yewdale, op. cit., pp. 60 - 61.

(١٧) التركبولية هم فرسان استخدمهم البيزنطيون فى جيوشهم .
- والتركبلى كلمة يونانية معناها أبناء أو سلالة الترك . وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم ، تلى فى أهميتها فرقة الفرسان ، وينحدر أفرادها من أب تركى (أو عربى) وأم يونانية . ويذهب الدكتور الشيال إلى أن تكوين هذه الفرقة قد تم بعد اتصال البيزنطيين بالسلاجقة بعد وقعة ملاذكرد . وكان فرسان هذه الفرقة يتميزون بطريقة قتال تعتمد على الكر والفر والحرب السريعة . وقد أشار إليهم ألبرت دكس ووليم الصورى ، وابن الأثير وأسامة بن منقذ والعماد الأصفهانى . وقد كون المسلمون فرقا فى جيوشهم تحمل نفس الاسم والصفات . انظر : ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ٣ جـ ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، جـ ٣ ، ص ١٤٩ ، حاشية رقم (١) التى تنتهى فى ص ١٥٠ . وأول ذكر للتركبولية فى جيوش المسلمين يأتى فى رواية ابن واصل عن شروط صلاح الدين لعقد الصلح مع الفرنج فى عام ١١٩٢م/٥٨٨ هـ بعد أخذ صلاح الدين لربض يافا أثناء وجود ريتشارد قلب الأسد فى فلسطين . انظر : ابن واصل : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .
(الترجمة العربية) .

(١٨) جاءت الدوافع التى أدت إلى هروب تاتيكوس غامضة . فآن كومنين تقرر أن بوهيمند هدد القائد البيزنطى ، ومؤلف الجستا أكد على الجبن الذى اتسم به تاتيكوس ، بينما قرر ألبرت دكس أن تاتيكوس قد خطط للهرب متى سنحت له الفرصة . وتفسيرات ريموندأجيل لأسباب هروب تاتيكوس تفتقر إلى الدقة ، وليس هناك دليل على أنه تخلى عن أذنه والمصيصة وطرسوس لبوهيمند . ومن الواضح أن ريموندأجيل لم تكن لديه المعلومات الكافية عن هذا الحدث ، واعتمد على الإشاعات أو على مصادر معلومات أخرى . وأذنة والمصيصة مدينتان فى قيليقية وقد استولى عليها تنكريد من السلاجقة . ومن المحتمل أن Tursol (هكذا فى الترجمة الانجليزية) تعنى طرسوس . انظر : Krey, The First Crusade, p. 292.
وعلى أية حال ، فإن استهجاء ريموندأجيل يوحى بأنه يقصد بها تل باشر " Turbessel ".
وقد تخلى تاتيكوس عن الحصار الصليبى لأنطاكية فى نهاية فبراير ١٠٩٨م . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 230.

فى الحقيقة لم يكن رحيل تاتيكوس من المعسكر الصليبى خارج أسوار أنطاكية هروبا ، يرجع إلى الجبن الذى وصفه به المؤرخون اللاتين أو خيانة منه للفرنج ، وإنما اضطر الرجل إلى الرحيل لشعوره أنه غير مرغوب فيه بين الفرنج . ولا يتضح ذلك إلا بمعرفة تفاصيل رواية آن كومنين - فقد روت المؤرخة البيزنطية أن تاتيكوس رحل عن الفرنج نتيجة لتآمر بوهيمند الذى أخبره سرا بأن القادة الصليبيين قد علموا بأن الامبراطور البيزنطى قد حرض السلطان السلجوقى على الفتك بالصليبيين ، ولذلك فهم - الفرنج - قد اتفقوا على الثأر من تاتيكوس ، وبذلك دفعه بوهيمند إلى الرحيل . وإذا تفحصنا كل الروايات التى قيلت بشأن هذا الحدث ، ستجد أن رواية آن كومنين أشد إقناعا . فأنى لتاتيكوس أن يعلم بنبأ قدوم السلاجقة كما يذكر مؤلف الجستا ، دون أن يعلم به الصليبيون أيضا ؟ . ثم كيف ينوى تاتيكوس عــــدم العودة - بعد أن يأتى بالمؤن كما أخبر هو الفرنج - كما يذكر ريموندأجيل فى الوقت الذى ترك فيه جميع مساعديه مع الجيش البيزنطى فى المعسكر الصليبى كدليل على أنه سيعود بالمؤن ؟ ثم كيف يكون تاتيكوس جبانا يخشى قدوم الترك وقد لمس ريموندأجيل بنفسه شجاعة وحزم الرجل ؟ ولماذا لايكون وجود تاتيكوس كنائب للامبراطور البيزنطى مع الفرنج عقبة فى سبيل استئثار بوهيمند بأنطاكية لنفسه ، كما قرر ريموندأجيل من قبل ؟ ومن المؤكد أن تاتيكوس كان سيطالب بأنطاكية حسب اتفاقية القسطنطينية (مايو ١٠٩٧م) التى عقدها الفرنج مع الامبراطور البيزنطى . لذا تخلص منه بوهيمند . وإذا كان المؤرخون اللاتين قد تحاملوا ضد القائد البيزنطى ، فقد أنصفه واحد من بنى جلدتهم وهو أورديريك فيتاليس الذى ذكر أنه عندما قـــدم تاتيكوس تقريره للامبراطور البيزنطى ، استعد الأخير واتخذ طريقه إلى أنطاكية لمساعدة الفرنج ، ولم يثنه عن المضى فى قراره سوى ما أخبره به ستيفن كونت بلوا ، الذى هرب من المعسكر الصليبى قبيل سقوط أنطاكية فى أيدى الفرنج بيوم واحد ، من أن السلاجقة قضوا على الفرنج ، فآثر الامبراطور العودة إلى بلاده للتصدى لما قد يقوم به السلاجقة من هجوم ضدها وهو بعيد عنها فى بلاد الشام . انظر :



خريطة رقم (٢): الصليبيون في بلاد الشام وفلسطين

Anne Comnen, The Alexiad, p. 287, Gesta Francorum, pp. 34 - 35, 44-= 45, Raimond d'Agiles, Historia Francorum, in RHC, vol. 111, pp. 245 - 246; Ordric Vitalis, Historia Ecclesiastica, vol. 5, p. 77. C.F. also, Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, pp. 192 - 193; Runciman, A History of the Crusades, vol. 1, p. 224; J. France, The departure of Tatikos from The Crusading Army, in BIHR, vol. 44, no. 110, 1971.

راجع أيضا : جوزيف نسيم : العرب والروم ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين ، الاسكندرية ، ١٩٨٩ م ، ص ١١٦.
(الترجمة العربية) .

الفصل الخامس

المرحلة المتأخرة من حصار أنطاكية

تشديد الحصار

جاءت الآن أخبار بأن قائد الخليفة على رأس جيش كبير من كوروزان Corozan كان يجلب المعونة إلى أنطاكية [1] . وبعد انعقاد مجلس الحرب فى خيمة أدهيمار ، صدرت أوامر لرجال المشاة بالدفاع عن المعسكر وللفرسان بالخروج لملاقاة القوة الجديدة . وكان السبب فى صدور هذا القرار أن الجبناء وغير اللائقين فى صفوف المشاة ، ربما أظهروا جبناً أكثر مما يظهرون من شجاعة إذا رأوا قوة كبيرة من الأتراك . ورحلت الجماعة التى ستقوم بالحملة تحت جنح الظلام ، واختبأت فى بعض التلال على بعد فرسخين من المعسكر ، بحيث لم يستطع المدافعون عن أنطاكية أن يعلموا برحيلهم . والآن أود أن يستمع من حاولوا أن يحطوا من شأن جيشنا فى الماضى ، إلى هنا : وليسمعوا فعلا ، حتى إذا فهموا المثل الذى يضربه الرب على رحمته نيابة عنا ، عساهم أن يسرعوا بإرضاء الرب بدموع الندم .

فقد زاد الله من حجم الوحدات الست من الفرسان بحيث بدا أن كل وحدة زادت من أقل من سبعمائة رجل إلى أكثر من ألفين . وبكل تأكيد ، فإنه لما يشق علىّ ، أن أتحدث عن شجاعة الجيش ، الذى كان فرسانه يغنون أغانى الحرب بكل ابتهاج حتى بدا وكأنهم ينظرون إلى المعركة القادمة كما لو كانت من الألعاب الرياضية . ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن موقع القتال القادم كان بالقرب من مكان يتدفق النهر عنده على بعد ميل من المستنقع ، وبذلك حالوا دون استخدام الأتراك لحركات الإلتفاف المعتادة والتى كانت تعتمد على نشر قواتهم . وفضلا عن ذلك فإن الرب الذى قدم لنا الميزات السابقة الذكر ، قد أمدنا الآن بستة أودية متاخمة

تستطيع قواتنا أن تتحرك فيها إلى المعركة . هكذا ، ففى خلال ساعة كنا قد زحفنا واحتللنا الميدان . وما إن سطعت الشمس على أسلحتنا ودروعنا حتى بدأت المعركة ورجالنا يندفعون إلى الأمام ، بينما كان الأتراك يتحركون جيئة وذهاباً ، ويطلقون سهامهم ويتراجعون ببطء [2] .

ومع ذلك ، فقد نزلت بقواتنا خسائر فادحة ، حتى دفعت بالخط الأول من الأتراك إلى تشكيلات المؤخرة . وقد أخبرنا الذين تركوا مواقعهم فيما بعد ، أنه كان هناك على الأقل ثمانية وعشرين ألفا من الفرسان الأتراك فى هذا اللقاء . وعندما اختلطت خطوط الأعداء ، فى النهاية صلى الفرنجة للرب ، واندفعوا إلى الامام ، وفى الحال فان الرب الحاضر أبدا « القوى القدير فى المعارك » حمى أبناءه وأذل الوثنيين [3] . بعد ذلك طاردهم الفرنجة لعشرة أميال تقريبا من مكان المعركة إلى قلعتهم شديدة التحصين .ولدى رؤية هذا السيل الجارف قام من كانوا بالقلعة بإحراقها ولاذوا بالفرار [4] ، وأحدثت هذه النتيجة ابتهاجاً وغبطة فى المعسكر ، لأننا اعتبرنا أن إحراق القلعة نصر آخر .

وفى نفس الوقت شب القتال بلا ضابط فى كل مكان باتجاه أنطاكية ولأن أعداءنا كانوا يخططون للقيام بهجوم ذى شعبتين - إحداهما من المحاصرين (بداخل أنطاكية) ، والأخرى من القوات المساعدة التى لم تكن متوقعة . ولم يحاب الرب طرفاً على الآخر ، وحارب مع المشاة بينما كان يبتسم للفرسان بحيث لم يكن الانتصار الذى أحرزه المشاة على المحاصرين أقل قدراً من صد الفرسان للتعزيزات . وبعد أن كسبنا المعركة وفزنا بالغنائم ، حملنا رءوس القتلى إلى المعسكر ، وعلقناها على أعمدة كتذكرة بائسة لحالة حلفائهم الأتراك ، وما ينتظر المحاصَرين من مصائب . والآن حين نتأمل فاننا نستنتج أن ذلك كان أمر الرب لأن الأتراك كانوا قد ألحقوا بنا العار من قبل ، حينما غرسوا سن راية مريم المباركة ، التى استولوا عليها ، فى الأرض . وهكذا قدَّر الله أن رؤية رءوس الأصدقاء التى لا حياة فيها والمحمولة على عصىّ مدببة ، ستمنع المدافعين عن أنطاكية من معايرتنا بعد ذلك [5] .

كان سفراء ملك مصر موجودين أثناء هذه الأحداث ، وعندما رأوا المعجزات التى صنعها الرب من خلال عبيده ، أثنوا على يسوع ، ابن العذراء مريم ، الذى داس من خلال أولئك الشحاذين التعساء تحت قدمه أقوى الطغاة [6] . وفضلا عن ذلك ، فقد وعدوا بصداقتهم ومعاملتهم الطيبة ، وذكروا الأعمال الطيبة التى يقوم بها ملكهم للمسيحيين المصريين وحجاجنا . وبالتالى فإن مبعوثينا المكلفين بالدخول فى صلح ودى رحلوا معهم .

وقد تزامنت هذه الأحداث مع قرار أمرائنا بتحصين منطقة على التل تشرف على مخيمات بوهيمند ، بحيث يمكن فيها إحباط أى هجمات معادية محتملة على مخيماتنا . وعند اكتمال هذا العمل ، تقوَّت تحصيناتنا حتى أصبحنا ، من كافة النواحى ، مدينة مغلقة هى نتاج العمل الجاد والتضاريس الطبيعية . وهكذا ، فإن هذه القلعة الجديدة الواقعة إلى الشرق منا ، بالإضافة إلى أسوار أنطاكية ، والمستنقع القريب الذى يحميها ، كانت تحرس معسكرنا ، وتحد من هجمات المحاصرين على المناطق القريبة من الأبواب . بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك نهر يتدفق إلى الغرب ، كما كان هناك سور قديم يتلوى أسفل الجبل إلى النهر . كما أن خطة تقوية موقع آخر على الجبل الصغير الواقع أعلى الجسر التركى ، لاقت قبولاً عاماً ولكن آلات الحصار التى صنعت فى المعسكر ثبت أنها غير ذات فائدة .

وفى الشهر الخامس من الحصار ، وبينما كانت سفننا التى تحمل المؤن راسية فى الميناء ، بدأ المحاصَرون يسدون الطريق إلى البحر ويقتلون أطقم التموين [7] . وفى أول الأمر ، كان الأتراك يهددوننا دائماً ، وكان السبب الأكبر فى ذلك هو عدم ميل قادتنا إلى الرد عليهم بأعمال ثأرية ، فجرّأهم ذلك . ولمواجهة هذه الأخطار ، قررنا فى النهاية أن نحصن المعسكر بالقرب من الجسر . ونظرا لتغيُّب جزء كبير من قواتنا فى الميناء ، فقد تم اختيار بوهيمند والكونت لتأمين عودة المتغيبين ، وأيضا لنقل المعاول والأدوات الأخرى اللازمة لبناء القلعة الجديدة . وعندما علم المحاصَرون بمهمة ريموند وبوهيمند ، بدأوا هجماتهم المعتادة . لتقدمت قواتنا بدورها بتهور ودون نظام ، فتبعثرت وانهزمت بشكل مشين .

وفى اليوم الرابع ، وعندما كان الكونت وبوهيمند عائدين مع جمع كبير من الميناء ، وهم يظنون أنهم فى أمان فى هذه المعمعة ، كان الأتراك يتجسسون عليهم . ولكن لماذا تطيل فى سرد هذه القصة ؟ لقد جرى قتال ، وهربت قواتنا وخسرنا حوالى ثلاثمائة رجل ، ولا أحد يعرف كم فقدنا من الغنائم والأسلحة . وبينما كانوا يقتلوننا كالمواشى فى الجبال والصخور ، تحركت المعونة القادمة من المعسكر لملاقاة الأتراك الذين توقفوا عن قتل الهاربين . يا إلهى ، يارب ، لماذا هذه المحن ؟ إن قواتنا داخل المعسكر وخارجه ممن كانوا يتمتعون بخدمات أعظم قائدين فى جيشك ، ريموند وبوهيمند ، تغلب عليهم الأعداء ، وانهزموا . هل تهرب إلى المعسكر أم يهرب حراس المعسكر إلينا ؟ « قم أيها الرب ساعدنا تمجيداً لاسمك » [٨] . ولو أن أخبار هزيمة الأمراء وصلت إلى المعسكر ، أو لو أننا علمنا بهزيمة كتائب الجيش لهربنا هروبا جماعياً . وفى اللحظة المناسبة ، ساعدنا الرب ، وبث الشجاعة فى قلوب الذين روّعهم من قبل ، فجعلهم يتقدمون إلى أول صفوف المعركة .

وعندما رأى ياغى سيان ، قائد أنطاكية [٩] ، أمتعتنا المسروقة وانتصاره ، فضلا عن اندفاع قلة من المسيحيين ، أرسل فرسانه ومشاته من المدينة . ولما كان واثقاً من نجاحهم ، فإنه أمر بإغلاق أبواب أنطاكية خلفهم ، فكأنه كان يطلب من جنوده أن ينتصروا فى القتال أو يهلكوا . وفى نفس الوقت فإن الصليبيين حسب الأوامر الصادرة إليهم ، تحركوا إلى الأمام تدريجيا ، إلا أن الأتراك راحوا يجرون هنا وهناك ويطلقون السهام ، ويهاجمون رجالنا بجرأة . ولم توقف هذه المناورات التركية رجالنا ، ورغم أنهم عانوا من تلك المناورات فإنهم انتظروا الوقت المناسب لشن هجوم كبير . وكانت الدموع المنهمرة والصلوات الصاعدة تجعل المرء يعتقد بأن رحمة الرب قريبة .

وعندما حان وقت المواجهة ركع فارس بروفنسالى نبيل جداً ، وهو إيزوارد أوف جاليجيز ، يصحبه مائة وخمسون من المشاة ، وطلب العون من الرب ، وحث رفاقه على التحرك صائحاً « اهجموا ياجنود المسيح ! » [١٠] وألقى بنفسه على الأتراك ، ومع اندفاع قواتنا إلى الهجوم ، تحطمت غطرسة العدو . كان الباب مغلقاً ، والجسر ضيقاً ، والنهر متسعاً [١١] . فماذا بعد ؟ لقد سُحق الأتراك المفزوعون سحقاً ، أو قُتلوا أو حطمتهم الأحجار فى النهر ، فلم يكن هناك مهرب . وكان يمكن أن يمر اليوم بسلام على أنطاكية ، لولا أن ياغى سيان فتح الباب على مصراعيه . ولقد سمعت بنفسى ، من كثيرين من المشاركين فى هذا اليوم ، أنهم أوقعوا عشرين شخصا أو أكثر من الأتراك فى النهر مع سور الجسر . وهناك برز جودفرى بشكل عظيم ، حيث سد الطريق علي الأتراك المتزاحمين ليدخلوا من الباب ، وأجبرهم على الإنقسام إلى صفين وهم يصعدون المرتفعات .

وبعد قداس دينى ، سار المنتصرون السعداء عائدين إلى المعسكر ، ومعهم غنائم عظمية وخيول كثيرة . آه أيها الأخوة المسيحيون يامن تبعتمونا للوفاء بنذركم ، كم كنا نود لو أنكم شهدتم هذا الحدث الجدير بالذكر . لقد أسرع فارس ، خوفا من الموت ، بإلقاء نفسه فى أعماق النهر فتخطفه زملاؤه الأتراك ، وألقوا به من على حصانه ، وغرق فى النهر مع الطغمة التى تعلقت به [١٢] . لقد كان فى رؤيتنا للجموع العائدة مكافأة على أهوال ذلك اللقاء . فراح البعض يجرون هنا وهناك بين الخيام على خيول عربية وهم يعرضون على أصدقائهم كنوزهم الجديدة ، وأخذ البعض الآخر ، وهم فى حُلّتين أو ثلاث من الحرير ، يمدحون الرب ، الذى أنعم عليهم بالنصر والعطايا ، بينما راح آخرون ، وقد تسربلوا بثلاثة دروع أو أربعة ، يعرضون تلك التذكارات لانتصارهم . وبينما كان يمكنهم إقناعنا بهذه العلامات وغيرها من الغنائم الأخرى بعظمة قدراتهم القتالية ، فإنه لم يكن فى وسعهم إعطاؤنا أى معلومات دقيقة عن عدد الموتى ، لأن إبادة الأتراك انتهت ليلاً وبالتالى فإن رؤوس القتلى من الأعداء لم تجلب إلى المعسكر .

ومع ذلك فقد اُكتُشِفَتْ فى اليوم التالى فى موقع كانت ستقام عليه تحصينات أمام جسرهم . اكتشفت جثث بعض أعدائنا فى خندق قريب من أحد الجبال استخدمه المسلمون كمقبرة . وأثارت رؤية غنائم الأتراك ، رجالنا الفقراء .

فانتهكوا حرمة القبور ، فنبشوها وأخرجوا جثث الأتراك ، ولم يعد هناك شك فى حجم الانتصار . فقد كان عدد الموتى نحو ألف وخمسائة ولن أذكر من دفنوا بالمدينة ، ولا من جرفتهم مياه النهر . ولكن الجثث ألقيت فى نهر العاصى حتى لاتعوق الروائح التى لا تطاق العمل فى بناء القلعة .

ولقد كان البحارة الذين انهزموا وأصيبوا فى هروب الكونت وبوهيمند ، مازالوا فى رعب ويتشككون فى النتيجة . ولكنهم بدأوا يمجدون الرب ، كما لو أن رؤية العدد الكبير من الموتى قد بثت فيهم القوة . فالله دائما يؤدب أبناءه ويشجعهم . وهكذا شاء الله أن الأتراك الذين قتلوا حاملى الطعام على طول الساحل وشقاق النهر وتركوهم للوحوش والجوارح ، صاروا بدورهم طعاماً فى ذلك المكان لنفس الوحوش ونفس الجوارح (١٣) .

وبعد تكريس الانتصار وما صحبه من احتفالات واكتمال العمل فى القلعة ، حوصرت أنطاكية من الشمال والجنوب . ثم ثار الجدل حول اختيار أمير ليكون حارساً على القلعة الجديدة ، حيث أن المسائل الخاصة بالجماعة تكون موضع استخفاف فى أغلب الأحوال . لأن الجميع يعتقدون أن آخرين سيقومون بذلك العمل (١٤) وبينما طلب بعض الأمراء من الراغبين فى المال أصوات نبلائهم للحصول على الوظيفة . انتزع الكونت - خلافا لرغبات حاشيته - زمام الأمور من ناحية لتبرئة ساحته من تهمة التراخى والبخل ، ومن ناحية أخرى ، ليبين طريق القوة والحكمة للخاملين (١٥) .

وخلال الصيف التالى ، كان ريموند قد أضعفه المرض الخطير والطويل ، وبلغ به العجز خلال الشتاء ، قيل أنه لايميل إلى القتال أو العطاء . ورغم أنه أدى خدمات عظيمة ، فقد اعتبر شخصاً لا أهمية له ، لأن الناس كانوا يعتقدون أنه قادر على بذل المزيد من الجهد . ولقد تحمل عداوة مرجعها الشك فى قوته المسيحية حتى كاد أن يفترق عن البروفنساليين . فى هذه الأثناء لم يعر الكونت هذه الإهانات أدنى إهتمام ، ثقة منه فى أن الأنطاكيين المحاصرين ، وقد انهزم

معظمهم ، سيلوذون بالفرار . ولكن ، على العكس من ذلك ، أحاط به أعداؤه ذات صباح عند بزوغ الفجر .

وقد تجلت معجزة كبرى تدل على حماية الرب ، عندما تمكن ستون من رجالنا من صد هجمة قام بها سبعة آلاف من المسلمين ، وأروع من ذلك سيلاً من الأمطار أغرق فى اليوم السابق الخندق المحيط بالقلعة وملأه بالماء . وهكذا ، فلم يكن هناك أى عقبة تعوق حركة الأعداء إلا قوة الرب . ومع ذلك ، فإننى أعتقد أن ذلك لايعنى أن نتجاهل الشجاعة العظيمة لكثير من الفرسان الذين كانوا يقومون بحراسة الجسر ، فانعزلوا ، ووجدوا إنفسهم عاجزين عن الهرب ، حيث المسافة بينهم وبين قلعتهم مرمى سهم . فاندفع هؤلاء الفرسان إلى الأمام فى مواجهة المسلمين فى تشكيل دائرى نحو ناصية بيت قريب ، حيث واجهوا بشجاعة وصمود ، الهجوم المحيط بهم فى شكل سيل منهمر من السهام وسحبا هائلة من الصخور .

فى الوقت نفسه جذبت جلبة القتال قواتنا ، وهكذا أنقذت القلعة من الذين هاجموها ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن الأتراك توقفوا عن اندفاعهم عندما رأوا اقتراب التعزيزات ، وتم القضاء على من كانوا فى المؤخرة ، رغم أنهم كانوا على مقربة من جسرهم . وتم إصلاح خندق القلعة وأسوارها مرة أخرى ، بحيث يمكن لحاملى الطعام أن يعودوا بأمان من الميناء . وبالتالى ، هدأ الغضب الذى كان قد حل بالكونت إلى حد أن نادوه باسم « أبو جيشنا والمدافع عنه » وفى أعقاب هذه الأحداث ذاع صيت ريموند لأنه واجه هجمات العدو وحيداً . وبعد سد طريق الجسر وباب الجسر ، قام الأتراك بطلعات من باب آخر يقع فى الجنوب وبالقرب من النهر . ومن هنا قادوا خيولهم إلى ركن ، كفل لهم مرعى رائعاً بين الجبال والنهر .

وبعد الاستطلاعات وتحديد الوقت ، دار بعض رجالنا حول المدينة بعبور جبل وعر ، بينما خاض آخرون فى النهر ، وقاد هذا الفريق المشترك ألفى حصان بعيدا عن المرعى . ولم يكن دخل فى هذا العدد البغال وإناثها التى استردت .

وجدير بالذكر أن الكثير من اناث البغال كانت قد تعرضت للسرقة فى وقت سابق فى الطريق من البحر إلى أنطاكية ، وذلك على يد الأتراك ، وبعد استرداد هذه الحيوانات الآن أعيدت إلى أصحابها بعد التعرف عليها .

بعد ذلك مباشرة حصَّن تانكرد ديراً يقع على الجانب الآخر من النهر ونظراً لأهميته فى سد طريق المدينة أعطى كونت تولوز لتانكرد مائة مارك فضى كما أسهم الأمراء الآخرون كل حسب قدرته . وهكذا فانه يسعدنى أن أذكر أننا رغم كوننا أقل عدداً فان نعمة الله جعلتنا أقوى من العدو كثيراً . وفى ذلك الوقت كان حملة الأخبار الذين يصلون إلينا يبلغون عن تعزيزات للعدو . والواقع أن هذه الشائعات لم تنتشر فقط من عند الأرمن واليونانيين ، بل أيضا من المقيمين فى أنطاكية . وألفت نظركم إلى أن الأتراك قد احتلوا أنطاكية قبل أربعة عشر عاماً ، ولعدم وجود خدم فإنهم استخدموا الأرمن واليونانيين لذلك الغرض، وزوّجوهم من نسائهم . ومع ذلك فقد كانوا يميلون إلى الفرار إلينا بالخيول والأسلحة بمجرد أن يتاح لهم الهرب . وهرب كثير من الصليبيين الجبناء مع التجار الأرمن عندما انتشرت هذه الشائعات ، ولكن من ناحية أخرى ، فان الفرسان الأقوياء من قلاع عديدة عادوا وجلبوا أسلحتهم وأصلحوها وعدلوا من شأنها ، وعندما اختفى الجبن المتخاذل بدرجة كافية أو عادت الجرأة ، التى كانت كفيلة فى كل وقت وزمن لمواجهة كل الأخطار مع الأخوة ومن أجلهم ، فإن واحداً من الأتراك المحاصَرين وثق فى أمرائنا إلى حد أنه كان سيسلمنا أنطاكية (١٦) .

* * * * *

هوامش الفصل الخامس

(١) المقصود بكوروزان Corozan هو إقليم الموصل من العراق . وكانت هذه المنطقة فى وقت من الأوقات هى الجزء الشمالى من إيران المعروف بخراسان . ونعتقد أن المؤرخ يستخدم هذه الكلمة ليصف بلاد الوثنيين كما جاء فى إنجيل متى .

انظر : Matthew, 11 : 21 .

ويشير ريمونداجيل إلى رضوان صاحب حلب .

– فى الحقيقة إلتبس الأمر هنا على ريمونداجيل ولم يفرق بين رضوان بن تتش صاحب حلب وبين كربوقا أتابك الموصل الذى سيأتى لنجدة أنطاكية بعد أن سقطت فى أيدى الفرنج . أما عن محاولة رضوان مساعدة أنطاكية فتأتى كرد الفعل الاسلامى الثانى بعد محاولة شقيقه دقاق من قبل . وقد خرج رضوان من حلب فى بداية فبراير ١٠٩٨م/ آخر صفر ٤٩٢ هـ بصحبة سقمان بن أرتق . وكالعادة جاء رد الفعل الاسلامى هذه المرة أيضا متأخرا وهزيلاً . فلو أن رضوان كان تناسى خلافاته مع باغى سيان وأخيه دقاق وهاجم الصليبيين أثناء أزمتهم الإقتصادية لحملهم على فك الحصار عن المدينة . انظر:

Duc de Castries, La Conquête de la Terre Sainte Par Les Croisés, Paris, 1973.

والعبارة التى بدأ بها المؤرخ حديثه فى هذه الفقرة (جاءت الآن أخبار) ، تؤكد بأن مؤرخنا لم يكن يعرف من تفاصيل هذه الأخبار سوى قدوم رضوان لنجدة أنطاكية . بينما كان مؤلف الجستا تابع بوهيمند يعلم كل التفاصيل . مما يدل على أن وظيفة ريمونداجيل لدى سيده كونت تولوز كانت دينية بحتة على الأقل حتى الآن . فقد كانت خطة رضوان أن يهاجم الفرنج فجأة بينما يهاجم باغى سيان المعسكر الصليبى من الخلف وبذلك يقع الفرنج بين شقى الرحى . إلا أن جواسيس الفرنج من السريان والأرمن قد أفشوا بهذه الخطة إلى بوهيمند الذى استعد تماماً . انظر :

Gesta Francorum, p. 35; William of Tyre, vol. 1, pp. 225 - 226.

(الترجمة العربية) .

(٢) جاء وصف ريموندأجيل للمعركة مثيرا للعواطف ولم يساعد على فهم الأحداث . وقد لاحظ أن السلاجقة لم يتمكنوا من القيام بحركة الالتفاف التى كانت تؤدى إلى هلاك الفرنج لو تمت . وفى هذه المعركة ، حصر الفرنج قوات رضوان فى المنطقة الضيقة بين بحيرة أنطاكية ونهر العاصى .

(٣) (الرب الحاضر أبدا « القوى القدير فى المعارك ») . هذه العبارة اقتبسها المؤرخ من العهد القديم . أنظر : Psalm 23 : 8.

(٤) يتحدث المؤرخ هنا عن استيلاء الفرنج على حارم بعد هزيمة رضوان . وحارم تقع إلى الشرق من أنطاكية .

– وتقع حارم على بعد ١٦ ميلا من أنطاكية كما جاء فى معجم البلدان . وكان استيلاء الفرنج عليها يعتبر تهديدا مباشرا منهم لحلب . وكانت هزيمة قوات رضوان وسقوط حارم فى أيدى الصليبيين فى ٩ فبراير ١٠٩٨م / ٤ ربيع أول ٤٩١ هـ . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان – ٤ جـ وفهرس – ليبزج ١٨٦٦- ١٨٧٠ م . جـ ٢ ، ص ١٨٤ . راجع أيضا Albert d;Aix, pp. 381 - 382. (الترجمة العربية) .

(٥) يمارس المؤرخ هنا فكرة العدالة الخيالية حين يجعل الرب يرغب فى ضرب أعناق الأتراك وتثبيت رؤوسهم فى أطراف العصى كعقاب لهم على قتلهم براية مريم المباركة .

(٦) المقصود بملك مصر هو الأفضل شاهنشاه ، وزير مصر . وكان الفاطميون يرغبون فى مشاركة اللاتين ضد أعدائهم الأتراك . وكان الامبراطور ألكسيس ميالا إلى الفواطم وحث الصليبيين على التعاون معهم . ولكن الخليفة اقترح على الصليبيين أن تقسم بلاد الشام السلجوقية بين اللاتين والفواطم . ورفض اللاتين هذا المشروع لأنهم كانوا يهدفون إلى أخذ فلسطين . انظر :

Hamilton Gibb, The Caliphate and the Arab States, A History of the Crusades, I, 1955, pp. 81 - 98.

– فى الحقيقة تعد هذه الرواية من أهم القضايا التى يتضمنها تاريخ الحملة الصليبية الأولى ، والتى لازالت تحتاج إلى قول فصل فيها . وقد عالجت هذه القضية فى رسالتى للماجستير إلا أن الظروف حالت دون طبعها حتى الآن ، لذا قمت بتلخيص هذه المعالجة فى رسالتى للدكتوراة . إلا أن فرصة ترجمة تاريخ ريموندأجيل – أحد شاهدى العيان لأحداث الحملة الصليبية الأولى بكل دقائقها – تقتضى مناقشة هذه القضية . خاصة وأن مانقوم به الآن فى سبيله إلى أن ينشر خلال فترة وجيزة . وطالما أننا نتعامل – ونحن نعالج تاريخ الحملة الصليبية الأولى – مع مختلف القوى التى شهدها الصراع الصليبى الإسلامى من بيزنطيين وأرمن وسلاجقة وعرب ولاتين . وطالما أننا نحاول الوصول إلى الحقيقة التاريخية كاملة ، دون محاباة طرف من هذه الأطراف على حساب =

طرف آخر . فيجب عرض جوانب هذه القضية – الأمر الذى فشلت فيه الترجمة الانجليزية ، ربما عن عمد – حتى تستبين الحقيقة كاملة . فكل المؤرخين الحديثين أخذوا بما ذهب إليه هاملتون جب وهم فى ذلك مثله ، سلموا بما جاء فى روايات المؤرخين اللاتين المعاصرين للحملة الصليبية ، دون تمحيص ودراسة لنصوص هؤلاء .

فقد أيد مؤلف الجستا رواية ريموندأجيل عن وجود رسل الأفضل الوزير الفاطمى فى المعسكر الصليبى . كما ذكر ذلك كل من ستيفن كونت بلوا (فى رسالته التى بعث بها إلى زوجته أديلا والتى كتبها خارج أسوار أنطاكية بتاريخ ٢٩ مارس ١٠٩٨ م) وأنسلم راهب ريمونت (فى رسالته إلى مناسيس أسقف ريمز والتى كتبها فى يوليو ١٠٩٨ م) . ولا يتعد ما أورده هؤلاء أن الأفضل قد طلب من الصليبيين عدم التعرض لأملاك دولته فى بلاد الشام ويعنى بذلك فلسطين . إلا أن رواية ابن الأثير قد أعطت مدى أوسع للمؤرخين الحديثين . فإذا كانت روايات اللاتين شهود العيان قد أمدتهم بنصف البرهان على ما ذكره هاملتون جب ، وهو وجود رسل الفواطم فى المعسكر الصليبى خارج أنطاكية ، فقد أمدتهم رواية ابن الأثير بتفاصيل إتفاقية عقدت بين الطرفين . وهى اقتسام بلاد الشام بينهما . ثم عادت المصادر اللاتينية لتؤكد التفاهم بين الطرفين حين ذكرت عودة السفارة الفاطمية إلى مصر بصحبة بعض الرسل من اللاتين ، ربما لإتمام الإتفاق فى القاهرة . وكل ذلك يدين الوزير الفاطمى الأفضل – وليس الخليفة المستعلى – وهو وزير تفويض فى يده الحل والعقد فى الدولة الفاطمية . وربما يدين الفواطم بصفة عامة على موقفهم المتخاذل تجاه الصالح الاسلامى العام . إلا أن ذلك لايعتبر نهاية المطاف فى هذه القضية . وبتحليل النصوص والأحداث يثبت غير ذلك . فلم ترد فى أى من المصادر اللاتينية – أو الاسلامية – أية نصوص محددة لاتفاقية الأفضل مع اللاتين.وإذا كانت هناك اتفاقية محددة البنود كما أورد ابن الأثير ، لكان بوهيمند هو الذى وقعها مع الفواطم ، وهو الذى تولى أمور الفرنج منذ معركة حارم وحتى سقوط أنطاكية فى أيديهم، ولكان أوردها مؤرخه الخاص – مؤلف الجستا– حتى يبرز دور سيده فى الأحداث . أما ابن الأثير فهو يكتب عن أحداث لم يشاهدها ، ولم يكن معاصرا لها (ولد ابن الأثير فى عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) . كما أن روايته تتسم بالاضطراب ، ونفهم منها أن اتصال الفواطم بالفرنج قد تم قبل خروج اللاتين من أوربا « وقيل أن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها

واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الإكسيس (أتسز) إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام وملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين والله أعلم » . كما يبدأ عبارته بما يثبت عدم تأكده منها « وقيل » ، وكذلك فإنه ينهيها بما يشبه ذلك « والله أعلم » . كما أنه لم يحدد صراحة إقتسام الشام بين الفرنج والفواطم بل « وملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين » والمسلمين هنا تعنى السلاجقة والأمراء العرب فى طرابلس وشيزر وحماة والفواطم أيضا . وإذا سلمنا بوجود رسل الأفضل لدى الفرنج ، الذى جعل وليم الصورى (الذى لم يكن شاهد عيان إلا للأحداث منذ عام ١١٦٧م/ ٥٦٣ هـ فقط) يعتقد فى فرح وسرور الفواطم لما ألم بالسلاجقة على أيدى الفرنج ، فإن التفسير الوحيد لوجود هؤلاء الرسل لدى الفرنج هو أن الأفضل - مثله فى ذلك مثل كل حكام الشرق الأدنى الاسلامى فى ذلك الوقت - قد خدع ، ولم يتفهم طبيعة الحركة الصليبية والهدف من وجود الصليبيين فى بلاد الشام . وربما اعتقد أن الحملة الأولى ما هى إلا مجرد حملة بيزنطية أخرى لصد المد السلجوقى . إلى جانب ذلك فإن الفرنج استغلوا عدم دراية الفواطم بطبيعة حملتهم على بلاد الشام ، وبعثوا إلى دقاق ملك دمشق يفهمونه أنه لامطامع لهم فى أملاكه ، وأن هدفهم هو استعادة أملاك بيزنطة بالشام ، حتى يثنوه عن نجدة أنطاكية . كما راسلوا رضوان ملك حلب لمهادنته ، ليتفرغوا لفتح أنطاكية . كما ذكر ابن الأثير نفسه « وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم لا نطلب سواها مكراً منهم وخديعة حتى لايساعدوا أنطاكية » . وما من شك أن مراسلات الفرنج إلى أمراء وقادة المسلمين تعد عملاً سياسيا ناجحاً ساعدهم على ستر مقاصدهم وأهدافهم الحقيقية ، الأمر الذى أدى إلى خديعة بعض القوى فى المنطقة ، حتى استولوا على أنطاكية ، ولما احتفظوا بها لأنفسهم ، اتضحت الصورة للأفضل ، الذى سارع بالاستيلاء على بيت المقدس من الأراتقة نواب تتش قبله ، كما أن موقف الأفضل من الحملة الأولى وتصديه لها فى عسقلان فيما بعد ، ثم حملاته ضد مملكة بيت المقدس المتوالية ، وتصادمه معهم فى حملات الرملة الثلاث توضح عدم تراخيه فى التصدى للوجود الصليبى قدر استطاعته. وتوضح أن الانشقاق فى الصف الاسلامى وعدم تضافر القوى الاسلامية في المنطقة هو السبب الرئيسى فى النجاحات التى حققها صليبيو الحملة الأولى . ومن كل ما سبق =

= لانستطيع الأخذ بما يذهب اليه كثير من المؤرخين الحديثين باطمئنان تام . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١٣ - ١١٤ . راجع أيضا :

Gesta Francorum, p. 37., Epistolae, ed. Hagenmeyer, pp. 149 - 152, 156 - 160; William of Tyre, History of Deeds, vol. 1, pp. 222 - 224. C.F. also, Runciman, op. cit., vol. 1, p. 229.

راجع أيضا : سعيد عاشور: شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد ١٦ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٩ وما بعدها ، حسين عطية : إمارة أنطاكية ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(الترجمة العربية) .

(٧) تقع القلعة التى اقترح بناؤها فى مواجهة باب الجسر . والأسطول الذى يشير إليه المؤرخ هو الذى حضر على متنه بعض الحجـاج (الصليبيين) الانجليز والايطاليين ، ولم يتفق المؤرخـون الحديثون حول مشكلة حضور قائد الأسطول المدعو إدجار أثلنج Edgar Atheling .

(٨) « قم أيها الرب ، ساعدنا نجينا لإسمك » ، تستخدم هذه العبارة عادة للتأثير . انظر : Psaim, 34 : 2.

لم تكن رواية ريمونداجيل عن نصب الكمين لقوات كونت تولوز وبوهيمند مرضية . وقد أحجم المؤرخ عن القيام بوصفها بينما يستخدمها كوسيلة ينقل بها إلينا العلوم المكتسبة التى درسها هو . وقد كانت مهمة كونت تولوز وبوهيمند قد وقعت فى ٥ مارس ١٠٩٨م .

انظـــر : Hagenmeyer, Chr., 242.

ومن المحتمل أن الكمين قد نصب للفرنج فى ٦ مارس . انظر : Ibid, 243.

(٩) كان باغى سيان السلجوقى حاكما لانطاكيـة (١٠٨٧ - ١٠٩٨ م) . ولم يكن فى استطاعة القادة الأتراك توحيد قواتهم . ولم تفلح جهود رضوان ابن تتش المعوقة فى فك الحصار الصليبى حول أنطاكية .

(١٠) كلمة " Eia " كلمة عامة فى الشعر . وقد ترجمناها ترجمة غير حرفيـة لأننا نعتقد أن كلمة « إهجموا » " Charge " تعبر عن معنى كلمة Eia فى هذه الفقرة .

(١١) من المحتمل أن المؤرخ قام باقتباس التعليقات على أخطار « الطريق الواسع والصعوبات التى تكتنف الطريق الضيق » من الإنجيل متى أو الإنجيل لوقا . انظر :

Matthew, 7 : 13; Luke, 13 : 24.

(١٢) يستعد ريموند اجيل هنا لغرق الأتراك . والمياه العميقة هى رموز عامة للبؤس . اقتبسها المؤرخ من مزامير داود (العهد القديم) .

انظر : Psalm, 106 : 24.

(١٣) لدينا هنا مثال آخر للعدالة الخيالية . وفى هذه المرة أصبح قتلى السلاجقة طعاما للوحوش والجوارح التى تكونت وليمتها السابقة من جثث الفرنج الذين قتلهم السلاجقة . وهنا مقتبس من سفر إرميا (العهد القديم) .

انظر : Jeremiah, 16 : 4.

(١٤) أطلق الصليبيون على الحصن الجديد اسم قلعة المنبر La Mahomerie . وقد قام كل من جاستون دى بين Gaston de Béarn وبطرس أوف كاستيلون Peter of Castillon وريموند إوف تورين Raymond of Turenne ووليام أوف مونتبليه William of Montpellier وجوفييه أوف لاستورز Gouffier of Lastours ووليام أوف سابران William of Sabran بمساعدة كونت تولوز فى حماية الحصن . وجلبت الأحجار من مقبرة المسلمين لبناء الحصن ، وتم العمل فيه حوالى ٢٠ مارس ١٠٩٨ م .

- واسم قلعة المنبر Mahomerie هنا مشتق من كلمة فرنسية قديمة بمعنى مسجد Mosque . ولأن ريموند كونت تولوز هو صاحب فكرة بناء هذه القلعة ، وهو الذى تولى أمر الدفاع عنها فقد صارت تحمل اسم قلعة ريموند .

أنظـــــر : Runciman, op. cit., vol. 1, p. 228.

(الترجمة العربية) .

(١٥) استغل ريموند اجيل سيده كونت تولوز ليستعرض معلوماته عن شرور الكسل والشُّح ، والعودة إلى طريق القوة والحكمة . وعن تبعات الشُّح . انظر :

St. Ambrose, De officiis. in MPL, 16, Cols. 137 - 138.

(١٦) شيّد الصليبيون قلعة فى المكان الذى كان به دير القديس جورج . وقرر المجلس الذى عقده الفرنج فى ٥ أبريل ١٠٩٨م بناء هذه القلعة واتفقوا على أن يدفعوا لتنكريد = أربعمائة مارك نظير حمايته القلعة . وقد ساهم كونت تولوز بربع هذا المبلغ . وإشارة المؤلف إلى التركى الذى وثق فى أمرائنا لها أشكال متعددة . فيتفق المخطوط GDEFG مع النسخة A ولا يستخدم تعبير « خلال بوهيمند » " Per Boamundum " . ويستخدم المخطوط B هذا التعبير . حيث ورد فى هذا المخطوط كما يلى :

" quidem de Turcatis qui erat, per Boimundum in Civitate, principibus mandavit nostris ".

« حوّل أحد أتراك المدينة ، بواسطة بوهيمند ، وكان سيعهد إلى أمرائنا بالمدينة » .

وهذه الجملة ليست واضحة وتدفعنا إلى الاعتقاد بأنه قد تم إقحام بعض الألفاظ فى النص .

الفصل السادس

الإستيلاء على أنطاكيـــة

في أعقاب إجتماع مشترك أرسل الأمراء بوهيمند وجودفرى وأيضا كونت الفلاندر للتحقق من هذا العرض . وعند وصولهم إلى أحد تلال أنطاكية في منتصف الليل أتى رسول من التركي الخائن وأمرهم « لا تتحركوا حتى يمر أمامكم مصباح »[1] .

وكان من المعتاد أن يمر ثلاثة رجال أو أربعة حاملين المصابيح بحذاء الأسوار ، لايقاظ الحراس وتنبيههم . وعندما مرت المصابيح ، وضع رجالنا الرابضون في ظلال الأسوار سلماً وبدأوا يتسلقون . واعتلى السور فرنجي يدعى فولجير . وهو بلا شك شقيق بوديللوس آرق شارتر ، بلا خوف وتبعه عن كثب كونت الفلاندر الذي أمر بوهيمند والدوق بأن يتبعاه[2] . وعلى أية حال ، انقطع السلم في تعجلهم الصعود ، إلا أن الذين كانوا قد وصلوا إلى أعلى السور فعلاً نزلوا داخل المدينة وفتحوا أحد الأبواب بالقوة ، ودخل الصليبيون بهذه الطريقة ، وقتلوا كل من لاقوه ، وعند الفجر صاحوا صيحات مرعبة جدا حتى أن المدينة كلها اضطربت وبكى الأطفال والنساء .

وراح بعض المسيحيين في قلعة ريموند القريبة ، وقد أيقظتهم الجلبة يرددون « لقد جاءت تعزيزات إلى العدو » .

ورد عليهم آخرون « ان صرخات الألم ليست كأصوات الفرح » .

ومع بزوغ الفجر رفرفت أعلامنا فوق التل الجنوبي لأنطاكية . وفزع الأنطاكيون لمرأى قواتنا على التل الذي يشرف على المدينة ، فاندفع بعضهم من الأبواب وقفز بعضهم من الأسوار . فجعل الرب الفوضى تدب بينهم حتى أن واحداً منهم لم يقف ويقاتل . وبعد شهور كثيرة من الحصار المضنى تكشف أمامنا هذا المشهد السعيد وهو مشهد لم يستطع فيه المدافعون عن أنطاكية من فترة أن يهربوا من المدينة ولا أن يتجنبوا الموت إذا ما تجرأوا على الفرار[3] .

ووقع لنا هناك حادث سعيد رائع ، عندما لقى بعض الأتراك في محاولتهم للهرب دون أن يراهم أحد من خلال الشقوق التى تتخلل التلال من الشمال - مجموعة من الصليبين . واضطر الأتراك الذين حبطت أعمالهم إلى التقهقر فهمزوا خيولهم بسرعة كبيرة حتى أنهم سقطوا جميعا من فوق الهضاب الصخرية . لقد كان سقوط الأتراك القاتل مشهدا سعدنا له حقاً ولكننا حزنا لضياع أكثر من ثلاثمائة حصان لاقت حتفها هناك [٤] .

ولن نعلق على كمية الغنائم ، ولكن يمكنكم أن تصدقوا أى شئ يمكن أن يتبادر إلي ذهنكم وتحسبوا أكثر منه . فلا يمكننا تقدير عدد القتلى من الأتراك والمسلمين ، ومن السادية أن نحكى القصة وطرق الموت المختلفة . وفى الوقت نفسه فان المدافعين كانوا يراقبون من موقعهم فوق تل أوسط مقتل زملائهم ، وتوقف المعركة ، وبالتالى فإنهم اختاروا أن يدافعوا عن قلعتهم . ولكن باغى سيان ، أثناء هروبه من أحد الأبواب ، وقع فى يد الفلاحين الأرمن ، الذين قطعوا رأسه وقدموه لنا بعد ذلك هدية . وأعتقد أن باغى سيان الذى قطع رءوس الكثيرين من الأرمن ، قد قُدّر له بإرادة الله التى لاتوصف أن تقطع رأسه على أيدى فلاحيهم .

وقد سقطت مدينة أنطاكية فى اليوم الثالث من يونيه ، ولكنها كانت هدفا للهجوم منذ حوالى الثانى والعشرين من أكتوبر من العام السابق . وأحجمت قواتنا عن مهاجمة القلعة ، بينما راح رجالنا يفحصون الغنائم ويضعون سجلاً وأمعنوا فى نسيان الله ، مانح كل هذه النعم ، فأفرطوا فى الأكل بنهم شديد وبذخ ، واهتموا بالراقصات .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، أى فى اليوم الخامس من يونيه ذاته ، حاصر المسلمون الصليبيين . وهكذا فإن الصليبيين الذين كانوا قد حاصروا أنطاكية التركية برحمة من الرب ، وجدوا أنفسهم الآن وقد أحاط بهم الأتراك حسب مشيئته . ومما زاد من خوفنا أن الحصن الأكبر ، الذى كان بكل المقاييس قلعة

حقيقية ، كان في حوزتهم . ولذلك ، فقد وحّدنا الخوف وحاصرنا القلعة . ولكن كربوغا ، سيد الأتراك ، بعد وصوله بوقت قصير ، واعتقادا منه أن المعركة ستكون خارج المدينة ، عسكر على بعد نحو ميلين من أنطاكية ، وتقدم فى صفوف منتظمة نحو جسر المدينة [٥] . وفى اليوم الأول ، دعّم رجالنا الدفاع عن قلعة الكونت ، خشية أن يستولى من هم فى القلعة على أنطاكية لو خرج المسيحيون للقتال . ومن ناحية أخرى فقد شعروا أنهم ، إذا تخلوا عن قلعة الجسر ، فإن العدو سيستولى عليها ويسد طريق الخروج للقتال ، لأنه كان يسيطر على مخارج المدينة .

وكان روجر أوف بارنيفيل ، وهو فارس شهير ومحبوب ، يتابع تقهقر الأتراك فى أحد الأيام ، عندما وقع فى أيديهم وقطعوا رأسه [٦] . فاستولى الحزن آنئذ والخوف على رجالنا ، ودفع بالكثيرين منهم إلى اليأس من القتال [٧] . ثم نزلت نكستان بأعدائنا في المعارك التى جرت بعد ذلك ، ولكنهم فى اليوم الثالث هاجموا القلعة بقوة حتى بدا أن قدرة الرب فقط هى التى كانت تحميها وتوقف الأعداء ، لأن الأتراك - ولسبب مجهول - أصيبوا بالفزع الشديد أثناء عبورهم الخندق المائى المحيط بالقلعة وهدمهم للسور ، فأسرعوا بالفرار . وبعد أن انسحبوا لمسافة قصيرة ، رأوا أنه ليس هناك سبب للهروب غير خوفهم ، ولذلك عاودوا الهجوم . وشدّدوا هجومهم بعنف كما لو كانوا يريدون أن يمحوا تراجعهم المشين ، ولكن الرب بث الخوف فى قلوبهم مرة أخرى ، وبالتالى عاد رجال كربوغا إلى معسكرهم فى اليوم نفسه .

ولقد أحرق الصليبيون القلعة ، وانسحبوا إلى داخل أنطاكية بعد أن عاد أعداؤهم فى اليوم التالى ومعهم معدات ثقيلة . وزاد قلق الفرنجة بينما ارتفعت ثقة الأعداء فى أنفسهم إلى عنان السماء ، لأنه لم يكن لدينا أمل خارج المدينة ، بينما كان أعداؤنا يحتفظون بالقلعة الرئيسية داخل أنطاكية . ودفعت هذه العوامل المشجعة الأتراك إلى التقدم نحونا عن طريق القلعة ، ولكن المسيحيين ثقة منهم فى مواقعهم الاستراتيجية وأراضيهم المرتفعة زحفوا على الأعداء .

وهزموهم في أول هجوم [٨] . لكنهم غفلوا عن هجوم مضاد وقع عليهم ، وانشغلوا بغنائم المعركة ، فنزلت بهم هزيمة مشينة . وعند أحد مداخل أنطاكية ، لقى أكثر من مائة من المسيحيين وعدد كبير من الخيول مصرعهم . ونتيجة لذلك ، أصبح الأتراك يحلمون عند دخولهم الحصن بمهاجمة المدينة السفلى .

كان هناك واد صغير يتميز بسهل وعين ماء ، ويقع بين جبلنا وقلعتهم . ولهذا بذل الأتراك كل جهودهم لاكتساحنا وطردنا من طريقهم ، لأن النزول إلى أنطاكية لم يكن ممكناً إلا عن طريق جبلنا . واستمر القتال عنيفاً شرساً من الصباح حتى المساء بشكل لم يسمع عنه أحد من قبل . وفي غمار وابل السهام والصخور التي انهمرت ، وقعقعة السلاح التي لم تتوقف ، ومقتل أعداد كبيرة من المحاربين ، غطّت قواتنا في نوم عميق ، وهذا يشكل تأكيد تجربة رهيبة غير عادية بالنسبة لنا . وإذا أردت أن تعرف ، فقد انتهى القتال ليلاً [٩] .

وعند صلاة الليل ، وهو وقت الثقة في رحمة الرب ، فقد الكثيرون الأمل ، وربطوا أنفسهم بحبال ودلوها من أعالي السور ، وفي المدينة نشر الجنود العائدون من القتال ، إشاعة بأن قتلا جماعيا للمدافعين كان ينتظرهم . ومما زاد الرعب أنهم لاذوا بالفرار هم أيضاً بالرغم من حث البعض للمترددين على الصمود . ومع ذلك ، كما قلنا ، فإن رحمة الرب كانت حاضرة ، حتى والمسيحيون في محنة ويأس ، فكان عقاب الرب للداعين من أبنائه مواساة لهم في المصائب [١٠] .

* * * * *

هوامش الفصل السادس

(١) من الواضح أن فيروز ، الخائن ، كان في خدمة ياغي سيان . ويطلق عليه بيروس Pirus وبيرهوس Pyrrhus وفيروس Firous كما أن له عدة أسماء أخرى . ويسميه ريمونداجيل « التركي » ويذكر مؤرخون آخرون أنه أرميني .

انظر : Runciman, op. cit., 1, p. 231, n. 3.

ويبدو أنه ابتلى بسوء الحظ في صفقة تجارية وبزوجة غير مخلصة .

انظر : Hagenmeyer, Chr., 64.

- ترجح رواية ريمونداجيل أن فيروز قد اتفق على تسليم أنطاكية مع قادة الفرنج بصفة عامة ، دون توضيح دور بوهيمند في استدراج فيروز ودون ذكر تفاصيل وتطور العلاقة بين بوهيمند وفيروز . وربما قصد ريمونداجيل أن يسجل الرواية بمثل هذا الإيجاز حتى يبخس بوهيمند حقه في توفير الفرصة لدخول الفرنج أنطاكية بسهولة . إلا أنه من الواضح أن المؤرخ - مثله في ذلك مثل بقية قادة الفرنج - لم يكن يعلم شيئاً عن العلاقة بين بوهيمند وفيروز . كما لم يعلم أحد غير بوهيمند بنوايا فيروز . فلم يخبر بوهيمند قادة الفرنج عن وسيلة لدخول أنطاكية إلا عشية الهجوم عليها (٣ يونيو ١٠٩٨م) . ومن الطبيعي أن تأخذ برواية مؤلف الجستا الذي أبرز دور بوهيمند في هذا الخصوص .

انظر : Gesta Francorum, p. 44.

(الترجمة العربية) .

(٢) فولجير Fulger وبوديللوس Budellus فارسين مغمورين من مقاطعة شارتر .

(٣) يكشف وصف ريمونداجيل لسقوط أنطاكية عن حساسية معينة لأهوال الهجوم الصليبي على المدينة وورطة سكان أنطاكية . ويستخدم كلمات من المزامير ليضخم من طبيعة الحدث .

(٤) تكشف سعادة المؤرخ لمصرع الأتراك وحزنه على فقدان الجياد ، عن مشاعر الرافد الجديد ، الذي جُبل على كره الأتراك .

(٥) كربوغا هو أتابك الموصل ، وقد أخطأ حين هاجم الرها وهو في طريقه إلي أنطاكية وبذلك أعطى الفرنج الفرصة للاستيلاء على أنطاكية .

=

= - استغرق حصار كربوغا للرها الثلاثة أسابيع الأولى من شهر مايو ١٠٩٨م/ جمادى الآخرة ٤٩١ هـ . وبدأ حصاره للصليبيين فى ٥ يونيو / ٣ رجب من نفس العام . وكان خطأ كربوغا دليلا جديدا على أن ردود الفعل الاسلامية ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام لم تأت فى الوقت المناسب . وللمزيد عن حصار كربوغا لأنطاكية .

انظـــر : Fulcher of Chartres, p. 101.

(الترجمة العربية) .

(٦) روجـــر أوف بارنفيل Roger of Barneville - sur - mer . يذكره مؤرخ الجستا فى حديثه عن حصار نيقية .

(٧) « الحزن والخوف » تعبيرات توجد بشكل متكرر فى المزامير .

انظـــر : Psalms, 7 : 15; 12 : 2, 54 : 6.

(٨) كان أحمد بن مروان يحتل القلعة ، وهو مقـــدم قوات كربوغا وبديل شمس الدولة ابن باغى سيان .

- فور سقوط أنطاكية فى أيدى المسلمين بعث شمس الدولة بن باغى سيان إلى كربوغا يطلب مساعدته فأجبره كربوغا على تسليم القلعة إلى أحمد بن مروان وهو أحد أتباعه المخلصين . وبقى الأخير يدافع عن القلعة حتى سلمها إلى بوهيمند بعد هزيمة كربوغا فى ٢٨ يونيـــة ١٠٩٨ م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ ، ورحيله إلى الموصـــل . انظـــر : ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

(الترجمة العربية) .

(٩) لا يعرف ريموناجيل من تفاصيل هذا الصـــدام إلا القليل ، ونجده يلجأ إلى كناياته المعتادة . وقد ترجمنا هذه الفقرة لنعنى أن الصليبيين قد غلبهم النعاس . والنعاس غير الطبيعى لم يكن أمراً غير عادى فى العلوم الكنسية . وربما قدم ريموناجيل ذلك التعبير ليفسر لنا نوم الروح ، لأنه يستشهد بالرؤية التى لابد أن يُرد أصحاب الخطايا إلى طريق الفضيلة . انظر :

Halldor Hermannson, The Problem of Wineland, Islandica, 25, 1936, p. 40.

وعن « نوم الرب » " Sopor Domini " انظر : Samuel. 26 : 12.

- يبدو أن الكتب الدينية كانت المجال الرئيسى لقراءات ريموناجيل ، ومنها استـ[...] صياغاته وعناصر رواياته . وفيما يخص النوم غير الطبيعى فهو صورة لنوم الروح أكثـ[...] منه يخدر الجسد أو استرخائه . وهذا النوم عرفه كثير من المقاتلين ، فالتعود عبر القصف المدفعى (حديثا) يسمح للرجال المتعبين بالنوم تحت النيران . وهذا التعبير يدل على أن الناشران تتبعا بجهد كبير طبيعة ثقافة ريموناجيل ومعارفه الفكرية ومـ[...] استفادته منها . انظر :

[...]ms Richard, Raymod d'Aguilers, pp. 208 - 209.

(الترجمة العربية) .

(١٠) يشير ريموناجيل هنا إلى الراقصين على الحبال ، الذين تخلوا عن حصـــار أنطاكية وانضموا إلى ستيفن كونت بلوا عند الإسكندرونة ثم اسرعوا بإخبار الامبراطور ألكسيس كومنين عن محنة الصليبيين .

- من المعروف أن كونت بلوا قد ترك حصار أنطاكية قبل سقوطها فى أيدى اللاتين بيوم واحد (٢ يونية ١٠٩٨م) وتوجه إلى طرسوس . وفى ليلة ١٠ يونية ، أى فور بـ[...] كربوغا بمحاصرة الصليبيين داخل أنطاكية ، هرب عدد من الفرنج بقيادة وليم وجـ[...] كونتى جرانت مسنيل ولامبرت كونت كليرمونت ، ووصلوا إلى ميناء السويدية حيث توجد بعض السفن الجنوية والبولونية ، فبادرت السفن بالإقلاع حين أعلن الفارون عن محنة الفرنج فى أنطاكية . ورحلت السفن وبها الفارون إلى طرسوس حيث ستيفن وتـ[...] توجه الجميع إلى اسكى شهر حيث قابلوا الإمبراطور البيزنطى ، وأخبروه بأن الأتراك قد قضوا على القوات الصليبية . وخاطبه كونت بلوا قائلا « فكر فى نجاتك ونجاة جيشك » واقتنع الامبراطور - الذى كان فى طريقه إلى أنطاكية لساعدة الفرنج - كما ذكر المؤرخ اللاتينى أوردريك فيتاليس - بكلام ستيفن ورأى أن يراعى مصالح دولته دون المخاطرة بالتوغل فى بلاد الشام . وبذلك ضاعت آخر فرصة للفرنج لنيل مساعدة البيزنطيين ، كما ضاعت آخر فرصة لقيام التعاون بين الطرفين . وربما ضاعت بذلك أيضا أهداف البابا أوربان الثانى فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . ومن شهادة فيتاليس يتضح أن اتهام المؤرخين اللاتين أمثال مؤلف الجستا - تابع بوهيمند عبر =

= ألكسيس الأول - وغيره من المؤرخين ، بالخيانة أمرا فيه تجن على الامبراطور . فالمؤرخ فيتاليس لاتيني ونورماندي في نفس الوقت وهو بذلك يؤيد كلام آن كومنين التي التمست العذر لوالدها في عدم وصوله إلى أنطاكية ، وإن كان ذلك قد مهد الطريق أمام بوهيمند ليتخلى عن الارتباط ببنود اتفاقية القسطنطينية مايو ١٠٩٧ م ، وينكر حق بيزنطة في أنطاكية ، ويستأثر بها لنفسه . انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
(الترجمة العربية) .

الفصل السابع

حصار كربوغا لأنطاكية والعثور على الحربة المقدسة

هنا يبدأ العثور على الحربة المقدسة :

في أعقاب الإستيلاء على أنطاكية ، أظهر الرب قدرته وإحسانه ، بأن اختار فلاحاً بروفنسالياً يعزينا ويسلم الرسالة التالية لريموند وأدهيمار [٩] :

« لقد أنذرني أندرو ، مبعوث الرب وسيدنا يسوع المسيح ، منذ زمن في أربع مناسبات وأمرني أن أبلغكم ، وأعيد إليكم ، عند سقوط أنطاكية ، الحربة التي اخترقت جنب مخلصنا . بل إنني اليوم عندما انطلقت مع بعض الآخرين للقتال خارج أسوار المدينة ، وقعت في يد اثنين من الفرسان ، وكدتُ أُسحق في أثناء انسحابي . فدُفعت مغتماً فاتر الهمة على صخرة ، وعندئذ ظهر لي القديس أندرو ورفيق له ، وأنا مذنب تعس ما أزال أترنح من العذاب والمخاوف ، وحذراني من مزيد من الهموم إذا لم أُسرع بتسليمكم الحربة » .

وعندما طلب الكونت والأسقف تفاصيل عن طبيعة المكتشفات وتعليمات القديس أندرو رد البروفنسالي قائلا :

« أثناء الحصار الفرنجي لأنطاكية في زمن الهزة الأرضية الأولى ، استبد بي الرعب ولم أعد أنطق إلا بقولي « أنقذني يارب » . كنت وحدي في الفراش في كوخي ، دون أصدقاء يبثون الطمأنينة في قلبي . كان الظلام مخيماً ، وكما قلت ، فإن الصدمات استمرت لوقت طويل مما زاد من قلقي . وفي هذه اللحظة ظهر لي رجلان في ملابس زاهية . كان لأكبرهما شعر أحمر يتخلله البياض ، ولحية كثة بيضاء عريضة ، وعينان سوداوان ، ومظهر لطيف ، وكان متوسط القامة . وكان رفيقه أطول منه و « أجمل هيئة من أبناء البشر » . وسألني الرجل الأكبر : « ماذا تفعل ؟ » ، كنت وحيداً ، وشعرت بالرعب . فقلت بصوت مرتعش :

« من أنت ؟ » . فقال : « قم ، لا تخف واستمع إلىّ . إننى أندرو الرسول . فدبّر لقاءً مع أسقف لى بويه وكونت سان جيل وبطرس ريموند من هوت بول Hautpoul [٢] . واسألهم . لماذا لايعظ أدهيمار بالكلمة ، ويحث الناس ويباركهم بالصليب الذى يحمله كل يوم ؟ إن هذا سيكون بَرَكة كبيرة لهم بكل تأكيد » .

ثم أمرنى قائلا : « إتبعنى وسأكشف لك عن مكان حربة أبينا التى يجب أن تعطيها للكونت لأن الرب قد جعلها له عند مولده » .

« فتركت فراشى وأنا فى رداء نومى فقط ، وتبعته إلى داخل أنطاكية حيث كنيسة الرسول بطرس المبارك عن طريق الباب الشمالى ، والذى كان المسلمون قد بنوا أمامه مسجداً . وكان هناك مصباحان فى الكنيسة يضيئان المدخل كما لو كنا فى منتصف النهار . ثم إن أندرو أمرنى قائلا : « إبق هنا » ، ثم أمرنى بأن أقف بجوار العمود الذى كان قريبا من الدرجات الجنوبية المؤدية إلى الهيكل بينما بقى رفيقه على مسافة من درجات الهيكل ، مد القديس أندرو يده تحت الأرض ، وسحب الحربة ووضعها بين يدى » .

« ثم وجه القديس أندرو حديثه إلىّ قائلاً : « انظر إلى الحربة التى اخترقت جنب المسيح ، والذى كان السبب فى خلاص العالم » .

« وبينما جرت دموع الفرح على وجنتىّ ، قبضت على الحربة وخاطبت القديس أندرو وأنا مجهش بالبكاء ، « إذا كنت تريد ذلك فإنى سآخذها من الكنيسة وأضعها بين يدى الكونت » .

« وأجاب القديس أندرو : « انتظر إلى مابعد الاستيلاء على أنطاكية ، ثم عد ومعك إثنا عشر رجلا ، وابحث عن الحربة فى نفس المكان الذى كشفت عنها فيه وسأخفيها الآن » . ودفنها فى الموضع ذاته . وبعد هذه التجليات ، قادنى من فوق أسوار المدينة إلى كوخى ثم اختفى بعد ذلك » .

« وباختصار ، فإننى لما تأملت فى حالتى الرثة وعظمتك لم أجرؤ على المجئ إليك . وبعد ذلك ، وبعد أن رحلت إلى قلعة قريبة من الرها بحثا عن الطعام ، وفى اليوم الأول من الصوم الكبير عند صياح الديكة ، أتانى القديس أندرو فى نفس الهيئة ومع رفيقه السابق ، وسألنى وقد غمر البيت نور عظيم : « هل أنت نائم ؟ » [٣] .

وأيقظتنى كلماته فأجبت « لا ياسيدى ومولاى أنا مستيقظ » .

« وسألنى « هل أبلغت رسالتى الأخيرة ؟ » فأجبت : « سيدى ، ألم أتوسل إليك أن ترسل شخصاً أكثر جدارة إليهم ، لأننى خشيت من حالتى الرثة فلم أجرؤ على المثول بين أيديهم ؟ » .

فسألنى مرة أخرى : « ألا تعرف السبب الذى من أجله قادك الرب إلى هذا المكان ، وحبه الكبير لك ، واهتمامه الخاص باختيارك ؟ لقد طلبك هنا لكى يبرز احتقاره واحتقار من يختارهم . إن حبه لك كبير جدا لدرجة أن القديسين يرقدون الآن فى سلام وهم مدركون لنعمة الرغبة الإلهية ، ويودون لو عادوا لحماً ودماً ، وقاتلوا إلى جانبك . لقد اختارك الرب من بين كل الناس كما تجمع حبوب القمح من بين الشوفان ، لأنك تفوق فوق كل من جاءوا من قبل ، أو من سيأتون بعدك فى جدارتك وبركتك كما يفوق ثمن الذهب ثمن الفضة » .

« وبعد رحيلهم وقعت فريسة لمرض هدد بصرى حتى أننى بدأت أتخلص من مواردى المحدودة عندما استنتجت فجأة أن هذه الأمراض داهمتنى لعصيانى أوامر الرسول . وهكذا عادت الطمأنينة إلىّ فعدت إلى الحصار . وفكرت مرة أخرى فى حالتى الرثة فلم أقل شيئا لأننى خشيت إذا أنا أبلغتكم أن تصيحوا بأنى رجل يتضور جوعاً جئتكم بهذه الحكاية من أجل الحصول على الطعام . وبعد فترة من الوقت كنت أستريح مع سيدى وليام بطرس فى خيمة فى ميناء سان سيمون عشية أحد السعف عندما تجلى لى أندرو المبارك فى نفس هيئته السابقة ، ومع رفيقه السابق ، وقال لى : « لماذا لم تسلم رسالتى إلى ريموند وأدهيمار ؟ » [٤] .

فأجبت قائلاً : « يا سيدى ألم أتوسل إليك أن ترسل بديلاً أذكى منى ، يعاون به ، كما أنه يجب أن تعرف أن الاتراك يقتلون أى شخص يسلك الطريق إلى أنطاكية » .

« وهنا رد القديس أندرو : « لا تخف . فلن يؤذيك الأتراك ، ولكن أبلغ الكونت ألا يغطس فى نهر الأردن عند وصوله ، بل عليه أن يجدّف عبر النهر أولاً فى قارب ، وعندما يصل إلى الجانب الآخر ، يرش على نفسه الماء ، وهو مرتد قميصاً وسراويل من الكتان . وبعد ذلك يحفظ ملابسه المجففة مع الحربة المقدسة » . ويمكن لسيدى وليام بطرس أن يشهد بصحة هذا الحديث رغم أنه لم ير القديس أندرو » [٥] .

« فاطمأننت وعدت إلى المحاصِرين لأنطاكية ،ولكنى لم أستطع أن أجمعكم كما رغبت ، وهكذا ذهبت إلى ميناء المصيصة ، وهناك ، وبينما أنا انتظر وقد نفذ صبرى لأبحر طلبا للمؤن من قبرص ، واجهنى القديس أندرو بتهديدات خطيرة إذا لم أعد إلى أنطاكية وأعيد عليك تعليماته [٦] . وعندئذ وأنا أفكر فى طريق السفر الذى سيستغرق ثلاثة أيام من المصيصة إلى معسكر الصليبيين ، بدأت أبكى بشكل هستيرى لأننى أدركت أن ذلك كان مستحيلاً . وأخيراً وبناء على إلحاح سيدى وزملائى ، أبحرنا وجدفنا ليوم كامل والريح تساعدنا حتى غروب الشمس ، عندما هبت عاصفة فجأة وأعادتنا إلى المصيصة خلال ساعة أو ساعتين . وهكذا بعد أن حيل بيننا وبين المضى إلى قبرص ثلاث مرات ، عدنا إلى ميناء سان سيميون حيث مرضت مرضاً شديداً ، ولكن بعد الاستيلاء على أنطاكية أتيت إليكم وأنا الآن أقدم شهادتى لتقبلوها .» .

واعتبر الأسقف هذه القصة زائفة ، ولكن الكونت صدّقها فى الحال ، ووضع بطرس بارثولوميو فى حراسة قسيسه ريموند (المؤرخ) .

وفى الليلة التالية تجلى سيدنا يسوع المسيح لكاهن يدعى ستيفن كان يبكى وهو ينتظر الموت له ولأصدقائه [٧] . فقد أصابه الرعب عندما أبلغه بعض

الهاربين من القتال عند القلعة بنزول الأتراك من الجبل وهروب الصليبيين وانسحابهم بغير نظام . وقبل موته الذى دنا دخل ستيفن - رغبة منه أن يشهد الرب عليه - كنيسة مريم المباركة ، واعترف ونال الغفران لذنوبه ، وبدأ يرتل التراتيم مع أصدقائه . وظل يصلى بالليل بينما نام الآخرون ، وهو يردد « ياسيدى ، من سيعيش فى بيتك ؟ من سيجد الراحة على جبلك المقدس ؟ » [٨] .

فى هذه اللحظة ظهر رجل وسيم ليس كهيئة البشر ، وسأل ستيفن:« من دخل أنطاكية ؟ » .

ورد ستيفن « المسيحيون » . فسأل الرجل : « بم يؤمن هؤلاء المسيحيون ؟ » . وأجاب الكاهن : « إنهم يؤمنون بأن المسيح قد ولد من العذراء مريم وتحمل الآلام على الصليب ، ومات ، ودفن ، ثم قام من القبر فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء . فسأل الرجل : « وإذا كانوا مسيحيين ، فلماذا يخافون جموع الوثنيين ؟ » واستطرد قائلاً : « ألا تعرفنى ؟ » .

فأجاب الكاهن ستيفن : « أنا لا أعرف إلا أنك بالغ الجلالة » . وهنا طلب منه الرجل « انتبه لى جيداً » .

« وعندما راقبه ستيفن عن كثب ، رأى شكل صليب يخطف الأبصار أكثر من الشمس يظهر تدريجيا فوق رأسه . وهنا رد الكاهن على الرجل الذى كان يسأله : « سيدى . إننا نسمى الصور التى تشبهك فى مظهرها صور يسوع المسيح » [٩] .

وواصل السيد حديثه قائلاً : « لقد نطقت بالصواب لأننى يسوع المسيح . أليس مكتوباً أننى السيد القوى القادر فى المعارك ؟ هل لى أن أسأل من هو قائدك ؟ » .

ورد ستيفن قائلاً : « سيدى .. ليس لدينا قائد واحد ، ولكننا نثق فى أدهيمار أكثر من الآخرين » .

فأمرني المسيح : « أبلغ الأسقف أن هؤلاء الناس بأعمالهم الشريرة قد أبعدوني عنهم ، ولهذا فإنه ينبغي أن يقودهم ، « ابتعدوا عن الخطيئة وسأعود إليكم » (١٠) . وفيما بعد عندما يذهبون للقتال سيقولون « لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم ، فحطم قوتهم يارب واهزمهم حتى يعرفونك يا إلهنا . حارب معنا وحدنا » (١١) وزد هذه التعليمات « ستكون رحمتي معكم لو اتبعتم أوامري لخمسة أيام » .

وبينما هو يتكلم اقتربت امرأة ، هي مريم أم يسوع المسيح ، وقد أحاطت بوجهها هالة باهرة ، ونظرت نحو السيد وسألت : « ماذا تقول لهذا الرجل ؟ » .

ورد المسيح على مريم : « لقد سألت عن الناس الذين هم في أنطاكية » .

فأعلنت السيدة : « آه : ياسيدي ! انهم مسيحيون يكونون دائماً في صلواتي لك » .

وعندما أيقظ الكاهن رفيقه النائم على مقربة ليشهد الرؤيا ، اختفى المسيح ومريم من أمامه . وفي الصباح التالي صعد ستيفن التل في مواجهة البرج التركي حيث كان أمراؤنا ينتظرون ، باستثناء جودفري الذي كان يحرس حصن الجبل الشمالي . وأبلغهم ستيفن في إجتماع عقدوه برؤياه المذكورة . وأقسم بالصليب على صحتها وأعرب أخيرا عن استعداده لاختراق النار أو إلقاء نفسه من أعلى برج إذا لزم الأمر لإقناع من لايصدقونه .

وإزاء هذه الوقائع اعتقدت الجموع أن الأمراء كانوا يرغبون الآن في الهروب إلى الميناء ، وأن قلة منهم فقط من راسخي الإيمان ، لم تكن تفكر في الهرب أثناء الليلة السابقة . فأقسم الأمراء أنهم لن يهربوا ولن يتخلوا عن أنطاكية إلا بناء على قرار مشترك ، وهكذا اطمأن الكثيرون وحتى ذلك الوقت فإن اغلاق أبواب أنطاكية بناء على أوامر بوهيمند وأدهيمار، منع الجلاء الكامل عن المدينة ، ورغم كل الاحتياطات فقد هرب وليام أوف جراند مستبل مع أخيه وعدد كبير من رجال الدين والعوام . إلا أن الكثيرين ممن هربوا من المدينة معرضين أنفسهم لأخطار شديدة ، واجهوا خطرا أكبر هددهم بالموت من رجال كربوغا .

وانتشرت قصص التجليات التي تظهر لزملائنا ، ورأينا نحن أيضاً إحدى العجائب في السماء . فقد رأينا نجماً كبيراً معلقاً فوق أنطاكية لوقت قصير ، ثم يتفتت إلى ثلاثة أجزاء ويسقط داخل المعسكر التركي . وتشجع الصليبيون إلى حد ما وترقبوا بلهفة اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن . وفي ذلك اليوم ، حمل إثنا عشر رجلا ومعهم بطرس بارثولوميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبارك ، بعد أن أبعدوا كل المسيحيين الآخرين . وكان من بين الاثنى عشر أسقف أورانج وريموندأجيل ، كاتب هذه السطور ، وريموند سان جيل ، وبونز أوف بالازون وفارالد أوف ثوارز (١٣) .

وظللنا نحفر حتى المساء ، ويئس البعض من إخراج الحربة من تحت الأرض . وفي هذه الأثناء ، وبعد أن ذهب الكونت لحراسة القلعة ، أقنعنا عمالاً جدداً بأن يحلوا محل الحفارين الذين تعبوا ، وحفروا بجد شديد . ولكن بطرس بارثولوميو المتلىء شباباً عندما رأى الارهاق قد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، تجرد من ملابسه الخارجية ، ونزل في الحفرة حافي القدمين وليس عليه الا قميص ، ثم توسل إلينا أن نصلي لله ليعيد حربته إلى الصليبيين ، ليجلب لشعبه القوة والنصر . وأخيرا أظهر لنا الله برحمته المباركة ، حربته وقبّلت ، أنا ريموند مؤلف هذا الكتاب ، سن الحربة عندما برزت من الأرض ، ولا أستطيع أن أصف السعادة والابتهاج اللذين غمرا أنطاكية . ولكن يكفي أن أذكر أن الحربة قد اكتشفت في اليوم الثامن عشر قبل اليوم الأول من يوليو (١٤ يونيو) .

وفي الليلة التالية وقف أندرو المبارك أمام الشاب الذي كشف عن الحربة وقال له : « أنظر ، إن الله قد أعطى الحربة للكونت ، وفي الحقيقة ، أنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما جعله قائداً للصليبيين ، على شرط أن يكرّس نفسه لله » .

وعندما طلب بطرس بارثلميو الرحمة للمسيحيين ، أجاب أندرو المبارك : « حقاً أن الرب سيكون رحيما بشعبه » .

ومرة أخرى سأل بطرس زائره الليلى عن اسم رفيقه : « من كان الشخص الذى رأيته يصاحبك بشكل متكرر ؟ » . وقال أندرو المبارك : « اقترب وقبل قدمه » . فاقترب البروفنسالى ورأى مابدا أنه جرح حديث ودام فى قدمه ، وعندما تراجع بسبب ذلك المنظر الدموى ، أمره أندرو المبارك : « أنظر إلى الأب الذى سُمّر على الصليب من أجلنا ، وتحمّل منذ ذلك الوقت هذا الجرح . فضلا عن ذلك فإن الرب يأمرك بالاحتفال بتاريخ اكتشاف حربته ، فى ثامن أيام العيد من الأسبوع القادم ، لأن استخراج الحربة وقت صلاة المساء يمنع الاحتفال فى ذلك اليوم ، وبعد ذلك فإنك ستحتفل كل عام بيوم اكتشاف الحربة » . « ثم أبلغ المسيحيين بأن يكبحوا جماح أنفسهم كما تعلمهم قراءة رسالة أخى بطرس (كانت هذه الرسالة تعلّم : « تواضعوا تحت يد الرب القوية »)[١٤] . كما أن الكهنة سيترنمون كل يوم بالترنيمة التالية "Lustra sex qui jam peracta tempus implens corporis". وعندما يصلون إلى قولهم " Agnus in cruce levatus immolandus stipite " فإنهم يجثون على ركبتيهم وينحنون مختتمين الترنيمة »[١٥] .

وفيما بعد ، عندما استفسرنا أسقف أورانج وأنا ، من بارثولوميو ، عما إذا كان يعرف خدمة القدّاس الكنائسى ، فإنه ، إحساساً منه بأن الاجابة بالإثبات لن تُقابَلَ بالتصديق أجاب « أنا لا أعرف » . ورغم أنه كان يعرف بعض الطقوس فإنه كان مرتبكاً جدا حينئذ ، لدرجة أنه لم يتذكر القداس الكنائسى ، أو يذكر بالمرة ماتعلّمه منها باستثناء Pater Noster, Credo in Deum, Magnificat, Gloria in excelis Deo, Benedictus Dominus Deus Israel ونسى كل ماعدا ذلك تماما ، ولم يتذكر إلا فيما بعد عدة كلمات وبصعوبة[١٦] .

هوامش الفصل السابع

(١) الفلاح البروفنسالى هو بطرس بارثلميو Peter Bartholomew . ويعير ريموندأجيل قصة الحربة المقدسة إهتماماً أكثر مما أعارها المؤرخون الآخرون . وقد أشرنا فى كتابنا Raymond IV, Count of Toulouse, p. 109, n. 3 أن المؤلف يتوسع فى رواية موجزة ويضيف إليها التفاصيل اللازمة لرواية صحيحة عن مثل هذه المعجزة . ويخلط الأحداث مع المعجزات ليلبس روايته ثوب الحقيقة . ونعتقد أنه اختلق معظم الرواية وليس الراوى الساذج نفسه (بارثلميو) . وقد ألقى المؤلف برذاذ من الكلمات التى وردت فى المزامير مثل انتظر Expecte وانظر ecce وكن متنبها Vigilame على القصة كلها . ولايتردد المؤرخ فى أن ينقل عبارات كاملة ليحرك روايته . وعلى سبيل المثال : « وأجمل شكلا من أبناء البشر » فهذه العبارة مأخوذة من : Psalm, 44 : 3 . وعبارة « لا تخف » مألوفة ومأخوذة من سفر الخروج .

انظـــر : Exodus, 20 - 20.

راجع أيضا : Steven Runciman, The Holy Lance Found at Antioch, in AB, 68, 1950.

ومن المفترض أن يكون بطرس بارثلميو قد روى قصته فى ١٠ يونية ١٠٩٨ م .

انظـــر : Hagenmeyerm Chr., 277.

وقد وقعت الهزة الأرضية فى الفترة ما بين ٣٠ ديسمبر ١٠٩٧ م وأول يناير ١٠٩٨ م .

- من هنا وحتى نهاية كتاب ريموندأجيل ، نلمس حرص المؤرخ على سرد كل الرؤى التى يرويها له - أو لغيره - أشخاص عديدون . وفى الحقيقة لم نجد أية قيمة تاريخية لهذه الرؤى ، بل إنها تضطر القارىء إلى أن يسترجع الأحداث التاريخية السابقة عليها إذا ما فاجأه المؤرخ بتوقف حدث الرؤيا واستئنافه للحدث التاريخى الأصلى . وهنا يؤدى إلى الاضطراب فى سياق الأحداث .

وفى نفس الوقت ، فإن التشكك فى صحة هذه الرؤى ، الذى أبداه من استمعوا إلى أصحابها من المعاصرين ، قد تحوّل إلى عدم الأخذ بصحتها بالمرة من قِبَل المؤرخين الحديثين . وهذا أمر طبيعى وقد رفض الأخذ برؤى بطرس بارثلميو كل من المندوب البابوى أدهيمار الذى من المفروض أنه يمثل الجانب الروحى فى الحملة الصليبية ، وأن مثل هذه الرؤى ، خاصة إذا ما تمثل فيها المسيح عليه السلام وبعض حوارييه لراويها ،

تقوى جانب الكنيسة ومركز أدهيمار نفسه . كما رُفض الأخذ بها كل من تنكريد وكثيرين من قادة الحملة ، وحتى ريموند كونت تولوز الذى خصّه بارثلميو بجزء من رؤياه . هذا بالرغم من محاولة بارثلميو - أو المؤرخ نفسه - إخافة كل من يتشكك فى صدق رواياته بمعاقبته لأدهيمار ، فى رؤى أخرى ، بجعله يتلظى نار الجحيم لتشككه فيه .

وإذا كانت حجتنا فيما يخص أية قضية تاريخية نتناولها بالتحليل والدراسة ، هى النصوص التاريخية - المعاصرة بالدرجة الأولى - فإن مايهمنا فى هذا المقام هو عرض آراء مؤرخى الحملة الصليبية الأولى بشأن هذه الرؤى ، وبشأن صاحبها أيضا . فبينما يؤكد ريموندآجيل ثقته في صحة هذه الرؤى خاصة رؤى مواطنه البروفنسالى بارثلميو ، نجد مؤلف الجستا يورد رواية الحربة فى ثلاثة أسطر دون ذكر لأى أسماء أوردها ريموندآجيل ، دون أن يدلى فيها برأى . بينما تشكك فولشر أوف شارتر فى حقيقة الحربة ويعتقد أن بطرس بارثلميو كان كاذبا ودليله على ذلك أن بطرس احترق أثناء اختبار النار الذى مر به وعرف الناس « أنه كان مذنبا ، لأنه جلده احترق ، وعرفوا أنه أصيب بأذى مميت ، وقد اتضح هذا بعد ذلك ، فقد توفى فى اليوم الثانى عشر ، وأوذى بالذنب الذى ارتكبه » . انظـــــر : Fulcher of Chartres, op. Cit., p. 101

كما يعتقد فولشر أيضا أن بطرس دفن الحربة بنفسه ولم يعثر عليها « وجد حربه ربما أخفيت تحت الأرض سرا » " invenit lanceam fallaciter occultatam forsitan "

أنظـــــر : MPL, Vol. CLV, 843

أما رادولف أوف كان ، فلم يخف تشككه فى بطرس وفى رؤياه نفسها . وكان بطرس بارثلميو هو المنفث الوحيد لرادولف كى يظهر كرهه للبروفنساليين بصفة عامة . وحين عاد بطرس يروى رؤيا أخرى أثناء حصار عرقة فقد ارتاب فولشر والبرت دكس فى أمر الحربة المقدسة ، كما أكد رادولف تشككه فيها وعداءه لبارثلميو .

أما عن قادة الحملة ، فقد أظهر كونت تولوز إعتقاده فى حقيقتها ، ثم ما لبث أن أبدى ارتيابه فيما إذا كانت رؤى بطرس لازالت حقيقية . أما بوهيمند ، فبالرغم من أن بطرس بارثلميو قد قرر أنه لابد من السماح لبوهيمند بامتلاك أنطاكية ، وذلك بعد وفاة أدهيمار بيومين ، فإن بوهيمند أعلن إندهاشه وتشككه فى أن يظهر المسيح أو القديسين لرجل فاسق مثل بارثلميو ، أعتاد « إرتياد الحانات والتسكع فى الطرقات ... » كما يتساءل بوهيمند أمام جموع الفرنج عن أى من المؤرخين قد كتب أن =

= الحربة التى طعن بها المسيح قد وصلت إلى كنيسة بطرس فى أنطاكية . إلى جانب الكثير من الحجج التى قدمها بوهيمند دليلا على تلفيقات بطرس بارثلميو والتى أوردها بالتفصيل رادولف أوف كان .

أنظـــــر : Radulf of Caen, p. 678.

أما عن جموع الجيش الصليبى ورجال الدين فيه فكان من الطبيعى أن يؤيد البروفنساليون منهم رؤيات بطرس بينما أبدى فرنسيو الشمال وبقية الجيش تبرّمهم من بطرس ورؤاه .

ومهما يكن من أمر فإن روايات بطرس بارثلميو ورؤاه لم تكن إلا وسيلة لريموندآجيل لإبراز الدور البروفنسالى فى الحملة الصليبية ، وهو كرجل دين ، فقد عمل جاهدا على إثبات أن المشروع الصليبى كان من عمل الرب وبإرادته Deus Volt دون أن يحرى أن التمعن فى الاحداث التى شملها كتابه - قبل كتب غيره من مؤرخى الحملة الأولى - والعلاقات التى سادت بين قادة الحملة وتضمنتها صفحات كتابه ، وأن سلوك الفرنج ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض على مدار المائة وأربعة وتسعين عاما التى عاشوها فى بلاد الشام ، إنما تثبت أن هذا المشروع الصليبى لم يكن من عمل الرب ولا هى إرادته Deus Non Volt . أنظـــــر :

Gesta Francorum, p. 57 - 60; Fulcher of Chartres, pp. 99 - 100. C.F. also, Runciman, The Holy Lance Found at Antioche, in AB, Vol. 68., 1950. (الترجمة العربية) .

(٢) كان بطرس ريموند أوف هوتبول (Alto - Pullo) Peter Raymond of Hautpoul تابعاً لكونت تولوز وتقع القلعة التى تحمل اسمه فى دوقية لافور Lavaur بالقرب من حدود ناربون Narbonne وكاركاسون Carcassonne . وكان لبطرس ريموند دوراً بارزاً فى حصار أنطاكية ، ومات فى نفس الفترة التى مات فيها أدهيمار تقريبا . ومن المفروض أنه تم دفن بطرس أمام بوابة كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية . انظر :

HGL 3 : p 517, 5 : p. 692; Tudebode, Historia, RHC - H. Occ., 3, p. 33.

(٣) الرها إحدى المعاقل الأرمينية ، وكانت فى أيدى بولدوين ، شقيق جودفرى .

(٤) وليم بطرس William Peter عرفه الناس كأحد الحجاج الصليبيين .

(٥) يكرر المؤرخ فى وقت لاحق أنه لم يفهم لماذا أبلغ بطرس بارثلميو هذه التعليمات لكونت تولوز . وربما أضاف المؤرخ هذه العلومة ليجعل قصته تبدو أقرب إلى الحقيقة ، انظر : Ezechiel, 44 : 17 - 19. وربما أوحت هذه الأسطر بطبيعة ملابس ريموند عند نهر الأردن .

(٦) كانت قبرص بمثابة نقطة إمداد للصليبيين ، وكانت معروفة لهم جيدا .
- وعن دور قبرص فى الحروب الصليبية انظر : سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .
(الترجمة العربية) .

(٧) فى بعض الأحيـــان يدعى ستيفن باسم ستيفن فالنتين Stephen Valentine ومن المحتمل أنه قسيس من فالنس Valence وكان يظهر فى رؤى عديدة .

(٨) يكرر المؤرخ على لسان ستيفن « من سيعيش فى بيتك ؟ من سيجد الراحة على جبلك المقدس ؟ » . وهذا مأخوذ كلمة بكلمة من العهد القديم . أنظر : Psalm, 14 : 1. وتعتبر رؤية ستيفن ممارسة ملحوظة فى إحياء الأسفار . والمؤرخ حاذق فى هذه الرواية .

(٩) يقدم لنا المؤرخ فى هذا الموضع أوصافا لزواره الساريين ، تلك الأوصاف التى لابد وأنه قام باقتباسها من الفن الدارج فى هذه الأيام . وعندما يكتب وقد ظهر « رجل ، وسيم لبس كهيئة البشر » . نعرف أنه يشير إلى المسيح ، وأنه حتى أشد الرجال جهلا يعرفون ذلك . انظر :
Saint Augustine, De Civitate Dei, MPL, 41, Col. 548 - 550. CF. also, Louis Réau, Iconographie de l'art Chrétion, Paris, 1955.

(١٠) التعليمات التى تقول « ابتعدوا عن الخطيئة وسأعود إليكم » مأخوذة من العهد القديم انظـــــر : Prophetia Zachariae, 1 : 3.

(١١) والتعليمات التى صدرت إلى الصليبيين ليقولوا « لقد تجمع أعداؤنا وتباهوا بقوتهم » وهذا رد يتلى فى الصلوات . انظر :
Breviarium Autumnalis, October.

(١٢) كان وليم جــراندمسنل William of Grand-Mesnil زوجا لشقيقة بوهيمند ، وهو من مدينة جراندمســنل التى تقع جنوبى ليبج Liege . وقد هرب وليم فى مساء يوم ١٠ أو ١١ يونية ١٠٩٨ م . انظر : Hagenmeyer, Chr., 278.

(١٣) جاء فارالد ثوارز Farald of Thouars من مدينة ثوارز التى تقع إلى الشمال الغربى من بواتييه Poitiers . وقد ذكر مؤلف الجستا أن ثلاثة عشر رجلا قاموا بالحفر للعثور على الحربة المقدسة . ولم يحص ريموند اجيل بطرس بارثلميو وفضل استخدام الرقم ١٢ ، ربما نسبة إلى الإثنى عشر حوارى . وقد تم العثور على الحربة فى يوم ١٤ يونية ١٠٩٨م . انظر : Hagenmeyer, op. cit., 284.

(١٤) يبين المؤرخ هنا إعتماده على رسالة بطرس « تواضعوا تحت يد الرب القوية » انظر :
I Peter, 5 : 6.

(١٥) لم نشأ ترجمة البيت الشعــــرى Lustra Sex . وهذا البيت من شعـر فيناتيوس فورتيوناتوس . ولم يستخدم ريموند اجيل من هذا النشيد سوى أجزاء فقط . ونعتقد أن النص اللاتينى ، كما هو ، أصلح من أى ترجمة .
- ولد فيناتيوس هنوريوس كلمنتيانوس فورتيوناتوس
Venantius Honorius Clementianus Fortunatus
(٥٤٠ - ٦٠٠ م) بالقرب من مدينة Treviso بشمال إيطاليا . وتلقى تعليمه فى مدينة رافنا . وفى عام ٥٦٥ م رحل إلى فرنسا وعاش فى مدينة بواتييه Poitiers حيث أصبح أسقفا . وكشاعر يكتب فى مختلف الموضوعات ، كتب فيناتيوس قصائد عديدة فى المسائل الدينية والدنيوية . كما صاغ بعض أعماله نثرا . ويعتبر فيناتيوس آخر الشعراء الرومان وأول شعراء العصور الوسطى . انظر :
Alun Hudson - Williams, Venantius fortunatus, in Oxford Classical Dictionary, p. 1112.
وفى الحقيقة ، فإنه من الصعب الحصول على معنى مستقيم للفقرات التى وردت هنا باللاتينية إذا ما ترجمت إلى لغة أخرى . ويرجع ذلك إلى أن ريموند اجيل اقتبس فقرات غير كاملة من نشيد فيناتيوس الأمر الذى يجعل المعنى مضطربا إذا ما تمت ترجمتها . وعلى أية حال ، فإن الفقرات المذكورة تدعو إلى تحمل الصعاب والآلام فى سبيل الرب ، وإلى البعد عن النزوات المسببة التى تشغل الجسد ، وإلى تمجيد الرب والايمان به وتبجيله .
(الترجمة العربية) .

(١٦) كان بطرس بارثلميو جاهلاً ، لأنه لم يتذكر إلا جزءاً من الصــلاة ، والمجد فى الأعالى Gloria in excelsis كجزء من القداس . وهذا تفسير لفلسفة الجهل

الفصل الثامن

هزيمـــــة كربوغـــــا

فى تلك الأثناء ، أصبح الطعام نادراً جداً ، حتى أن رأس الحصان بدون لسان ، كانت تباع باثنين أو ثلاثة صولدى ، وأمعاء الماعز بخمسة صولدى ، والدجاجة بثمانية أو بتسع صولدى . وماذا يمكن أن أقول عن أسعار الخبز عندما يستمر الجوع بعد أكل ما قيمته خمسة صولدى ؟ . أما الأغنياء الذين يملكون الذهب والفضة والملابس ، فلم يكن غريبا عليهم ، أو مرهقاً لهم ، أن يدفعوا التكاليف الباهظة . هكذا فقد ارتفعت الأسعار لأن ضمائر الفرسان الشريرة كانت تفتقر إلى الشجاعة المسيحية . فكانوا يجمعون التين الفج ويطهونه ويبيعونه ، ويسلقون جلود الماشية ، والحبوب ، والنفايات الصالحة للأكل ، ويبيعونها بأسعار مرتفعة جدا ، حتى أن أى انسان كان يمكنه أن يأكل كمية تكلفه صولدين . ولكن أغلب الفرسان ، الذين كانوا يتوقعون رحمة الرب ، رفضوا أن يذبحوا خيولهم ، وتحملوا بدمائهم .

وبينما كانت هذه المصائب وغيرها مما لانستطيع ذكره لما فيه من بؤس ، تقض مضجع المسيحيين ، فإن رجالنا لجأوا إلى الخيانة ، وأبلغوا الأتراك بحالة البؤس التى تعيش فيها أنطاكية ، فأزادوا بذلك من همومنا . وحفزت هذه الأنباء الأتراك إلى القيام بأعمال جريئة جعلتنا عرضة لتهديداتهم . ووقع أحدها فى ظهر أحد الأيام . فقد اعتلى نحو ثلاثين منهم أحد أبراجنا ، وخلقوا لفترة من الوقت حالة من الذعر ، ولكن قواتنا التى تعرضت للخطر ، قاتلت بتأييد من الرب ، فقتل رجالنا بعض الأعداء ، وأبعدوا الآخرين عن الشرفات . فى ذلك الوقت وعد كل الصليبيين باتباع أوامر بوهيمند لمدة خمسة عشر يوماً بعد القتال ، بحيث يمكنه أن يدبر أمر حماية أنطاكية ، ويضع خطط القتال . وكان سبب هذا القرار هو التهديد التركى ومرض الكونت ريموند وأدهيمار ، وهروب ستيفن أوف بلوا [1] . وأذكركم بأن ستيفن ، رغم اختياره قائدا صليبياً قبل سقوط أنطاكية ، قد لم

هارباً نتيجة الشائعات بقرب وقوع المعركة . وكما ذكرنا فقد جاءتنا معونة السماء لمسيحيينا المهزومين المثقلين بالهموم والأحزان ، عن طريق بطرس بارثولوميو ، مكتشف الحربة ، الذى كان يسدينا النصح فيما نفعل قبل المعركة وأثناءها ، فأخبرنا أن أندرو المبارك قد أمرنا :

« أن الجميع قد أغضبوا الرب إلى حد بعيد ، فوقع عليهم العذاب ، وأنت قد صليت للرب واستمع إليك الرب ، فليهجر كل منهم الآثام ويتجه إلى الرب ، ويقدم خمس صدقات ، بسبب جروح الرب الخمســـة ، وإذا عجز عن ذلك فليردد « أبانا » خمس مرات Pater Noster . وبعد اكتمال تنفيذ هذه الأوامر ، إبدأوا المعركة باسم الرب ، ولتبدأ نهاراً أو ليلاً ، وفقاً لخطط المعـركة التى وضعها الأمراء ، لأن يد الرب ستكون معـكم ، ومع ذلك فإذا ارتاب أحد فى نتيجة المعركة ، فلتفتحوا الأبواب ، وتدعوه يجرى إلى الأتراك حيث سيشهد كيف يحميه الله Allah . وأكثر من ذلك ، فليكن أى متخاذل لايقدم على القتال ، مع يهوذا ، خائن يسوع المسيح ، الذى تخلى عن الرسل وباع المسيح لليهود .

« وبالصدق ، إجعلهم يتقدمون إلى المعركة ، بإيمان بطرس المبارك ، متمسكين بوعد المسيح له عند قيامه وظهوره فى اليوم الثالث ، ودعهم يتقدمون إلى المعركة ، لأن هذه الأرض ليست وثنية ، بل تدخل فى اختصاص القديس بطرس . ولتكن صيحة التجمع بينكم « ساعدنا أيها الرب » ، وسوف يساعدكم الرب فعلاً . وسيقاتل معكم كل رفاق رحلتكم الذين ماتوا بقوة الرب ، وتحت قيادته ضد تسعة أعشار الأعداء ، بينما تقاتلون أنتم العشر الباقى . أسرعوا إلى المعركة حتى لايفقد الرب عدداً مساوياً من الأتراك ضدكم ، ويحاصر أنطاكية حتى يأكل بعضكم البعض . ولكن كونوا مطمئنين إلى أن الأيام التى تنبأ بها المسيح لمريم ولرسله قد جاءت ، الأيام التى سيطيح فيها بمملكة الوثنيين ، ويسحقها تحت قدمه ، ويرفع فيها الإمارة المسيحية . ولكن لا تتحولوا إلى خيام الأعداء طلبا للذهب والفضة » .

ثم تجلت يد القدرة الإلهية ، والذى أمرنا بالأوامر المذكورة أعلن لنا عن طريق القديس أندرو ، ما شجع كل القلوب بالآمال والإيمان ، حتى أن كل مسيحى شعر أنه قد أحرز نصرا . فعادت إليهم حماستهم للقتال عندما راحوا يشجعون بعضهم البعض . وأصبحت الجموع ، التى كان الخوف والفقر قد أصاباها بالشلل منذ عدة أيام فقط ، تسأل عن السبب فى تأخير المعركة وتتهم الأمراء . وبالتالى ، حدّد الزعماء تاريخ المعركة . ثم أرسلوا بطرس الناسك إلى كربوغا ، أتابك الموصل ، ومعه أوامر بأن يتخلى عن حصار أنطاكية ، لأنها كانت تدخل فى نطاق اختصاص القديس بطرس والمسيحيين . إلا أن كربوغا المتغطرس ، أجاب بأنه سواء كان على حق أو خطأ ، فإنه يرغب فى أن يصبح سيداً على المدينة وعلى الفرنجة ، وجعل بطرس الناسك يركع أمامه رغما عنه [٢] .

فى ذلك الوقت ، ثارت مسألة اختيار بعض القوات لحراسة أنطاكية من الهجمات التى تتم من القلعة ، بينما تخرج قوات أخرى إلى ميدان القتال . وهكذا ، أقاموا سوراً حجرياً وتحصينات فوق تل يواجه العدو ، وحصّنوها بالصخور ، وجعلوا عليها حامية بها ريموند كونت تولوز ، الذى كان مصاباً بمرض خطير ، ومعه مائتان من الرجال . وأتى اليوم المحدّد للمعركة ، وتناول الجميع العشاء الربانى ، فى ذلك الصباح ، وخضعوا لإرادة الرب ، وحتى للموت إذا شاء ذلك ، ولشرف الكنيسة الرومانية وجنس الفرنجة .

وقام تنظيم القتال على أساس وجود طابورين مزدوجين من البروفنساليين من قوات ريموند وأدهيمار ، مع مشاة فى المقدمة ، يهاجمون أو يتوقفون طبقاً لأوامر قادتهم ، ثم يتبعهم الفرسان كحرس مؤخرة . وسارت قوات بوهيمند بنفس النظام القتالى ، وكذا قوات تانكرد وكونت نورماندى ، والفرنجة ، والدوق والبرجنديين . وانطلق المنادون فى أنطاكية يحثون كل رجل على القتال مع قائده . وكان نظام الزحف كما يلى : هيو العظيم ، وكونت الفلاندر وكونت نورماندى أولاً ، ثم الدوق والأسقف ، وأخيراً بوهيمند [٣] . وبهذه الطريقة وقفوا فى صفوفهم الفعلية تحت المدينة وأمام باب الجسر .

آه ! كم هى مباركة تلك الأمة التي يكون سيدها هو الرب ، والشعب الذى اختاره لميراثه !! وكم تغير مظهر هذا الجيش ، من حالة الكسل والتراخى ، إلى النشاط والحركة (٤) . فقبل أيام قليلة ، كان القادة والنبلاء يسيرون فى شوارع أنطاكية يسألون الرب العون ، وكان العامة يسيرون فى المدينة حفاة ، وهم يصرخون ويضربون صدورهم ، وبلغ من بؤس حال المسيحيين أن الأب وابنه ، والأخ وأخاه ، لم يكونوا يتبادلون التحية ولا النظرات ، وهم يمرون فى الشوارع ، ومع التغير المفاجىء فى الروح ، صار المرء يرى المسيحيين يخرجون كجياد نشطة ، ويقعقعون بأسلحتهم ، ويلوحون برماحهم ، ويحتفلون فى صخب بالسلوك والكلام . ولكن لماذا نؤخر هذه القصة ؟ إن الرغبة فى القتال كانت الآن أمراً مفروغاً منه ، وخطط القادة كانت تنفذ .

فى الوقت نفسه وبينما كان كربوغا يلعب الشطرنج فى خيمته ، فقد تواتر إليه أن الفرنجة كانوا خارجين للقتال . فاضطربت نفسه لهذا التحرك المفاجىء ، واستدعى ميردالين Mirdalin وهو لاجىء تركى من أنطاكية ونبيل شجاع معروف وسأله : « ماذا يجرى ؟ (٥) ألم تخبرنى بأن المسيحيين الأقل عدداً منا لن يقاتلوا أبداً لأن عدد الفرنجة كان صغيراً ؟ » .

ورد ميردالين على هذا السؤال قائلاً : « لا ياسيدى إنى لم أبلغك بشىء من هذا القبيل ، ولكن اتبعنى فسوف أراقبهم وأنصح لك إذا كان يمكنك التغلب عليهم بسهولة » .

وعندما تقدم الصف الثالث من صليبينا ، استطلع ميردالين صفوفنا وأبلغ كربوغا : « أن المسيحيين سيموتون قبل أن يهربوا » .

وسأل كربوغا بدوره : « الا يمكن دفع بعض المسيحيين إلى الخلف قليلاً ؟ » .

ورد ميردالين : « لو اندفع العالم كله ضدهم ، ما تحركوا قيد أنملة » .

ورغم خوف كربوغا ، فإنه وضع جيشه العظيم فى تشكيل قتالى ، وسمح للصليبيين أن يخرجوا من أنطاكية دون مضايقات ، ورغم أنه كان يستطيع سد الطريق عليهم . وخشية أن تتعرض قواتنا لتكتيكات الإلتفاف من الخلف ، فإن قواتنا نقلت خطوطها القتالية نحو الجبال التى كانت على بعد ميلين كاملين من الجسر ، وتقدمنا فى موكب يشبه تماما موكب رجال الدين ، ولعلى أضيف ، أنه كان موكب حقاً . فسار الكهنة والكثير من الرهبان وهم يرتدون القمصان البيضاء أمام صفوف فرساننا ، وهم ينشدون ويطلبون العون من الرب وحماية القديسين ، ومع ذلك فقد هاجمنا الأتراك وأطلقوا علينا سهامهم ، ولكن كربوغا ، الذى لم يعد يتجاهل العروض المسيحية ، اقترح على قادتنا أن يقاتل خمسة أو عشرة من الأتراك نفس العدد من الفرنجة ، على أن يغادر الجيش الذى انهزم ممثلوه من الفرسان ميدان المعركة فى سلام .

وأجاب رجالنا ، « لقد رفضنا ذلك عندما أردناه ، ولكن لما كنا على استعداد للقتال فليقاتل كل انسان فى سبيل حقوقه » .

وكما أوضحنا ، فقد كنا مصطفين على السهل عندما هاجمت كتيبة من الأتراك ، جاءت من خلفنا ، فرقة من المشاة الذين داروا وقابلوا الهجوم بشجاعة . وعندما عجزت قوات الأعداء عن القضاء على المشاة ، أشعلوا ناراً حولهم حتى تحصد النيران من لايرهب السيف . ولما كانت الأعشاب بالغة الجفاف فقد جرى إنسحاب إجبارى .

ومع جيشنا خارج أنطاكية ، وقف الكهنة حفاة يرتدون الملابس الكهنوتية ، فوق الأسوار يبتهلون إلى الرب أن يحمى شعبه وينصر الفرنجة نصراً يكون دليلاً على العهد الذى قدسه بدمه . إلا أننا عند التقدم من الجسر إلى الجبل ، قاتلنا قتالاً شديداً لإحاطة الأتراك بنا . وفى هذه الأثناء ، اندفع الأعداء مهاجمين الذين كانوا منا فى صفوف أدهيمار . ومع التفوق العددى فإنهم لم

يجرحوا أياً من رجالنا أو يطلقوا سهامهم علينا ، لاشك ، بسبب حماية الحربة المقدسة لنا . وقد كنت شاهدا على هذه الحوادث ، وحاملاً للحربة المقدسة . أكثر من ذلك فاذا كانت الشائعة قد انتشرت ، بأن هرقل حامل راية الأسقف ، قد أصيب في القتال ، فليكن معلوماً أنه أعطى رايته لشخص آخر وكان بعيدا عن صفوفنا .

ولما صار كل جنودنا خارج أنطاكية ، كوّن أمراؤنا ، كما ذكرنا من قبل ، ثمانية صفوف . ولكن ظهرت فى صفوفنا خمسة أخرى ، فصار عدد الصفوف بذلك ثلاثة عشر صفاً . ولن نمر مر الكرام على هذا الحدث الجدير بالذكر ، حين أنزل الرب على المسيحيين المتقدمين للقتال . مطرا خفيفا إبتهجوا لسقوطه فكانت قطرات هذا المطر تجلب لمن تمسُّهم خفة وقوة ، حتى أنهم صاروا يحتقرون العدو ، وهاجموه كما لو كانوا قد تربوا على الطريقة الملكية ، وكان لهذا الوابل من المطر تأثير على خيولنا لايقل إعجازا . ودليل ذلك اننى أسأل : أى حصان انهار قبل نهاية القتال ، رغم أنه لم يكن قد أكل إلالحاء الشجر وأوراقه لمدة ثمانية أيام ؟ ولأن الرب قد أضاف جنوداً إلى جيشنا ، فقد تفوقنا عدديا على الأتراك رغم أننا كنا نبدو قبل ذلك أقل عدداً [٧] .

وعند اكتمال تقدمنا وتشكيلنا القتالى ، هرب العدو دون أن يعطينا الفرصة للقتال ، ثم طاردتهم قواتنا حتى غروب الشمس . وعمل الرب بشكل مدهش مع الرجال والخيول ، فلم يكن اسثع بعرق الرجال ، وإذا بهذه الخيول التى لم تأكل منذ فترة ، والتى قادها أصحابها بعيداً عن العلف القليل ، إلى ميدان القتال ، تطارد أسرع الخيول التركية . وأعد الرب لنا حدثاً سعيداً آخر ، وهو أن المدافعين عن القلعة عندما رأوا هروب رجال كربوغا ، يئسوا واستسلم بعضهم بعد ضمان حياتهم ، بينما لاذ آخرون بالفرار على وجه السرعة . ورغم هذه المعركة القطيعة الرهيبة ، فإن قلة من الفرسان الأتراك قد هلكوا ، ومن ناحية أخرى فلم ينج بحياته أحد من المشاه . فضلا عن ذلك فإن الغنائم كانت تتضمن كل خيام الأتراك والكثير من الذهب والفضة ، والكثير من الأسلاب ، وكميات لا تقدر من الحبوب ، وأعداداً لا تحصى من الماشية ، والجمال . فذكّرتنا بهروب السوريان فى سامرة عندما كان صاع الدقيق والشعير يشترى بشيكل SHEKEL (٧) ، وقد وقعت هذه الأحداث فى ليلة عيد القديس بطرس والقديس بولس ، وكان ذلك ملائماً ، لأنه من خلال هذين الشفيعين المقدسين ، جلب الرب يسوع المسيح هذا النصر إلى كنيسة الحاج الفرنجية . حقاً لقد كان ربنا الرحيم هو الذى يعيش مع خدمه ويسكن معهم إلى أبد الأبدين .

* * * * *

هوامش الفصل الثامن

(١) كان ستيفن كونت بلوا وشارتر صليبيا عاق . وكانت زوجته أديلا Adela إبنة وليم الفاتح ، قد حثته على الاشتراك في الحملة الصليبية . وقد زال أثر هروبه والخزى الذى سببه بمصرعه فى عام ١١٠٢م أثناء هجوم بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨م) الفاشل وفرسانه على القوات الفاطمية فى الرملة . انظر :

James Brundage, An Errant Crusader Stephen of Blois, in Traditio, 16, 1960, pp. 380 - 395.

(٢) بعث الفرنج مع بطرس الناسك بمترجم يدعى آرلوين Arluin لمساعدته فى التفاهم مع المسلمين ، وذلك في ٢٧ يونية ١٠٩٨م / ٢٥ رجب ٤٩١ هـ . ولا نعرف ما هو أكيد مما جرى على لسان كربوغا وبطرس . ويبدو أن الأخير حاول فى أول الأمر اخافة كربوغا وتهديده بالكلام عن إمكانيات الصليبين وأسلحتهم وتمسكهم بأنطاكية . وربما جرت اقتراحات بإجراء مبارزات فردية لحسم الأمر ، إلا أن السفارة الصليبية اصطدمت بعناد كربوغا الذى رأى أن يستسلم الصليبيون دون قيد أو شرط ، أو أن السيف هو الذى يحدد من تكون له المدينة . انظر :

Albert d'Aix, p. 420; Gregory Beshada, chanson d'Antioche en provencal, French Trans. by Meyer, in AOL, vol. 2, pp. 496 - 498.

ويذكر المؤرخ الانجليزى وليم مالمسبرى أن كربوغا رفض الرد على بطرس واستمر فى لعب النرد ، وصرّ على أسنانه وصرف بطرس كما جاء . انظر :

William of Malmesbery, Gesta Regum Anglorum, 2 vols, ed. W. Stubbs, in RS, London, 1889, vol. 2, p. 419.

(الترجمة العربية) .

(٣) هيو العظيم Hugh the Great ابن هنرى الأول ملك فرنسا وعرف بكونت فيرماندوا . واشترك أيضا فى صليبية ١١٠١م . وكما جاء فى بعض الروايات ، فقد لقى حتفه فى طرسوس لإصابته بسهم جرحه جرح قاتل .

(٤) يبدأ وصف معنويات الصليبين المتغيرة بعبارة « آه ! كم هى مباركة تلك الأمة التى

= وفي الحقيقة ، فقد حل النشاط محل التراخي ، ولم يتردد ريموندا جيل في استخدام معلوماته عن التصرف السديد الذي سلكه الفرنج في هذه اللحظة . كما يبين أيضا التباين بجعل كربوغا مضطرب النفس وهو يلعب النرد .

(٥) لم يتم التعرف على من يحمل لقب ميردالين Mirdalin من رجال كربوغا . وربما كان في الاسم تحريفا قائما على الكلمة الفرنسية القديمة أميرال Amiral ، من كلمة أمير العربية . وقد نصح وثاب بن محمود وهو قائد عربي ، نصح كربوغا بأن ينقض على الفرنج بمجرد خروجهم من المدينة . واختار كربوغا أن يهاجمهم جميعا دفعة واحدة على أمل أن يحقق نصرا كاملا .
– ربما اغتر كربوغا بضخامة قواته حيث أمر كاتبه أن يرسل إلى الخليفة العباسي وإلى السلطان السلجوقي يخبرهما بحصاره للفرنج ، ويؤكد انتصاره عليهم . وربما أكد له فكرته هذه ما سمعه عما سببته المجاعات للفرنج من متاعب . انظر : ابن الأثير ؛ راجع أيضا :
Monitum in Balduini III, Historia Nicenae vel Antiochenae Prologum, in RHC - H. Occ., vol. 5, p. 163.
(الترجمة العربية) .

(٦) لم يكن وصف ريموندا جيل للمعركة ثريا بالمعلومات التاريخية . ويفضل المؤرخ أن يكتب عن مواكب الفضائل الصليبية مقارنا إياها بالمواكب الكهنوتية . ويستخدم الحربة المقدسة كأثر نافع في المعركة ، ولم يقاوم نفسه في جعل المطر الخفيف المحبب يسقط على الصليبيين . وهرقل هو فيكونت بوليجناك Polignac وهو الأخ الأصغر لبونز . ومدينة بوليجناك تقع بالقرب من لى بويه مقر أسقفية أدهيمار . ولقد عارض بونز وهرقل إصلاحات أدهيمار .

(٧) يذكرنا انتصار الصليبيين « بهروب السريان في السامرة » . وهذا التشبيه مقتبس من سفر الملوك . انظر Liber Quartus Regum, 7 : 18.
وقد وقعت المعركة في صباح يوم ٢٨ يونية ١٠٩٨م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ .

الفصل التاسع

موت أدهيمار والإبلاغ عن رؤى

في أعقاب الإنتصار استولى بوهيمند ، والكونت والدوق ، وكونت الفلاندر على القلعة من جديد ، ولكن بوهيمند أضمر شرا دفعه إلى الإثم ، فاستولى على الأبراج العالية ، وطرد بالقوة أتباع جودفرى وكونت الفلاندر وكونت سان جيل من القلعة متعللا بأنه كان قد أقسم للتركي الذي سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذي سيمتلكها [1] . وتشجع بوهيمند بهذا العمل الذي مرّ دون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية ، التي كان يحميها ريموند وأدهيمار وجودفرى من أيام حصار كربوغا . واستسلم الجميع باستثناء الكونت . فرغم حالة الضعف التي كان عليها ريموند فإنه لم يشأ أن يتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات ، والوعود ، والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الداخلي الذي قوّض أسس العلاقات الودية ، بحيث أن قلة فقط هي التي كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء ، أو الخدم على السرقة أو العنف . وفي غيبة قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، فإن كل شخص أصبح قانوناً في حد ذاته . وفي هذه الظروف لم يكن الكونت المريض والأسقف يقدمان حماية كبيرة لأتباعهما . ولكن لماذا نشغل أنفسنا بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ؟ فالصليبيون الذين كانوا يرفلون في خمول وثراء ، وخلافا لأوامر الله ، أجلوا الرحلة حتى أول نوفمبر . ونحن نعتقد ، أن الفرنجة لو تقدموا ، فإنه لم تكن هناك مدينة بين أنطاكية وبيت المقدس تلقى عليهم حجرا واحداً ، فقد كانت مدن المسلمين في ذلك الوقت تعيش في رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا [2] .

في هذه الأثناء ، انتقل إلي الرب في سلام – في الأيام الأولى من أغسطس أدهيمار [3] اللورد أسقف لى بويه المحبوب من الرب والناس ، والذي كان بلا خطأ في تقدير الجميع . وكان حزن كل المسيحيين عليه عظيما عندما

= وفى الحقيقة ، فقد حل النشاط محل التراخى ، ولم يتردد ريمونداجيل فى استخدام معلوماته عن التصرف السديد الذى سلكه الفرنج فى هذه اللحظة . كما بين أيضا التباين بجعل كربوغا مضطرب النفس وهو يلعب النرد .

(٥) لم يتم التعرف على من يحمل لقب ميردالين Mirdalin من رجال كربوغا . وربما كان فى الاسم تحريفا قائما على الكلمة الفرنسية القديمة أميرال Amiral ، من كلمة أمير العربية . وقد نصح وثاب بن محمود وهو قائد عربى ، نصح كربوغا بأن ينقض على الفرنج بمجرد خروجهم من المدينة . واختار كربوغا أن يهاجمهم جميعا دفعة واحدة على أمل أن يحقق نصرا كاملاً .

– ربما اغتر كربوغا بضخامة قواته حيث أمر كاتبه أن يرسل إلى الخليفة العباسى وإلى السلطان السلجوقى يخبرهما بحصاره للفرنج ، ويؤكد انتصاره عليهم . وربما أكد له فكرته هذه ما سمعه عما سببته المجاعات للفرنج من متاعب . انظر : ابن الأثير ؛ راجع أيضا :

Monitum in Balduini III, Historia Nicenae vel Antiochenae Prologum, in RHC - H. Occ., vol. 5, p. 163.

(الترجمة العربية) .

(٦) لم يكن وصف ريمونداجيل للمعركة ثريا بالمعلومات التاريخية . ويفضل المؤرخ أن يكتب عن مواكب الفصائل الصليبية مقارنا إياها بالمواكب الكهنوتية . ويستخدم الحربة المقدسة كأثر نافع فى المعركة ، ولم يقاوم نفسه فى جعل المطر الخفيف المحب يسقط على الصليبيين . وهرقل هو فيكونت بوليجناك Polignac وهو الأخ الأصغر ليونز . ومدينة بوليجناك تقع بالقرب من لى بويه مقر أسقفية أدهيمار . ولقد عارض بونز وهرقل إصلاحات أدهيمار .

(٧) يذكرنا انتصار الصليبيين « بهروب السريان فى السامرة » . وهذا التشبيه مقتبس من سفر الملوك . انظر Liber Quartus Regum, 7 : 18.

وقد وقعت المعركة فى صباح يوم ٢٨ يونية ١٠٩٨م / ٢٦ رجب ٤٩١ هـ .

الفصل التاسع

موت أدهيمار والإبلاغ عن رؤى

فى أعقاب الإنتصار استولى بوهيمند ، والكونت والدوق ، وكونت الفلاندر على القلعة من جديد ، ولكن بوهيمند أضمر شرا دفعه إلى الإثم ، فاستولى على الأبراج العالية ، وطرد بالقوة أتباع جودفرى وكونت الفلاندر وكونت سان جيل من القلعة متعللا بأنه كان قد أقسم للتركى الذى سلمهم أنطاكية أنه هو فقط الذى سيتسلمها [١] . وتشجع بوهيمند بهذا العمل الذى مرّ دون عقاب ، فجاء يطالب بالقلعة وبأبواب أنطاكية ، التي كان يحميها ريموند وأدهيمار وجودفرى من أيام حصار كربوغا . واستسلم الجميع باستثناء الكونت . فرغم حالة الضعف التى كان عليها ريموند فإنه لم يشأ أن يتنازل عن باب الجسر ، ولم تثنه عن عزمه الصلوات ، والوعود ، والتهديدات .

وقلق قادتنا بسبب الصراع الداخلي الذى قوّض أسس العلاقات الودية ، بحيث أن قلة فقط هى التى كانت تتجنب النزاعات مع الزملاء ، أو الخدم على السرقة أو العنف . وفى غيبة قاض يمكنه أن يناقش القضايا ، فإن كل شخص أصبح قانوناً فى حد ذاته . وفى هذه الظروف لم يكن الكونت المريض والأسقف يقدمان حماية كبيرة لأتباعهما . ولكن لماذا نشغل أنفسنا بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ؟ فالصليبيون الذين كانوا يرفلون في خمول وثراء ، وخلافا لأوامر الله ، أجلوا الرحلة حتى أول نوفمبر . ونحن نعتقد ، أن الفرنجة لو تقدموا ، فإنه لم تكن هناك مدينة بين أنطاكية وبيت المقدس تلقى عليهم حجرا واحدا ، فقد كانت مدن المسلمين فى ذلك الوقت تعيش فى رعب وضعف شديدين بعد هزيمة كربوغا [٢] .

فى هذه الأثناء ، انتقل إلي الرب فى سلام - فى الأيام الأولى من أغسطس أدهيمار [٣] اللورد أسقف لى بويه المحبوب من الرب والناس ، والذى كان بلا خطأ فى تقدير الجميع . وكان حزن كل المسيحيين عليه عظيما عندما

مات ، حتى أننا ، وقد كنا شهود عيان له ، لم نستطع أن نصف ردود الأفعال عندما شرعنا فى تسجيل عظمة الأحداث . ولقد أثبت تشتت القادة فى أعقاب موت أدهيمار ، وعودة بوهيمند إلى قيليقية ، ورحلة جودفرى إلى الرها [٤] كم كان أدهيمار نافعاً لجيش المسيح Militia Christi ولقادته .

وفى الليلة التالية لدفن الأسقف فى كنيسة بطرس المبارك فى أنطاكية ، ظهر الرب يسوع وأندرو المبارك وأدهيمار فى كنيسة ريموند لبطرس بارثولوميو ، وهو الرجل الذى كان قد حدد موقع الحربة فى أنطاكية . ثم قال أدهيمار لبطرس :

« الشكر للرب ولبوهيمند ولكل أخوتى اللذين خلصونى من الجحيم . فبعد اكتشاف الحربة ، أمعنت فى الآثام ، وألقى بى لذلك فى الجحيم . وجُلدت بقسوة ، وكما يمكنك أن ترى ، فقد احترق رأسى ووجهى . وبقيت روحى فى الجحيم منذ الساعة التي غادرت فيها جسدى ، حتي أعيد جسدى التعس إلى التراب . أما الثوب الذى تراه الآن فهو ثوب أعاده الرب إلىّ فى اللهب المشتعل لأننى عند ترسيمى أسقفاً كنت قد أعطيته لأحد الفقراء . شكراً للرب ورغم أن جهنم كانت تغلى وكلاب جهنم تزمجر فى وجهى ، فإنها لم تصب منى أى شيء تحت الثوب ، ولم ينفعنى من كل الأشياء ، التي حملتها من وطنى ، كما أفادتنى شمعة قدمها أصدقائى تقدمة لى ، والدنانير الثلاثة التى قدمتها للحربة ، فقد أحيتنى هذه الصدقات عندما خرجت من الجحيم . وقال سيدى بوهيمند أنه سيحمل جسدى إلى بيت المقدس . ومن أجل خاطره ، فإنه لن ينقل جثمانى من مقره لأن بعض دم الرب الذى أصبحت الآن مرتبطاً به مازال هناك » .

« ولكن إذا كان يشك فى أقوالى فليفتح قبرى ، وسيرى رأسى ووجهى المحترقين . وقد عهدت بأتباعى إلى سيدى ، الكونت ، فليعاملهم ريموند بعطف حتى يكون الله رحيماً ويفى بوعوده . كما أن إخوتى لاينبغى لهم أن يحزنوا لموتى ، لأنى ساكون أكثر نفعاً ، وأنا ميت ، مما كنت حيا ، إذا شاءوا المحافظة

على قوانين الرب . فسأعيش أنا وكل إخوتى الراحلين معى ، وسوف أظهر وأقدم نصحاً أفضل مما كنت أقدمه حيا . فاهتموا يا إخوانى بآلام الجحيم الثقيلة المخيفة واعبدوا الرب ، مُخلّص الإنسان من هذه الآلام وغيرها . فالسعيد حقا من ينجو من عقوبات الجحيم . فالمخلص سيستطيع أن يمنح عفوه لمن حافظوا على وصاياه . كما عليكم أن تُبقوا علي هذه النقاط المتساقطة من هذه الشمعة والمتبقية عند الفجر . ولما كنت ميتاً فلينتخب الكونت ورجاله المختارون أسقفاً بدلاً منى ، حيث أنه لايليق أن يبقى كرسى أسقفية لمريم المباركة بدون أسقف ، واعطوا إحدى عباءاتى لكنيسة القديس أندرو » [٥] .

ثم قدم أندرو المبارك احتراماته واقترب وأمر : « اهتموا بكلمات الله التى أنطق بها . تذكر يا ريموند الهدية التى سلّمها لك الرب ، وليكن ما تفعله باسمه حتى يرشدك الرب في كلامك وأفعالك ، ويقبل صلواتك . فإن نيقية أول مدينة منحها لك الرب ، إنما حوّلها هو إليك . لقد أعطاك الرب مدينته ، وانتزعها من أعدائك . لكى تتذكر له بعد ذلك فى هذا المكان لأن أعمال الرب لم تكن معروفة هناك ، وإذا طلب أحد معونة الرب كان يعاقب . ومع ذلك فإن الرب بخيره وإحسانه لايريد أن يتخلى عنكم ؛ وسيمنحكم ماتطلبون ، بل وأكثر مما جرؤتم على طلبه ، لأنه سلّم لكم الحربة ، التى اخترقت جسمه الذى جرى منه دم إفتدائنا [٦] . وتذكروا أن الرب لم يعطكم هذه المدينة لتدنّسوها كما فعلتم فى الأخرى ، وتستطيعون بكل تأكيد أن تروا أن الرب لم يعطها لمزايا فيكم » .

« إن الرب يأمرك ، يا ريموند ، أن تعرف من يطمح أكثر إلى حكم أنطاكية ، وتستفسر عن دور الرب فى حكمه . لذلك فإذا وجدت أنت وإخوانك ، وأنتم الحراس على أنطاكية ، من يقوم بإخلاص على عدالة الرب ، فاعطوه المدينة . ولكن إذا كان يخطط للاحتفاظ بأنطاكية بالقوة ، محتقرا بذلك العدالة والحكم ، فاطلب أنت وإخوانك المشورة من الرب ، وسوف يقدمها لك . ولن يخذلك الأتقياء والذين يعبدون الرب حقاً . أما غير الأتقياء ، فيمكنهم أن يعودوا إلى من

هو عدو للعدالة ، وسترون كيف سينقذهم الرب ، ستنزل بهم حقاً نفس اللعنة التى أنزلها الرب وأمه بإبليس الذى هوى . فإذا كنتم متفقين ، فاطلبوا النصح فى الصلاة ، وسيقدمه لكم الرب » .

« وإذا كنتم متفقين : فاعقدوا مجلساً بخصوص بطريرك لقانونكم . ولا تمنحوا الغفران للأسرى الراغبين في التمسك بوصاياكم . ولا تسمحوا لهؤلاء الذين اتبعوا القرآن لكى يعبدوا الله الذى يعبده الأتراك Allah [٧] . أنظروا إليهم كأتراك . وأرسلوا اثنين أو ثلاثة إلى السجن وسيدلونكم على الآخرين . وبعد الانتهاء من هذه المهمة ، اطلبوا مشورة الرب بخصوص الرحلة الصليبية ، وسيمحضكم النصح . ولكن إذا لم تنفذوا هذا الأمر ، فإنكم لن تصلوا بيت المقدس فى عشر سنوات ، رغم أنها لاتبعد عنكم إلا عشرة أيام ، وسأقود الكفار إلى بلادهم من جديد ، وسينتصر مائة منهم عليكم . وبالاضافة إلي ذلك ، فان عليكم ياخدم الرب ، أن تستعطفوا الرب كما فعل الرسل ، وكما استجاب لصلاتهم فانه سيستجيب لصلاتكم » .

« أما أنتما ، يا ريموند وبوهيمند ، فاذهبا إلى كنيسة أندرو المبارك . وسيعطيكم أفضل نصيحة من الرب . واتبعوا مايضعه الرب فى قلوبكم . وبعد هذه الرؤيا لأندرو المبارك تذللوا أمامه . لا أنتم فقط ، بل اجعلوا اخوانكم يفعلون ذلك أيضا . وبكل وسيلة ، اجعلوا السلام وحب الرب يسود بينكم ، ياريموند وبوهيمند ، لأنكما إذا اتفقتما ، فلن يستطيع شيء أن يحطمكما . ويليق بكما أن تعلنا العدالة التى يجب أن تقيمانها . فاجعلا كل الرجال الموجودين عن طريق أسقف كل منهم يعلنون على الملأ قيمة ثرواتهم ، ويساعدون الفقراء حسب مقدرتهم والحاجة إلى هذه المساعدة . وتصرفوا طبقاً لاتفاق عام . وإذا لم يريدوا مراعاة هذه القاعدة وغيرها من القواعد العادلة ، فاكبحوا جماحهم . وإذا رغب أى شخص فى امتلاك أى مدينة ، اعطاها له الرب من أجل المسيحيين ، فيسلك المسلك الذى يتفق مع الوصايا المذكورة . وإذا لم يفعل فليعاقبه الكونت وأبناء الرب » .

ولقيت تحذيرات القديس أندرو تصديقا فى أول الأمر ، ولكن سرعان ما كان نصيبها التجاهل ، فقد قال بعض الصليبيين « فلتزدْ أنطاكية إلى ألكسبوس » ، ولكن آخرين اعترضوا .

وفيما بعد ، وأثناء حصار عرقة ، وبينما كان بطرس بارثولوميو يرقد رقاد الموت ، استدعى الكونت وأوصاه قائلا : « عند وصولك إلى بيت المقدس مر الجيش أن يصلى للرب ليطيل حياتك وسوف يضاعف الرب عمرك . وعند عودتك ضع الحربة على بعد خمسة فراسخ من كنيسة سان تروفيموس ومر ببناء كنيسة هناك : وانذر - بقسم - مالاً كثيرا ، ولا تسمح بارتكاب أى باطل فى هذا المكان [٨] . وسيسمى هذا المكان جبل البهجة ، ولعل هذه الأشياء تنفذ فى بروفانس لأن بطرس المبارك وعد تلميذه تروفيموس أن يسلمه الحربة المقدسة » [٩] .

وأهملت مصالح الفقراء بسبب الصراع والشقاق ، ولم يحدث شيء بخصوص المشورة التى تلقاها القادة من القديس أندرو فى ذلك الوقت ، حاصر أتراك حلب قلعة تسمى عزاز Aziz [١٠] . وقلق الأتراك المحاصَرين داخلها ، فطلبوا من جودفرى ، الذى كان فى منطقة قريبة منهم ، أن يسلموه قلعتهم ، لأنهم يفضلون سيداً فرنجيا . وبالتالى إستدعى الدوق عند عودته إلي أنطاكية ، ريموند الذى كان قد شفى من مرضه ، وكل فرسانه ومشاته الذين كان الكونت قد قادهم إلى أراضى المسلمين لنهب الريف من أجل الفقراء .

كما جدّ فى طلبه من ريموند أن يسرع الأخير من أجل الرب ، ومن أجل شرف جيش الفرنجة - لمساعدة الأتراك المرتدين الذين كانوا الآن يستصرخون الرب . كما أوضح أن الأتراك المحاصرين رسموا علامة الصليب فى مواجهة آلات المحاصرين . ونتيجة لهذه الإلتماسات وغيرها ، سار الكونت مع جودفرى . إلا أن الأتراك تخلوا عن الحصار لدى سماع هذا النبأ . وبالتالى فعند وصول جيشنا إلى عزاز ، أخذ الدوق رهائن من القلعة ليضمن ولاء أهل عزاز فى المستقبل ، وعاد

ريموند إلى أنطاكية وقد تكبد جيشه نفقات كبيرة . وهنا ، استدعى فرسانه لكى يقود الناس الفقراء ، الذين انخفضت معنوياتهم بسبب الجوع والتعب إلى أملاك المسلمين [١١] .

وفى نفس الوقت ظهر القديس أندرو لبطرس بارثولوميو فى خيمة فى قلعة الروج Castel - Rouge التى كان يحتلها أسقف أبت Apt ، وريموندا جيل ، كاهن الكونت ، وكان يدعى سيمون . وعندما سمع سيمون الحديث بين القديس أندرو وبطرس ، غطى رأسه ، وكما قال فيما بعد ، سمع كثيرا مما دار ، ولكنه لم يذكر إلا « سيدى ، إننى أقول ... » [١٢] .

ومع ذلك فقد أضاف أسقف أبت « إننى غير متأكد ما إذا كنت قد رأيت حلماً أو لم أر . ولكن رجلاً كبيراً فى السن يرتدى عباءة بيضاء ، ويمسك فى يديه حربة الرب المقدسة ، وسألنى : « هل تؤمن بأن هذه حربة يسوع المسيح ؟ » .

فأجبت قائلاً : « إنى مؤمن بذلك ياسيدى ! » وعندما كرر السؤال مرة ثانية وثالثة أجبت قائلا « حقاً إننى اعتقد أن هذه هى الحربة التى استنزفت الدم من جنب يسوع المسيح الذى افتدى به الجميع » .

ثم هزنى أسقف أبت ، وريموندا جيل ، وأنا نائم على مقربة . وعندما استيقظت لاحظت الضوء غير العادى ، وكما لو كانت النعمة الإلهية قد دخلت روحى ، استفسرت من أصدقائى الحاضرين عما إذا كانوا يشعرون كما لو كانوا فى مجموعة تحركها عاطفة عظيمة ، وردوا جميعاً : « لا ، حقاً » . وبينما كنت أردد ما سبق ، إجاب بطرس متلقى الوحى السماوى « إنك رأيت فعلاً نوراً مبهجاً لأن الرب ، صاحب كل النعم ، كان يقف فى هذه البقعة لفترة طويلة » .

وعندما طلبنا منه أن يحكى كلمات زواره السماويين ذكر بطرس لنا وللكونت ما يلى :

« الليلة جاء هنا الرب وأندرو المبارك فى شكلهما المعتاد ، فى صحبة

رفيق صغير ، ذى لحية طويلة ويرتدى ثوبا من الكتان . ثم أن أندرو المبارك ، وقد أسخطه أننى تخليت عن رفاته الموجودة فى الكنيسة فى أنطاكية ، هدد فى عنف واستأنف قائلاً ، بعد أن ألقانى الكفار من فوق الجبل بدون احترام ، إنكسر لى إصبعان ، وبعد موتى حفظهما هذا الرجل ثم نقلهما إلى أنطاكية . ولكنك لم تهتم كثيرا ببقاياى بعد أن عثرت عليها ، فسمحت بسرقة أحدهما ، ورميت الآخر بشكل مشين : « ثم أرانى يده التى كان ينقصها إصبعان » .

واستأنف بطرس قائلا : « أيها الكونت ، لقد انتقدك القديس أندرو بقسوة ، لأنك لا تخشى ارتكاب الآثام الخطيرة الشريرة ، رغم انك تلقيت الهدية التى لا توصف التى حفظها الرب لك وحدك . وهذا هو السبب فى أن الرب أعطاك هذه العلامة : وهى على وجه التحديد ، أنك فى عيد القديس فيديس منذ خمسة أيام قدمت تقدمة هى شمعة كبيرة تستغرق ثلاثة أيام وثلاث ليال لتحترق . ولكنها سرعان ماذابت ، وهوت إلى الأرض . وهذه الليلة على العكس من ذلك قدمت شمعة صغيرة لاتكاد تكفى لأن تحترق تماماً قبل صياح الديكة ، وهى تلقى ضوءها ولم يذب إلا ثلثها الآن ، رغم أن النهار قد طلع الآن [١٣] .

لذلك فان الرب يطلب منك هذه الأشياء : لا تقم بشىء حتى تكون قد كفرت عن ذنوبك ، لأنك إذا لم تفعل ذلك ستكون أنت ومشروعاتك كشمعة ذائبة تهوى إلى الأرض . ولكن الرب سيجعل كل أعمالك تامة ناجحة باسم الرب ، إذا كفّرت ، وسيضخم الرب جهودك الصغيرة ، كما جعل هذه الشمعة الصغيرة التى تراها تبقى وقتاً طويلاً » .

ورغم أن ريموند أنكر جسامة آثامه ، فانه اعترف وكفّر عنها بعد أن واجهه بطرس بارثولوميو بذنبه .

واستمر بطرس فى توجيه كلامه إلى الكونت : « أيها الكونت إن أندرو المبارك يعترض على مستشاريك لأنهم قدموا لك نصيحة سوء لغرض ما ، ولهذا

فإنه يأمرك أن تتجاهل نصيحتهم . إلا إذا اقسموا على ألا يعطوك نصيحة غير طيبة وهم يعلمون ذلك » .

« استمع جيداً يا ريموند . إن الرب يأمرك بألا تضيع الوقت ، لأنه سيساعدك فقط بعد الاستيلاء على بيت المقدس ، ولا تجعل صليبياً يقترب أكثر من فرسخين عندما تقترب من بيت المقدس . وإذا اتبعت التعليمات ، فان الرب سيسلمك المدينة » .

« وبعد هذه الأوامر شكرنى القديس أندرو كثيراً لأننى حققت تكريس الكنيسة التى شيدت باسمه فى أنطاكية . ولم يتكلم فى هذه الأمور فقط بل فى أمور أخرى لاتخصنا الآن . وبعد ذلك صعد هو ورفيقاه إلى الفضاء » .

* * * * *

(١) قام أحمد بن مروان ، متولى القلعة ، بتسليمها للفرنج بعد تأكده من هزيمة كربوقا . وسمح الفرنج لحامية القلعة بالخروج منها ، وارتد أحمد بن مروان . ويقرر ريمونداجيل أن الصليبيين اشتركوا فى امتلاك القلعة ، بينما يقرر مؤلف الجستا أن ابن مروان قد عدل عن رأيه ولم يسلم القلعة لكونت تولوز ، وأعطاها لبوهيمند . انظر : Gesta, p. 158.
ويذكر ريموندأجيل أن بوهيمند كان « يضمر الشر الذى دفعه إلى الإثم » . انظر : Psalm, 7 : 5 . وفى ذلك الوقت أصبح العداء بين كونت تولوز وبوهيمند صريحا .

(٢) يعكس المؤرخ سوء فهم رجال الدين حين تتأزم الأمور العسكرية . وقد فرضت مشاكل الجيش المجهد ، والإمدادات ، وظروف الطقس (الصيف) على الفرنج تأجيل المسير إلى بيت المقدس والبقاء عند أنطاكية .

(٣) كان موت المندوب البابوى نتيجة لوباء تفشى فى أنطاكية لكثرة الجثث التى لم يتم مواراتها التراب . انظر :
Albert d'Aix, p. 435.
(الترجمة العربية) .

(٤) إلتمس زعماء الفرنج ملاذا لهم بعيدا عن أنطاكية تجنبا للوباء المنتشر فى المدينة . فاجتاز بوهيمند جبال طوروس إلى قيليقية حيث أكد سلطاته فيما استولى عليه تنكريد من أملاك . كما توجه جودفرى إلى تل باشر والراوندان حيث سلمهما له أخوه بولدوين . بينما توجه روبرت النورماندى إلى اللاذقية . انظر :
Ibid, pp. 440 - 441.
(الترجمة العربية) .

(٥) مات أدهيمار فى أول أغسطس ١٠٩٨م . وقد مدحه المؤرخ بالرغم من أنه كان غاضبا منه لتشككه فى الحربة المقدسة . وروايته عن عودة أدهيمار فى رؤيا كانت بشكل خيرى . وهناك رواية مشابهة فى عودة القديس فيورسى Fursey . انظر :
Benjamin Thorpe, The Homilies of the Anglo - Saxon church, London, 1844 - 46, 2, pp. 322 - 439.
ولقد أنقذ أدهيمار من العقاب لأنه كان إنسانا طيبا . وعن المقالات المتعلقة بإسهامات أدهيمار ، انظر مقدمة الترجمة الانجليزية ، حاشية رقم (١٩) . ويذهب جيمس برونداج =

= أننا ننقص من قدر الدور الذى قام به أدهيمار . ولقد أوضحنا أن المصادر الأولية محدودة للغاية ، وأن مؤيدى أدهيمار يجب أن يتناقشوا بسبب هذا الصمت . ونحن أيضا نبحث سبب هذا الصمت فى المصادر . واعترافا بحقيقة أن أدهيمار قد مات فى وقت حرج ، فإننا لانستطيع القول بأنه استطاع أن يلم شمل الصليبيين . فبمجرد أن زال الخطر المشترك ، فمن غير المحتمل أن يكون أدهيمار قد استطاع أن يمنع الإنشقاق بين النورمان والبروفنساليين . وقد عبر ريمونداجيل أحسن تعبير عن ذلك حين قال على لسان أدهيمار أنه « سيكون أكثر نفعاً وهو ميت منه وهو حى » .

(٦) رواية المؤرخ عن تعليمات أندرو إلى ريموند جاءت مبهمة ، وفيها يعد أندرو بأن « الرب لايريد أن يتخلى عنكم ، وسيمنحكم ما تطلبون » وربما نلاحظ هذا التعبير فى العهد القديم (المزامير وسفر التثنية) . انظر :
Psalms, 24 : 5-6; Deuteronomy, 31:8;

(٧) يستعمل المؤلف كلمة Corozanım (خراسان) ليصف بلاد الوثنيين . انظر ماسبق من الفصل الخامس ، حاشية (١) ، انظر أيضا :
Matthew, 11 : 21; Lukem 10 : 13 .
وقد تجاسرنا على استعمال كلمة « القرآن » نظرا لحقيقة أن معنى تبليغ ريمون واضح .

(٨) وعرقة مدينة اسلامية تقع على بعد خمسة عشر ميلا من طرابلس . ويقدم المؤرخ الأحداث فى روايته ويكشف عن مهارته فى كتابة التاريخ بعد الأحداث .

(٩) كان تروفيموس Trophimus أسقفاً أسطوريا لآرلس Arles ومن المفروض أنه تابع للقديس بطرس . انظر :
Acts, 20 : 4, 21 : 29.
وقد تأصلت التعاليم الخاصة بكنيسته فى الأسطورة . وكان مصلى النبى صموئيل يسمى جبل البهجة Montjoie .

(١٠) عزاز Azaz أو Hazart مدينة من مدن العصور الوسطى تقع إلى الشمال الشرقى من أنطاكية . وكانت الحملة على عزاز فى ١٤ - ١٧ سبتمبر ١٠٩٨ م .
- « عزاز » بليدة بها قلعة ، تقع على بعد أربعين كيلومترا شمالى حلب ، على الطريق الرئيسى بين أنطاكية من ناحية ، والرها وتل باشر من ناحية أخرى . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٦٦٧ .
ومن الواضح أن الترجمة الإنلجيزية لم تهتم بتحديد المواقع التى لم يرد لها وصف فى كتب المؤرخين اللاتين المعاصرين . إلا أنه من الواضح أن الترجمة الانجليزية كان جلّ =

= الاهتمام خلالها بترجمة النص اللاتينى . فالمعلومات عن هذه المواقع متوفرة فى كتب الرحالة اللاتين ، الذين تزخر بأعمالهم مجموعة نصوص حجاج فلسطين وبيت المقدس .
(الترجمة العربية) .

(١١) موضوع ارتداد بعض المسلمين عن الاسلام ، الذى يرد فى المصادر اللاتينية يحتاج لدراسة منفردة حيث تكتنفه الشكوك . وهذا ماسنقوم به فى بحث منفصل إنشاء الله .
أما مايورده ريموندا جيل هنا تنقصه الدقة ويبعد عن الحقيقة . فكل ماحدث أن ابن عمر صاحب عزاز كان قد خرج عن طاعة سيده رضوان ملك حلب السلجوقى . واستنجد بالفرنج بعد أن قام رضوان بحصار عزاز . وبحضور الفرنج اضطر رضوان أن يرفع حصاره عنها . وأقر الفرنج ابن عمر فى أملاكه ، واتخذه ريموند كونت تولوز فصلا من أفصاله . انظر : ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤١ . راجع أيضا :
Albert d'Aix, pp. 435 - 449.
وهذا الحدث يدل على أن الأمراء المسلمين - المنقسين على أنفسهم - بدأوا يستعينون بالفرنج فى منازعاتهم ، كما يدل على أن الفرنج أنفسهم بدأوا يميلون إلى أن ينتمى إليهم أتباع مسلمون ، مما يسهل لهم تحقيق أطماعهم فى المنطقة . انظر :
Runciman, op. cit., vol. 1, p. 257.
(الترجمة العربية) .

(١٢) قلعة الروج (القلعة الحمراء) Chast.: Rouge قلعة من قلاع الفرنج وكانت تسمى روجيا Rugia . وتقع جنوبى أنطاكية . وكان أسقف آبت Apt ضمن معية ريموند كونت تولوز . وآبت أحدى مدن إقليم بروفانس . وسمعان Simon هو قسيس إقتصر التعريف به على الاشارة القصيرة التى أوردها ريموندا جيل عنه .
- والروج كورة من كور حلب فى غربيها بينها وبين المعرة . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٨٢٨ .
(الترجمة العربية) .

(١٣) حشرت قصة الشمعة الذاتية فى ثنايا معلومات المؤرخ عن العلوم القدسية . كلما استغرقت الشمعة وقتا أطول فى الإحتراق ، كلما زادت طهارة من قدمها . وعندما تحترق شمعة ريموند بسرعة فهو يتوقع عقابا دينيا . أنظر :
Patrick F. Moran, Acta Sancti Bernard, Dublin, 1872, pp. 107 - 136.
وكان يحتفل بعيد القديس فيديس Fidis فى ٦ أكتوبر من كل عام .

الفصل العاشر

الاستيلاء على البارة ومعرة النعمان

وبعد ذلك بوقت قصير تقدم ريموند ، يصحبه الحجاج الفقراء وقلة من الفرسان ، داخلين الشام حيث استولى بشجاعة على البارة ، ، أول مدينة إسلامية في طريقه [1] . وهنا قتل الآلاف ، وأعاد آلاف غيرهم ليباعوا كعبيد في أنطاكية ، وأطلق سراح الجبناء الذين استسلموا قبل سقوط البارة . وبعد ذلك ، وعملا برأي كهنته وأمرائه ، اختار الكونت بطريقة صحيحة تستحق الثناء ، كاهنا ليكون أسقفا ، وبعد اجتماع عام تسلق أحد كهنة الكونت الأسوار ، وأعلن على كل الناس رغبات ريموند . ولما كان الناس يطالبون بالانتخاب ، فقد سأل الكاهن المذكور عما إذا كان هناك رجل دين يمكن أن يتلقى ولاء المؤمنين ، ويساعد الرب وإخوته بالتصدي للوثنيين بقدر ما يستطيع .

ووسط الصمت الذي تلا ذلك ، استدعينا بطرس ، وهو من مواطني تاربون وأوضحنا له على الملأ ، عبء الأسقفية ، حثثناه على تولي المنصب إذا كان عازماً على الاحتفاظ بالبارة حتى إلى أن يموت . وعندما وعد بقيامه بذلك ، وافق عليه الناس بالإجماع ، وشكروا الرب كثيرا لأنهم كانوا يريدون أسقفاً رومانياً في الكنيسة الشرقية [2] . وأعطى ريموند لبطرس التاربوني نصف البارة والمناطق المحيطة بها .

واقترب أول أيام شهر نوفمبر ، وهو الوقت المحدد لتجمع الصليبيين من جديد لمواصلة زحفهم . وكانت البارة على مسيرة يومين من أنطاكية . ونتيجة لذلك ترك ريموند جيشه في البارة ، ورحل إلى أنطاكية مع بطرس ، أسقفه الجديد ، وأسرى كثيرين وغنائم كثيرة . وهنا تجمّع كل الأمراء باستثناء بولدوين شقيق جودفري . واتجه بولدوين هذا ، بعد أن انفصل عن الجيش الصليبي الرئيسي ، إلى الفرات قبل الاستيلاء على أنطاكية ، واستولى على مدينة الرها الغنية المشهورة وخاض عدة معارك ناجحة ضد الأتراك .

وقبل أن انتقل إلى أحداث أخرى يجب أن أحكى لكم هذه الحكاية . فعندما كان جودفرى فى طريقه إلى أنطاكية مع اثنى عشر فارساً قابل مائة وخمسين من الأتراك ، فلم يتردد أبداً ، وأعد أسلحته ، وحث فرسانه ، وهاجم العدو بشجاعة ، ولكن المسلمين الذين آثروا - مجبرين - الاختيار الأعرج للموت على النجاة بالفرار ، اختاروا أن يترجل بعض رجالهم حتى يطمئن الأتراك الراكبون إلى أن أصدقاءهم المترجلين لن يتخلوا عنهم ويلوذوا بالفرار . ونتيجة لذلك ، فأثناء القتال الطويل العنيف ، هاجم فرسان جودفرى العدو بشجاعة ، وكان عددهم مساويا للإثنى عشر رسولاً ، وكانوا شديدى الإيمان بأن الدوق هو كاهن الرب . ووهب الرب الدوق نصراً عظيماً جداً ، حتى أنه قتل حوالى ثلاثين من المسلمين ، وأسر مثل هذا العدد ، وطارد الهاربين ، فقتل كثيرين آخرين أو جعلهم يغرقون في المستنقع والنهر القريبين . وعاد جودفرى إلى أنطاكية ظافراً فى نصر بهيج ، وقد حمل الأسرى من الأعداء رءوس زملائهم القتلى [٣] .

بعد ذلك بدأ الأمراء فى إجتماع ضمهم فى كنيسة بطرس المبارك ، يخططون لاستئناف الزحف إلى بيت المقدس . ثم سأل بعض من يحتفظون بقلاع أو أملاك مؤجرة فى المناطق المحيطة بأنطاكية : « ماسيتم بشأن أنطاكية ؟ من سيحرسها ؟ إن ألكسيوس لن يأتى ، تذكُّروا أنه هرب عندما سمع أن كربوغا قد حاصرنا ، لأنه لم يكن لديه ثقة فى قوته أو فى جيشه الكبير . هل سننتظره أكثر من ذلك ؟ من المؤكد ، أن من أجبر إخوتنا ومن جاءوا لمساعدة الرب على التراجع ، لن يأتى لمساندتنا . ومن ناحية أخرى فإننا إذا تخلينا عن أنطاكية واستردها الأتراك ، فان النتيجة ستكون أكثر خطورة من الاحتلال الأخير . فلنعطها لبوهيمند وهو رجل حكيم يخشاه المسلمون ، وهو رجل سيحميها جيداً .

ولكن الكونت وآخرين اعترضوا على ذلك قائلين : « لقد أقسمنا على صليب الرب ، وإكليل الشوك وآثار كثيرة ، على أننا لن نحتفظ ، دون موافقة الامبراطور ، بأى مدينة أو قلعة فى مناطق نفوذه » [٤] .

وهكذا انقسم الأمراء بسبب هذه الخلافات وتكلموا بعنف شديد حتى كادوا يستخدمون أسلحتهم . والواقع أن جودفرى وروبرت كونت الفلاندر لم يهتما كثيرا بمسألة أنطاكية ، وكانا يؤيدان ، سراً ، تملك بوهيمند لها ، ولكنهما خوفا من عار الحنث باليمين ، لم يجرءا على التوصية له بها [٥] . ونتيجة لذلك ، تم تأجيل الرحلة وكل مايتعلق بها من مسائل ، وكذلك الاهتمام بالفقراء .

وبدأ الناس بعد أن راقبوا هذه الضجة بين الأمراء ، يقترحون بشكل سرى فى أول الأمر ثم علنا بعد ذلك : « واضح أن قادتنا لايرغبون فى قيادتنا إلى بيت المقدس إما بسبب الجبن أو بسبب القسم الذى أقسموه لألكسيوس . فلماذا لانختار نحن فارساً شجاعاً يمكن أن نأمن على أنفسنا ونحن فى خدمته ، وسنصل إن شاء الله إلى القبر المقدس معه كقائد لنا . يا إلهى ! عام مضى فى أرض المسلمين ، وفقدان مائتى ألف جندى . ألا يكفى هذا ؟ [٦] فلندع أولئك الذين يطمعون فى ذهب الإمبراطور ، أو ريع أنطاكية ، يحصلون على مايريدون ، أما نحن الذين تركنا أوطاننا من أجل المسيح ، فلنستأنف مسيرتنا معه قائداً لنا . وليمت الطامعون فى أنطاكية فى بؤس كما مات سكانها حديثا . وإذا استمر النزاع حول أنطاكية فلنهدم الأسوار ، فعندئذ سيعود زمن حسن النوايا بين الأمراء ، كما كان الحال قبل الاستيلاء على المدينة ، وذلك مع تدميرها . وإلا فإن علينا أن نعود إلى بلادنا قبل أن ينهكنا الجوع والتعب » .

وأثرت هذه الآراء وغيرها فى ريمون وبوهيمند ، فعملا على تسوية الخلاف ، وفى تاريخ محدد صدرت الأوامر إلى الناس بالاستعداد لاستئناف الحملة الصليبية . وعند اكتمال كافة تفاصيل الاستعداد لهذا الزحف ، تقدم كونت سان جيل وكونت الفلاندر مع الناس فى اليوم المحدد إلى داخل الشام ، حيث حاصروا مدينة معرة النعمان الغنية ذات التعداد الضخم من السكان ، وكانت تقع على بعد ثمانية أميال من البارة [٧] . وبسبب قتال سابق جرى معنا وتكبدنا فيه خسائر فادحة ، فقد عيَّر أهل المدينة المتعجرفون قادتنا وسبُّوا جيشنا ودنسوا صلباننا مثبتة على أسوار المدينة ليثيروا حفيظتنا وفى اليوم التالى لوصولنا اشتد

غضبنا من السكان الوطنيين ، حتى أننا داهمنا الأسوار بشكل سافر وكنا - دون شك - سنستولى على معرة النعمان لو كان لدينا أربعة سلالم أخرى . ومع ذلك فقد صعد رجالنا سُلّمينا القصيرين الضعيفين ، بخوف ، وكان قرار المجلس بناء الآلات وحواجز العيدان ذات الشوك والمتاريس الترابية التى يمكن منها أن تصل إلى السور وتهدمه وتسوّيه بالأرض . وبينما كان هذا يحدث ، أتى بوهيمند وحاصر قطاعا من معرة النعمان . وكما ذكرنا من قبل ، فإن استعدادنا لم يكن كافيا ، إلا أن ظهور الرائد الجديد شجعنا على أن نفكر فى شن هجوم جديد عن طريق ردم الخندق المائى المحيط بالسور . ولكن هجومنا الجديد ، الذى كان أكثر تعاسة من الأول ، لم يكن مجدياً .

وإنه لما يحزننى أن أذكر أن المجاعة التى تلت ذلك جعلت أكثر من عشرة آلاف رجل يتناثرون كالماشية فى الحقول ، ينبشون ويبحثون عن حبوب القمح أو الشعير أو الفول أو أى خضروات [8] . وعلى الرغم من استمرار العمل فى آلات الهجوم ، فإن بعض رجالنا بلغ من تأثرهم بالبؤس المحيط بهم وجرأة المسلمين ، أن فقدوا الأمل فى رحمة الرب وولوا الأدبار .

ولكن الرب حامى عباده ، أشفق الآن على شعبه عندما رآهم فى حمأة اليأس والقنوط . وهكذا استخدم الرسولين المباركين بطرس وأندرو ليبلغنا بمشيئته وسبل تلطيف أمره القاسى . ففى منتصف الليل ، دخلا كنيسة الكونت الخاصة وأيقظا بطرس بارثولوميو ، وهو الرجل الذى كانا قد ألهما له الحربة . ولكن بطرس بارثولوميو ، الذى تيقظ فجأة ، عندما رأى شخصين تبيحين فى ملابس قذرة يقفان بجوار الإناء الثمين الذى يضم البقايا المقدسة ، اعتقد بالطبع أنهما من الصعاليك اللصوص ، كان القديس أندرو يرتدى قباء كهنوتيا قديماً ممزقا عند الأكتاف ، تعلى الكتف الأيسر رقعة من القماش بينما كان الكتف الأيمن عارياً وكان يرتدى حذاء رخيصاً . وكان بطرس يرتدى قميصا خشنا من الكتان يصل إلى كاحله .

وسألهما بطرس بارثولوميو : « من أنتما ياسيدى وماذا تريدان ؟ » .

وأجاب بطرس المبارك : « إننا مبعوثا الرب . أنا بطرس وهذا أندرو . ولكننا اخترنا هذا الملبس حتى ترى المكاسب العظيمة التى ينالها من يخدم الرب بإخلاص . لقد أتينا فى هذه الحالة وعلى هذه الهيئة بالضبط كما ترانا أنت ، إلى الرب . والآن أنظر إلينا » .

وبعد هذه الكلمات أصبح بطرس وأندرو أكثر تألقاً وأجمل مما يمكن أن تعبر عنه الكلمات . وخرّ بطرس بارثولوميو إلى الأرض كما لو كان ميتا ، وقد استبد به الرعب للوميض المفاجىء من الضوء . ومن شدة خوفه تصبّب منه العرق حتى بلل الحصيرة التي وقع عليها . فساعده القديس بطرس على الوقوف وقال له : « لقد وقعت بسهولة » .

ورد بطرس بارثولوميو « نعم يا سيدى » ثم شرح القديس بطرس الأمر : « وهكذا سيقع كل الكفار والمعتدين على أمر الرب ، ولكن الرب سيرفعهم كما رفعتك بعد سقوطك ، إذا ندموا على أعمالهم الشريرة واستغاثوا بالرب أكثر من ذلك ، فطالما عرقك على الحصيرة ، فإن الرب سيرقع ويمحو ذنوب من يستغيثون به ، ولكن أخبرنى ، كيف يدبّر الجيش أمره ؟ » .

وأجاب بطرس بارثولوميو : « بالتأكيد لقد أثارت المجاعة قلقهم وهم فى تعاسة بالغة » .

وهنا انفجر القديس بطرس قائلا : « إن من تركوا الرب وراء ظهورهم لابد أن يخافوا ، لأنهم نسوا الأخطار التي أنقذهم الرب منها . ولم يقدموا له الشكر . ولكنك ناديت الرب عندما كنت راكعا ، وعند أنطاكية ، حتى أننا سمعناك فى السماء . لقد سمعك الرب ، وقدم لك حربته كدليل انتصار لك ، ومنحك انتصاراً رائعاً ومجيداً على المحاصرين وعلى كربوغا . لقد آذيت الرب كثيراً ، والآن ، أى رب تؤمن به أنت نفسك لكى تأمن على نفسك ؟ هل تستطيع الجبال الشاهقة أو

المغارات المخفية أن تحميك ؟ إنك لا تستطيع أن تكون فى مأمن حتى فى أشد المرتفعات منعة ومعك كل ضروراتك ، لأن مائة ألف خصم سيهددون كل واحد منكم . ففى صفوفكم القتل والنهب والسرقة فضلا عن انعدام العدالة . كما أن هناك زنا ، وإن كان مما يسعد الرب أن تتزوجوا . وفيما يختص بالعدالة فإن الرب يأمر بأن تكون كل السلع ، الموجودة فى مسكن الشخص الظالم المستبد بالفقراء ، ملكية عامة . وإن تؤدوا عشوركم ، فإن الرب على استعداد لأن يعطيكم ماتحتاجون ، لكنه سيعطيكم معرة النعمان بسبب رحمته لا لأعمالكم . تحاصروها فى أى وقت تشاءون ، وافعلوا ذلك لأنكم بدون شك ستأخذونها » .

وبعد أن سمع الكونت بهذه الأحداث فى الصباح التالى ، استدعى هو وأسقفا أورانج والبارة ، كل الناس إلى الاجتماع وتصدّق المؤمنون ، تحدوهم الآمال الكبيرة فى الاستيلاء على المدينة ، بسخاء ، وقدموا الصلوات للرب القدير ، ليحرر شعبه المسكين من أجل إسمه فقط . وعند إكتمال هذه الاستعدادات الروحية ، صنعت السلالم بسرعة ، وأقيم برج خشبى ، ووضعت الحواجز ، وعند نهاية اليوم ، بدأ الهجوم ، وأطلق المحاصَرون فى معرة النعمان الأحجار من المجانيق ، والنبال والنيران ، وخلايا النحل ، والجير ، على رجالنا الذين قوّضوا أسوارهم ، ولكن أحدا لم يصب تقريبا بفضل قدرة الرب ورحمته . ومن ناحية أخرى فإن الصليبيين هاجموا الأسوار بجرأة ، مستخدمين الصخور والسلالم فى هجوم استمر من طلوع الشمس حتى غروبها ، حقا لقد كان قتالا كبيراً لم يسترح فيه أحد ، ولم يشك أحد فى نتيجته النهائية . وأخيراً ابتهل الجميع إلى الرب أن يكون رحيما بشعبه وينفذ دعوة مبعوثيه .

وسلّمنا الرب الحاضر أبداً المدينة كما تنبأ مبعوثه . وكان أول من اعتلى السور جوفييه أوف لاستورز ، ثم تبعه مسيحيون آخرون هاجموا التحصينات والأبراج ، إلا أن الليل أنهى القتال ومازالت بعض أبراج المدينة وأجزاء منها فى أيدى المسلمين (٩) . وتوقع الفرسان وقفة مقاومة أخيرة فى الصباح التالى ، فحرسوا الأسوار الخارجية للقضاء على أى شخص يحاول الهرب . ولكن بعض

الصليبيين ، ممن لم يعبأوا بحياتهم ، لأن الجوع جعلهم يحتقرون الحياة ، استمروا فى مقاتلة أهل المعرة فى جنح الظلام . وهكذا حصل الفقراء على نصيب الأسد من الغنيمة والبيوت في معرة النعمان ، ولم يجد الفرسان الذين انتظروا حتى الصباح ليدخلوا ، إلا بقايا لا قيمة لها . في هذه الأثناء كان المسلمون يختبئون فى كهوف تحت الأرض ، وبالفعل ولم يظهر منهم أحد فى الشوارع . وسرق المسيحيون كل السلع التى كانت فوق الأرض ودفعهم الأمل فى الحصول على ثروات المسلمين المخبأة تحت الأرض ، فأطلقوا الدخان على الأعداء لإخراجهم من كهوفهم باستخدام النار والأبخرة الكبريتية . وعندما خيّب نهبهم للكهوف آمالهم عذّبوا المسلمين الذين تصل إليهم أيديهم حتى الموت . ومر بعض رجالنا بتجربة إقتياد المسلمين فى الشوارع على أمل معرفة أماكن الغنائم ، فكان أسراهم يقودونهم إلى الآبار ثم فجأة يلقون بأنفسهم فى الآبار ليلقوا حتفهم ، مؤثرين الموت على كشف النقاب عن مكان المتاع المملوك لهم أو لغيرهم . وبسبب عنادهم لاقوا حتفهم جميعاً . وألقيت جثثهم فى المستنقعات والمناطق الواقعة وراء الأسوار .وهكذا ، لم تقدم معرة النعمان الكثير للنهب (١٠) .

ورغم أن فرسان بوهيمند كانوا فاترى الهمة في تشديد الحصار ، فقد فازوا بعدد أكبر من الأبراج ، والخيول ، والأسرى ، وأدى ذلك إلى شعور بالاستياء بين النورمان والبروفنسال . وأراد الرب فى ذلك الوقت أن يرينا حدثاً معجزاً ، وكما ذكرت من قبل ، فرغم أننا شرحنا للناس قبل الاستيلاء على معرة النعمان الأوامر الرسولية لبطرس وأندرو ، إلا أن بوهيمند ورفاقه سخروا منا . والواقع أن بوهيمند وأتباعه النورمان كانوا يشكلون عقبة أكبر منهم عوناً ، وبالطبع ، فإن حاشية ريموند كانت ساخطة لأن النورمان استولوا على النصيب الأكبر من الغنائم . وفى النهاية اختلف السادة ، فقد أراد ريموند أن يعطي المدينة لأسقف البارة ، وتمسك بوهيمند ببعض الأبراج التى استولى عليها وعلّق قائلاً : « إننى لن أتفق مع ريموند على أى شىء إلا إذا تنازل لى عن أبراج أنطاكية » .

وفي غمار هذا الاضطراب ، راح الفرسان والناس يسألون متى سيتفضل

الأمراء بالبدء في الزحف ، لأنه رغم أن الزحف قد بدأ منذ زمن طويل ، فإن كل يوم بدا كما لو كان بداية حملة صليبية جديدة ، لأن الهدف لم يتحقق بعد ، وأجاب بوهيمند بأنه لن يذهب قبل عيد الفصح ، وقد حل الآن ميلاد سيدنا المسيح ، وفقد الكثيرون الأمل ، وتحولوا راجعين بسبب ندرة الخيول وغياب جودفرى وهجرة الكثير من الفرسان إلى بولدوين حاكم الرها .

وأخيراً اجتمع أسقف البارة وبعض النبلاء بالفقراء ، وطلبوا العون من ريموند . وعندما انتهى الأسقف من عظته انحنى أمام الكونت الذى تلقى الحربة المقدسة وطلبوا منه والدموع تملأ أعينهم أن يجعل نفسه قائداً للجيش وسيداً عليه . كما قالوا أنه نظرا لما تسبغه عليه حيازته للحربة المقدسة من مزايا ، ولكونه محل إنعام الرب ، فإنه لن يخشى الاستمرار فى الرحلة فى أمان مع جمهور الفرنج . وإذا لم يستطع ريموند أن يفعل ذلك فإن عليه أن يسلّم الحربة للجماهير . وسيواصل هؤلاء مسيرتهم إلى الأراضى المقدسة تحت قيادة الرب . وسايرهم الكونت وهو يخشى ألا يتبعه الأمراء المتغيبون ، الذين كانوا ينظرون إليه بعين الحسد ، إذا هو حدد يوم الرحيل .

ولماذا لا ننهى تلك القصة الكئيبة ؟ لقد تغلبت دموع الفقراء ، وحدد ريموند تاريخ الرحيل باليوم الخامس عشر ، بينما أعلن بوهيمند ، الذى أثار ذلك غضبه ، فى كل أرجاء المدينة أن تاريخ الرحيل هو اليوم الخامس أو السادس ، وعاد إلى أنطاكية بعد ذلك مباشرة . والتفت ريموند وأسقف البارة إلى تجهيز حامية ، وحددا عدد الأشخاص واختاراهم . وفى الوقت نفسه ، طلب الكونت من جودفرى والمتغيبين من معرة النعمان ، أن يتجمعوا في مكان واحد ويقوموا بالاستعداد اللازم لاستئناف الرحلة . واجتمع الأمراء ، وعقدوا مؤتمراً فى قلعة الروج التى تقع فى منتصف الطريق تقريباً بين أنطاكية ومعرة النعمان ، إلا أن الإجتماع لم يسفر عن شىء ، لأن القادة وكثير ممن حذوا حذوهم قدموا أسبابا لعدم استئناف الرحلة . ونتيجة لذلك عرض ريموند على جودفرى وروبرت النورماندى عشرة آلاف صولدى

لكل واحد ، وستة آلاف لروبرت كونت الفلاندر ، وخمسة آلاف لتانكرد ، ومبالغ متناسبة للآخرين (١١) .

فى هذه الأثناء ، وعند تلقى أنباء بأن ريموند خطط لوضع حامية فى معرة النعمان تضم فرسانا ومشاة من الجيش ، دار الكلام بين الفقراء : « إذن فهذه المسألة ! صراع فى أنطاكية ، وصراع فى معرة النعمان ! هل سيثور النزاع بين الأمراء ، وتدمر جيوش الرب فى كل بقعة يمنحنا الرب إياها ؟ لنضع حداً للصراع هنا ، ومن أجل أن يسود الهدوء بين القادة ، ويهدأ خاطر ريموند الذى يقلقه أن يضيع ذلك الجيش ، فهيا نقوّض أسوارها » .

وهكذا ، أتى الجميع حتى المرضى والضعفاء ، وقد قاموا من فراشهم وساروا متكئين على العصىّ طوال الطريق حتى الأسوار . وكان الرجل الأعجف النحيل يدحرج إلى الأمام وإلى الخلف ويدفع من السور أحجاراً فى حجم لايكاد ثلاثة ثيران أو أربعة يزحزحونها . وطاف أسقف البارة وأصدقاء ريموند بالمدينة وهم يحذرونهم ويرجونهم الإمتناع عن مثل هذا التخريب . ولكن الرجال الذين كانوا يهرولون بعيدا عن الأسوار ، ويختبئون عند اقتراب الحراس ، كانوا سرعان مايستأنفون عملهم بمجرد ابتعاد هؤلاء (١٢) . أما المخرفون والذين كانت تشغلهم أمور أخرى ، فقد كانوا يعملون ليلاً بحيث لم يكن هناك أى شخص يمنعه الضعف أو المرض عن المساعدة فى دك الأسوار .

أصبح نقص الطعام حادا إلى درجة أن المسيحيين كانوا يأكلون ، فى تلذذ ، جثث المسلمين المتعفنة ، التى كانوا قد ألقوا بها فى المستنقعات قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع . وأثار هذا المنظر اشمئزاز الكثيرين من الصليبيين والغرباء ، ونتيجة لذلك ، فقد الكثيرون الأمل في وصول تعزيزات فرنجية ، وتقلوا

عائدين ، كان رد فعل المسلمين والأتراك هو : « إن ذلك الجنس العنيد الذي لايعرف الرحمة ولا يحركه الجوع أو السيف أو أي اخطار ولمدة عام ، عن أنطاكية ، يتلذذ باللحم البشري ، لذا فإننا نسأل « من يستطيع أن يقاومهم ؟ » ونشر المسلمون قصصاً عن هذه الأعمال وغيرها من الأعمال التي تخلو من الإنسانية ، والتي ارتكبها الصليبيون ، ولكننا لم نكن ندرك أن الرب قد جعل منا سبباً من أسباب الهلع (١٣) .

في ذلك الوقت كان ريموند ، لدى عودته من معرة النعمان ، ساخطاً أشد السخط على أتباعه ، إلا أنه اعترف بالجميل للرب ، وأمر بتقويض أسس الأسوار عندما علم أن تهديدات أسقف البارة والقادة الآخرين وقوتهم لم تثن الرعاع عن عزيمتهم . ولكن نقص الطعام كان يزداد يوماً بعد يوم ، وأمرنا بإعطاء الصدقات ، والصلاة من أجل الرحلة ، لأن اليوم المحدد كان يقترب . في هذه الأثناء تأثر كونت تولوز لغيبة القادة الكبار ، وأثر المجاعة في إضعاف الرجال . فأمر المسيحيين بأن يبحثوا عن الطعام في أراضي المسلمين ، ووعد بأنه سيكون في الطليعة مع فرسانه . ولكن بعض أتباعه الساخطين إشتكوا قائلين : « إذا كان كل ما لدينا أقل من ثلاثمائة فارس وحفنة من المشاة ، فهل نقسّم قواتنا فيمضي البعض داخل أراضي المسلمين ، ويبقى البعض الآخر في انقاض معرة النعمان بلا دفاع ؟ وأفاضوا في الحديث عن عدم استقرار ريموند التام .

ومع ذلك فقد سار الكونت في النهاية ، وبالنيابة عن الفقراء إلى أراضي المسلمين ، واستولى على بعض الحصون والأسرى وقام بالكثير من أعمال النهب ، وعند عودته مبتهجاً ظافراً بعد أن قتل الكثيرين من المسلمين ، قتل الكفار ستة أو سبعة من قومنا . ومن الغريب جداً أن تلك الجثث كان بها صلبان علي الكتف الأيمن (١٤) . وشعر الناظرون ومعهم ريموند براحة كبيرة لهذا المنظر ، وقدموا

الصلوات للرب القادر على كل شيء الذي تذكر فقراءه . ولإقناع المتشككين الذين بقوا مع المتاع بالقرب من معرة النعمان ، حملوا معهم أحد الجرحى المصابين إصابة قاتلة ، ولكنه كان لايزال يتنفس . وقد رأينا معجزة في هذا الرجل المسكين الذي كان قد مُزّق ، حتى أن جسمه المطحون لم تكد توجد به بقعة تخفى روحه . ومع ذلك فقد عاش سبعة أو ثمانية أيام بدون طعام شاهداً طوال ذلك الوقت على أن يسوع الذي سيمضي إلى حكمه بكل تأكيد ، كان هو الرب خالق الصليب الذي كان يحمله على كتفه .

* * * * *

(١) البارة Albarz (al - Barah) مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من أنطاكية . وقد كانت حملة الفرنج عليها في ٢٤ سبتمبر ١٠٩٨ م انظر : Hagwnmeyer, Chr., 316.

- وذكر ياقوت الحموي أن بالبارة حصنا وأنها ذات بساتين . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٦٤ . لذا لم تكن غارة الفرنج عليها أمرا عشوائيا . فهم بدأوا استراتيجيتهم بفتح البلدان التي لايستغرق فتحها وقتا طويلا . إلى جانب ما ستوفره البارة وبساتينها من مؤن للجيش .
(الترجمة العربية) .

(٢) بطرس أوف ناربون Peter of Narbonne كان قسيسا في جيش ريموند . وقد رسمه البطريرك اليوناني لأنطاكية (حنا) . أسقفا للبارة ، لكن بطرس كان على عداء مع رجال الدين اليونانيين .

- مع أن الفرنج لم يجروا أي تغييرات في هيئة الكنيسة في أنطاكية بينما كانوا في انتظار الكنيس كومتين ليرد على دعوتهم له بالحضور إلى أنطاكية ، فقد بدأوا في تعيين أساقفة لاتين في بلاد الشام . وكان تعيين ريموند لبطرس الناربوني هو أول هذه المناسبات . ومنحه ريموند نصف المدينة وإقليمها . وكان تعيين بطرس تعيينا غير عادي في حدود القانون الكنسي . ويبدو أن تعيينه كان لسبب سياسي واجتماعي أكثر منه لسبب كنسي . ففي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري ، كان حكام غرب أوربا يعتمدون على خدمات رجال الكنيسة لتنفيذ عمل الحكومة العلمانية . وفرضوا الأساقفة سلطات علمانية واسعة . ولكن الأساقفة اليونانيين لم يكن في استطاعتهم تحمل مسئوليات علمانية من هذا القبيل ، لأنهم لم يألفوا ذلك من قبل . فلم تكن هناك حاجة بالعالم البيزنطي لأن يقحم رجال الدين في عمل الحكومة . لأن الإمبراطورية البيزنطية كان لديها طبقة من الإداريين العلمانيين لم يكن هناك مايناظرها في غرب أوربا . لذلك ، فبمجرد أن بدأ الصليبيون في فتح أقاليم الشام ، وفي إقامة إدارة مشابهة للإدارة في غرب أوربا ، فقد كانوا مضطرين إلى تعيين بعض الأساقفة اللاتين ليساعدوا في أعمال الحكومة . ومن الواضح أن بطرس الناربوني قد قُبل ليدير البارة نيابة عن كونت تولوز أكثر منه لأن يتعامل مع الاحتياجات الروحية لسكانها .

— لأن الحامية التي تركت في المدينة هي فقط التي كانت من المسيحيين اللاتين ، وكان القس سيؤدي المهام الروحية بنجاح . انظر :

Hamilton, The Latin Church, p. 10.

(الترجمة العربية) .

(٣) يبتعد ريموندا جيل هنا قليلا عن الأحداث ليذكر أعمال برلدوين . انظر :

Fulcher of Chartres, (ed. Hagenmeyer), pp. 209 - 243.

وادعاءات بوهيمند التي عبر عنها أتباعه (والتي سيذكرها المؤرخ بعد قليل) تقوم على أن بوهيمند قائد مقتدر وسيحمي أنطاكية . والمناوشة التي قام بها جودفري حدثت حوالى نهاية أكتوبر ١٠٩٨م (Hagenmeyer, Chr. 320) . انظر :

William of Tyre, VII, 4.

(٤) تبين هذه الفقرة احترام ريموند للقسم الذى أداه فى القسطنطينية . وكانت المناقشة فى أول نوفمبر ١٠٩٨م . أما اجتماع الأمراء في كنيسة القديس بطرس فقد تم فى ٥ نوفمبر ١٠٩٨ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 321 - 323.

- حتى رحيل الفرنج من أنطاكية فى أواخر نوفمبر ١٠٩٨م ، كانت كل تصرفات كونت تولوز تدل على حرصه على مصالح بيزنطة وعلى القسم الذى أداه أمام الامبراطور ألكسيس كومنين وعلى عهده له بأن تعود إلى بيزنطة كل أملاكها التى سبق وانتزعها منها السلاجقة . إلا أن ما قام به بعد ذلك وحتى استيلاء الفرنج على بيت المقدس (يوليو ١٠٩٩ م) كان يدل على أنه بدأ يعمل لصالحه هو . ويرى المؤرخ اللاتيني البرت دكس أن ريموند فى نزاعه مع بوهيمند حول ملكية أنطاكية كان يبغيها لنفسه ، ولم يكن ذلك حرصا على مصالح الامبراطور البيزنطى . ويبدو أن ريموند ، فى حقيقة الأمر ، كان ينتظر مكافأته من ألكسيس . وعندما فشل فى الاحتفاظ له بأنطاكية ، وعندما خرج من الحملة على فلسطين خالى الوفاض بعد أن فشل في الحصول على عرش بيت المقدس ، وبعد فشل حملة ١١٠١م التى شارك فيها لصالح بيزنطة أيضا ، وجد أنه لم يجن شيئا من نضاله من أجل بيزنطة ، فراح يعمل مرة أخرى على تأسيس إمارة لنفسه فى بلاد الشام . انظر :

Albert d'Aix, p. 434. CF. also, J. Hugh Hilland Laurita Hill, Raymond IV Cout of Toulouse, Passim.

= وعن موقف ريموند من أطماع بوهيمند في أنطاكية وعلاقته بألكسيس كومنين . انظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم ، ص ٢٤٤ وما بعدها .

(الترجمة العربية) .

(٥) أعلن كل من روبرت كونت الفلاندرز وجودفرى أنهما لا يرغبان في العداء المكشوف مع ألكسيس .

(٦) يقدم لنا ريموندا جيل ، مرة أخرى ، الآراء غير العملية لصغار رجال الدين والفرنج . انظر :

Walter Porges, The Clergy, the Poor, and the Non - Combatant on the First Crusade, in Speculum, 21, 1946, pp. 21 - 23.

(٧) تقع معرة النعمان إلى الجنوب الشرقى للبارة وأنطاكية . وقد رحل الصليبيون من البارة فى ٢٣ نوفمبر ١٠٩٨م . وحاصروا المدينة فى ٢٨ نوفمبر . وفى اليوم التالى ساعدهم بوهيمند فى محاولة عقيمة لدخول المدينة . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 324, 325, 327.

(٨) كان وصف ريموندا جيل لعملية جمع بقايا الحصاد في الحقول وصفا إنشائيا ممتازا . وعلى أية حال ، فقد تهكم رادولف أوف كان ، الذى كان لايميل إلى البروفنساليين ، قائلا أنهم « عاشوا على الكفاف ، وقُرتوا بأكل جذور النباتات » . انظر :

Radulphus Cadomenis, Gesta Tancredi in expiditione Hierosolymitana, RCH - H. Occ, 3, p. 651.

(٩) جوفييه لاستورز Gouffier of Lastours هو لورد لاستورز بالقرب من نكسون Nexon (أعالى فيينا) . وموطنه الأصلى ليموزين Limousin . انظر :

Notitiae duae Lemovicenses de praedicatione crucis in Aquitania, RHC - H. Occ., 5, p. 351.

وقد سقطت معرة النعمان فى أيدى الصليبيين فى ١١ ديسمبر ١٠٩٨ م / ٩ محرم ٤٩٢ هـ .

(١٠) جاء سرد ريموندا جيل لرواية ذبح سكان المعرة وصفيا ، ويبدو أنه خال من الاشارات التى ترد في الكتب الدينية .

=

= لقد أبدى سكان معرة النعمان مقاومة وبأساً شديدين أمام الهجوم الصليبي على مدينتهم . إلا أن رواية ريموندأجيل تركزت على ابراز جهد الفرنج في دخول المدينة . وهي عادته في وصف المعارك بين المسلمين والصليبيين ، وإن كان هو يغالي في ذلك عن غيره من مؤرخي الحملة الأولى . وهنا يفتقد القارئ أسلوب مؤرخ نموذجي مثل وليم الصوري ، ويشعر بأهمية وقيمة رواياته . فلم ير وليم الصوري غضاضة في إبراز بطولات المسلمين وانتصاراتهم على الفرنج في كثير من المعارك . بينما كانت روايات غيره من المؤرخين اللاتين تقتصر على عدة أسطر فقط إذا ما كان النصر في المعركة التي يتحدثون عنها من نصيب المسلمين . وعلى أية حال . فقد عمد ريموندأجيل هنا أيضا إلى إغفال الوعد الذي منحه الفرنج لسكان المعرة بالأمان إذا ما أقلعوا عن المقاومة ، وغدروا بهم ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لاطاقة لهم به . انظر : ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ . ونلمس شدة المقاومة الاسلامية في معرة النعمان من وصف رادولف أوف كان للمعركة . انظر :

Radulph of Caen, p. 679.

وقدر ابن الأثير عدد قتلى المسلمين بمائة ألف قتيل ، بينما قدّره ابن العديم بعشرين ألف رجل وامرأة وصبي . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠، ص ١١٥ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ . وأحجم المؤرخون اللاتين عن تحديد عدد ضحايا المسلمين .

(الترجمة العربية) .

(١١) من المحتمل أن تكون المفاوضات الأولية بين بوهيمند وكونت تولوز قد تمت في ٢٩ ديسمبر ١٠٩٨ م ، وكان رحيل ريموند عن المعرة في ١٣ يناير ١٠٩٩م . وكان اجتماع الفرنج في قلعة الروج في ٤ يناير ١٠٩٩ . وبعد فشل الإجتماع الذي عقد لتهدئة بوهيمند ، عاد القادة النورمان إلى أنطاكية . ويعتقد رنسيمان أن عرض كونت تولوز كان مجرد رشوة . ويرى جروسيه أن ريموند طمع في بيت المقدس في ذلك الوقت ، ورغب في نيل المساعدة من زملائه الفرنج . ونعتقد أن العرض قد قبل وأن التباين في المبالغ التي عرضها ريموند على القادة تعبر عن أهلية القادة . ومازال نوعا النقود التي استخدمها كونت تولوز موجودين . أحدهما الميلجورين Melgorien التي سكّ كونتات ميلجويل Melgueil . والثاني هو عملة سان جيل التي أدُّعي أن الذي أصدرها هو =

= ريموند الخامس . وكان الحصان الجيد يساوي مائتي ميلجورين أو حوالي أربعة ماركات (جنيهان من الفضة) . انظر :

Jean Pierre Papon, Histoire générale de Provence, Paris, 18778, 2. pp. 538, 541, 551, 552. Cf. also Mirelle Castaing - Sicard, Monnaies féodales et Circulation monetaire en Languedoc (Xe - XIIIe siècles), cahiers de l'association Marc Bloch de Toulouse, etudes d'Histoire méridionale (Toulouse. 1961), 4.

وبخصوص التواريخ المذكورة . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 334 - 335, 339.

(١٢) استعمال كلمة ناهضين (من فراشهم) surgentes لوصف قيام المرضى والضعفاء يشير إلى الإنجيل متى (٩ : ٦ – ٨) . ومن المحتمل أن المؤرخ اقتبس هذا الوصف من كتاب خدمة القداس . انظر :

Rituale Ecclesiae Dunelmensis, ed. J, Stevenson, surtees society. London, 1839. 10, p. 37., Rabanus Maurus, On Ezechiel, MPL. 110, Col. 872.

ومن المفروض أن تدمير معرة النعمان كان في ٥ يناير ١٠٩٩م ، أو بعد ذلك بقليل . أنظـــر :
Hagenmeyer, Chr., 336.

(١٣) لم يكن خبر أكل لحوم البشر خبرا فريدا هنا . وفي أنشودة أنطاكية نجد من يجلس من الفرنج (يدعى تافور Tafurs) ليشوي لحم موتى المسلمين . انظر :

L.A.M. Sumberg, The Tafurs and the First Crusade, MS. 21, 1959; La Chanson d'Antioche, ed. Paulin Paris, 1842, 2. pp. 5 - 6.

(١٤) تعكس رواية المؤلف عن جثث الصليبيين المشوهة رغبته لإظهار علامة الصليب . وهناك روايات قديمة عن رجال عليهم علامة الصليب . فهناك رواية في الحرب المكابية التي تؤكد وجود (هبات الآلهة المعبودة) donariis idolorum التي تدل على أن الجثث كان عليها علامات . انظر :
Maccabees, 11, 12 : 38 - 41.

الفصل الحادى عشر

استئناف الزحف وبداية حصار عرقة

تشجع الباحثون عن الطعام بحسن طالعهم وبشارات الصليب الطيبة ، فتركوا غنيمتهم عند كفر طاب على مسيرة أربعة فراسخ من معرة النعمان [١] ، وعاد مع ريموند من كان لهم أصدقاء فى معرة النعمان . وفى اليوم المحدد ، رحل الكونت وكهنته وأسقف البارة ، وساروا حفاة الأقدام يطلبون رحمة الرب وحماية القديسين ، بينما راح اللهب الذى أشعله المسيحيون يعلو أنقاض معرة النعمان ، وفى المؤخرة ، سار تانكرد مع أربعين فارساً وكثير من المشاة . وعندما سمع حكام المناطق القريبة أنباء استئناف الحملة الصليبية ، أرسلوا نبلاء العرب إلي ريموند بالإلتماسات والعروض الكثيرة والوعود بالاستسلام فى المستقبل ، بالإضافة إلى السلع التي يمكن ابتياعها أو الحصول عليها مجاناً [٢] .

واصلنا سيرنا فى أمان معتمدين على وعودهم وتسليمهم رهائن لنا كضمان . ولكننا نعتقد أن الأدلاءالذين أرسلهم لنا حاكم شيزر [٣] أساءوا إرشادنا فى اليوم الأول لأننا كنا فى حاجة إلي كل شيء ، باستثناء الماء ، عند موقع المعسكر ، ولكن فى اليوم التالى ، قادنا نفس الأدلاء خطأ إلى واد جُمعت فيه ماشية الحاكم وكل المناطق المجاورة ، بسبب الخوف الذى أشعرناهم به . كان حاكم شيزر يدرك منذ زمن طويل اعتزامنا الزحف ، فأمر المسلمين بالهرب . ومع ذلك ، فلو أنه أمر الإقليم كله بوقف زحفنا ما استطاعوا ذلك ، لأننا أيضا كانت لدينا معلوماتنا ، وفى ذلك اليوم قام ريموند أوف إيل ورفيق له بأسر رسول الملك ومعه رسائل تحث كل المواطنين على الهرب [٤] .وعند سماع الملك خبر أسر رسوله قال : « يارجالى ، بدلا من الهروب بسرعة أمام الفرنجة كما أمرت ، تقدموا إليهم ، ولما كان الرب قد اختار هذا الجنس فلن أقف فى طريق رغباتهم » . ثم بارك هذا الحاكم الرب الذى يرزق من يخشونه بحاجاتهم .

وكان منظر هذا القطيع الضخم غير المتوقع من الماشية ، ثم الاستيلاء

عليه ، سبباً فى أن فرساننا وميسورى الحال من الناس ، ذهبوا إلى شيزر وحمص ، بأموالهم لشراء الخيول العربية متعللين بأنه : « لما كان الرب قد تولى أمر إطعامنا ، فلنتول نحن أمر الفقراء والجيش » . وهكذا حصلنا على نحو ألف من أفضل جياد الحرب [٥] ، ويوما بعد يوم ، استرد الفقراء صحتهم ، وأصبح الفرسان أكثر قوة ، وبدا أن الجيش يزداد عدداً . وكلما زحفنا قدما زادت أنعم الرب علينا . ورغم توفر المؤن فقد حاول البعض إقناع ريموند بالتوقف عن الزحف قليلا ، للاستيلاء على جبلة Gibellum ، وهى مدينة ساحلية [٦] . إلا أن تانكرد وبعض الرجال الشجعان الطيبين الآخرين ، حاولوا دون ذلك قائلين : « لقد زار الرب الفقراء وزارنا ، فهل يجب علينا لذلك أن نتحول عن الرحلة ؟ . أما كفتنا الصعوبات السابقة التى صادفتنا فى معركة أنطاكية ، والبرد والجوع ، وكل ما عانيناه من البؤس الانسانى ؟ لماذا يكون علينا وحدنا أن نحارب العالم كله ؟ فكروا قليلاً . فمن بين مائة ألف فارس لم يكد يبقى إلا أقل من ألف ، ومن بين مائتى ألف من الرجالة المسلحين ، لم يتبق للقتال إلا أقل من خمسة آلاف . هل سنظل نتلكأ حتى تتم تصفيتنا جميعاً ؟ هل سيأتى المسيحيون من الغرب إذا سمعوا عن سقوط أنطاكية وجبلة وغيرهما من المدن الإسلامية الأخرى ؟ لا . ولكن لنزحف إلى بيت المقدس المدينة التى نسعى إليها ، ومن المؤكد أن الرب سيسلمها لنا ، وعند ذلك فقط فإن المدن الأخرى التى تقع فى طريقنا مثل جبلة وطرابلس وصور وعكا سيجلو عنها سكانها خوفاً من موجة الصليبيين الجديدة القادمة من العالم المسيحى » [٧] .

وفى نفس الوقت ، كان الأتراك والعرب الذين كمنوا فى المؤخرة ، يقتلون الفقراء الضعفاء ويسطون على أمتعتهم . وبعد حادثتين من هذا النوع كمن الكونت فى كمين بينما مر الصليبيون . ومن ناحية أخري اندفع المسلمون الذين لم ينالوا عقاباً ، والذين كان يحدوهم الأمل فى الغنائم ، من خلف جيشنا كما فعلوا من قبل ، لكنهم فى هذه المرة عندما مروا بخيولهم أمام الكمين ، اندفع ريموند وفرسانه مهاجمين إياهم فأوقعوا الخبل فى صفوفهم ، وقتلوهم وعادوا سعداء إلى

بقية الجيش بخيولهم . وبعد هذه التجربة سار ريموند وعدد كبير من الفرسان المسلحين لحراسة المؤخرة . وهكذا توقف الأعداء عن اصطياد الفقراء [٨] . وفضلا عن هذا الإحتياط ، فقد سار فرسان مسلحون آخرون مع كونت نورماندى ، وتانكرد وأسقف البارة ، فى الطليعة ، بحيث لا يستطيع العدو أن ينالنا من الأمام أو من الخلف .

وجدير بالذكر أن أسقف البارة ترك حامية من سبعة فرسان وثلاثين من المشاة تحت إمرة وليام إبن بطرس أوف كونيلياكوم ، فى البارة ، وبناء على نصيحة الكونت ، الذى كان يريد زيادة عدد الفرسان الذين كانوا يزحفون من معرة النعمان إلى بيت المقدس ، انضم إلي الجيش الصليبى . واستطاع وليام ، وهو رجل مؤمن مخلص ، فى وقت قصير ، وبعون من الرب أن يجعل اهتمام الأسقف يزداد عشرة أضعاف ، وبدلاً من ثلاثين من رجال المشاة أصبح لديه سبعون وأيضا مئتون أو أكثر من الفرسان .

ووافقنا فى الإجتماع على التحول عن دمشق والزحف إلى ساحل البحر لأنه كان بمكنتنا الإتجار مع قبرص والجزر الأخرى إذا انضمت إلينا سفننا من أنطاكية [٩] . وعندما سلكنا هذا الطريق وجدنا أن الوطنيين هجروا مدنهم وتحصيناتهم ومزارعهم ذات المخازن المملوءة . ثم وصلنا إلى واد خصب جداً بعد أن قمنا بالإلتفاف حول جبال عظيمة ، لنجد بعض المزارعين مزهوين بأعدادهم وقلعة منيعة [١٠] . وهكذا فإنهم لم يُبدوا نوايا سلميّة ، ولا إشارة إلي أنهم سيتخلون عن قلعتهم . على العكس من ذلك ، فإنهم اندفعوا من أعلى جبلهم وهاجموا بعض الأتباع المسلحين والرجالة الذين كانوا يبحثون عن الكلأ هنا وهناك وسط الحقول ، وقتلوا عدداً منهم ، وحملوا الغنائم إلى قلعتهم . وسار رجالنا الذين أغضبهم ذلك إلى سفح الجبل ، الذى بُنيت عليه القلعة . ولكن الوطنيين لم ينزلوا لملاقاتنا ، وبعد انعقاد مجلس حرب ، شكّل فرساننا ومشاتنا صفوفاً ، وتسلقوا الجبل من ثلاث جوانب ودحروا المزارعين ، وكان ثلاثون ألفا من المسلمين يحتلون

القلعة مما أتاح لهم ، بالإضافة إلي الموقع ، الفرصة للهروب إلى الحصن أو أعلى المنحدرات ، لذلك ، أعاقونا لفترة .

ولكن عندما صحنا صيحة الحرب « ساعدنا يارب ، ساعدنا يارب ! » مات حوالى مائة من المسلمين اللذين دب فى قلوبهم الرعب ، إما لخوفهم الشديد ، أو لضغط زملائهم عند أبواب القلعة ، وبالطبع . فقد جرى خارج السور حيث كنا نحارب ، نهب شديد للماشية والخيول والأغنام [١١] . وبينما كان الكونت وفرسانه يجدّون فى القتال ، طمع الوضعاء منا فى الغنائم وبدأ الفقراء ، الواحد بعد الآخر، ثم المشاة الفقراء ، وأخيرا الفرسان الفقراء ، يتركون ميدان المعركة ليعودوا إلى خيامهم على بعد نحو عشرة أميال .

وفى الوقت نفسه ، أمر ريموند فرسانه ورجّالته بأن يتخذوا مواقعهم ، ولكن المسلمين ، اللذين نزلوا من أعلى الجبل ، مع من كانوا فى القلعة ، رأوا صفوف الصليبيين وقد بدأت تخلو من المقاتلين ، فبدأوا ينظمون صفوفهم المفككة تعزيزا لقوتهم ، ولم ينتبه ريموند إلي هذه الاستراتيجية ، وفقد الاتصال تقريبا بفرسانه ، على ممر صحراوى شديد الانحدار مشت فيه الخيول فى طابور فردى . وفى مواجهة هذا الخطر ، تظاهر بالتقدم برجاله كما لو كان سيهاجم الهابطين من أعلى الجبل . وفى اللحظة الفاصلة التى تردد فيها المسلمون ، استدار الصليبيون وتحولوا إلى المنطقة الآمنة ظاهريا فى الوادى ، وعندما رأت كتيبتا الأعداء هذه الخدعة ، وكانت إحداهما على الجبل ، والأخرى فى القلعة وشاهدونا نهبط من الجبل ، ضموا قواتهم واندفعوا مهاجمين رجال الكونت ، وتحت وطأة الهجوم ، وقع بعض الصليبيين من على خيولهم ، بينما اندفع آخرون فسقطوا عبر أماكن منحدرة ، وهكذا أفلتوا من الموت بأعجوبة ، ولكن البعض ماتوا ميتة بطولية .

وبالتأكيد، فإن ريموند لم يتعرض أبدا لمثل هذا الخطر الذى كاد أن يفقده حياته ، وهكذا فإنه حنق على نفسه ، وعلى قواته إلي درجة أنه عند عودته إلي الجيش اتهم فرسانه فى المجلس بالتخلى عن المعركة بدون إذن وتعريض حياته

للخطر . وهنا أقسم الجميع على استمرار الحصار حتى يجعلوا القلعة دكّا ببركة من الرب ، ولكن الرب مرشد المسيحيين وحاميهم من كل الكوارث ، ألقى الرعب فى قلوب المدافعين ، حتى أنهم فى تعجلهم الفرار ، تركوا موتاهم بدون أن يدفنوهم . وفى الصباح لم يكن فى انتظارنا إلا غنائم الحرب وقلعة يسكنها الأشباح .

وتأثر مبعوثو أمير حمص [١٢] وملك طرابلس ، الذين كانوا فى المعسكر فى ذلك الوقت ، بمنظر شجاعتنا وقوتنا ، حتى أنهم توسلوا إلى ريموند أن ينصرفوا على وعد بالعودة سريعا . وبعد رحيلهم بفترة قصيرة مع مبعوثينا ، عادوا بهدايا فخمة وخيول كثيرة . وكان ذلك بسبب الخوف الذى سيطر على المنطقة كلها بعد استيلائنا على القلعة التى لم يكن أحد يستطيع اختراقها من قبل . فضلا عن ذلك ، فإن سكان الإقليم بعثوا برسالة إلى ريموند مع هدايا والتماسات يطلبون منه أن يرسل راياته وأختامه حتى يتسلم مدنهم وقلاعهم . وأذكر أنه كانت هناك عادة فى جيشنا تقتضى باحترام راية أى إفرنجى وعدم الهجوم بعد ذلك . وهكذا وضع ملك طرابلس رايات الكونت على قلاعه .

ونتيجة لهذا التحول بدا أن شهرة كونت تولوز لم تكن تفوقها شهرة أى قائد قبل ذلك . وفى رحلة فرساننا إلي طرابلس بصفتهم مبعوثين ، انبهروا من الثراء الملكى والممتلكات الغنية والمدينة المزدحمة بالسكان . لذلك فإنهم أقنعوا ريموند بأن ملك طرابلس سوف يمنحه خلال أربعة أو خمسة أيام الذهب والفضة بما تقر به عينه ، إذا حاصر عرقة . وهى موقع يتمتع بدفاع قوى ولا يمكن أن تتغلب عليه القوة البشرية . وبناء على رغباتهم ، حاصرنا عرقة فجعلنا رجالاً شجعاناً يعانون متاعب لم يعرفها أحد . ويحزننى أن أقول أننا تحملنا خسائر فادحة منها الكثير من الفرسان البارزين وقد مات أحد هؤلاء الفرسان هو برنز أوف بالازون بسبب صخرة أطلقت عليه من مقذاف للحجارة ، وكانت توسلاته هى التى جعلتنى أواصل هذا العمل الذى تجشمت عناء كتابته لكل مستقيمى العقيدة ، خاصة من يعيشون عبر جبال الألب ، ومن أجلك أنت ، يا أسقف فيفييه المبجل .

وسأحرص بوحي الرب الذى هو الصانع الحقيقى لهذه الأحداث ، على أن أكمل بقية روايتى بنفس الحب الذى بدأت به داعيا وراجيا أن يثق كل من سيسمع هذه الأشياء فى حقيقتها وليقتلنى الرب بأهوال الجحيم ، ويمحو اسمى من سجل الأحياء ، إذا أضفت - بدافع من التحمس أو الكراهية لأى شخص - أى شىء إلى هذا الكتاب ، غير ماصدّقته أو رأيته (١٣) . ورغم جهلى بأشياء كثيرة فإننى أعرف أنه من واجبى - منذ تقدمت إلى الكهنوت على صليب الرب - أن أطيع الرب وأحكى الحق ولا ألفّق الأكاذيب . وأود أن أستمر بنفس الود وبنفس المحبة فى سرد تاريخى كما حثّ بولس على ذلك عندما قال أن « المحبة لاتسقط أبداً » وليساعدنى الرب (١٤) .

أثناء الحصار المطوّل كانت سفننا القادمة من أنطاكية واللاذقية مع السفن اليونانية وسفن البنادقة ترسو وبها حبوب ، ونبيذ ، وشعير ، ولحم خنزير ، وسلع أخرى يمكن تسويقها ، ومع ذلك ، فإن البحارة سرعان ما أبحروا عائدين إلى موانىء اللاذقية وطرسوس ، نظراً لأن عرقة كانت تقع على بعد ميل من البحر ولم تجد السفن مكانا ترسو فيه (١٥) . وكان المسلمون قد هجروا - قبل حصار عرقة - طرسوس ، وهى مدينة جيدة التحصين بأسوار داخلية وخارجية ، كما كان بها قدر كبير من المؤن . وقد تركوها بسبب الخوف الذى بثّه الرب فى قلوب المسلمين والعرب فى هذه المنطقة ، وهو خوف جعلهم يعتقدون أننا كنا نتمتع بقوة كبيرة ونعتزم تدمير بلادهم بلا رحمة .

ومع ذلك فإن الرب ، الذى لم يشأ أن يساعدنا فى حصار قمنا به فى سبيل مصالح ظالمة وليس فى سبيله ، أمطرنا بكل أنواع المصائب . ومن الغريب ، أن المسيحيين الذين كانوا يتشوّقون من قبل إلى المعارك ويستعدون لها ، أصبحوا الآن لايميلون إلى القتال ولا يتمتعون بالحيوية ، وسار جنود المسيح الملهمين الذين حاولوا عمل كل شىء ، إما جرحى أو وجدوا أن لا طائل من وراء جهودهم .

وفى حصار عرقة مات أنسلم أوف ريبمونت ميتة مجيدة (١٦) . فقد

استيقظ ذات صباح واستدعى الكهنة إليه واعترف بزلاته وآثامه ، وطلب الرحمة من الرب ، وأخبر بأنه على وشك الموت . وبينما وقفوا وقد صدمتهم هذه الأنباء ، حيث أن أنسلم بدا سليماً معافيا هتف بهم ، لا تندهشوا واستمعوا لى : « ففى الليلة الماضية رأيت اللورد إنجلراند من سان بول ، والذى مات فى معرة النعمان ، وسألته وأنا فى كامل وعيى : « ماذا يجرى هنا ؟ لقد مت والآن ها أنت حياً » (١٧) .

« ورد لورد إنجلراند : « إن الذين يموتون فى خدمة المسيح لا يموتون أبـداً » .

فسألته مرة أخرى عن مصدر بهائه غير العادى ، وأجاب قائلا : « ليس فى هذا مايدهش ، حيث أننى أعيش فى دار جميلة » . وفى الحال أرانى بيتاً فى السماء جميلا جدا لم أر مايضارعه . وبينما وقفت مذهولاً بهذا المنظر ، قال لورد إنجلراند : « إن هناك بيتاً أجمل منه كثيرا يُعدّ لك غداً » . وبعد ذلك صعد .

بعد هذه الحكاية التى انتشرت على نطاق واسع ، تقدم أنسلم فى نفس اليوم لقتال بعض المسلمين الذين تسللوا خارجين من قلعتهم ، على أمل أن يسرقوا شيئاً أو يصيبوا شخصاً . وفى الاشتباك الذى جرى ، قاتل أنسلم بشجاعة ، إلا أنه أصيب فى رأسه بصخرة من منجانيق . فترك هذا العالم ليعيش فى بيته السماوى الذى أعدّه الرب .

بعد ذلك أتى إلى عرقة مبعوث من عند ملك بابيلون (مصر) مع مبعوثينا الذين أطلق سراحهم والذين كانوا أسرى عنده لمدة عام . كان هذا الملك مازال متردداً بين اختيارنا أو اختيار الأتراك . فعرضنا على مبعوثه هذه الشروط : إذا هو ساعدنا فى بيت المقدس أو أعاد إلينا بيت المقدس وما يتبعها ، فإننا سنعيد إليه مدنه السابقة التى كان الأتراك قد انتزعوها منه ، فى حالة استيلائنا عليها . وبالاضافة إلى ذلك فإننا كنا سنقتسم معه كل المدن التركية الأخرى التي لا تقع فى نطاق ممتلكاته ولكن يكون الاستيلاء عليها بمساعدته .

وسرت شائعة بأن الأتراك قد وعدوا ، بأنه إذا تحالف معهم ملك مصر ضدنا فإنهم سيعبدون علياً ، قريب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى كان يعبده ، وسيقبلون عملته ، ويدفعون له جزية ، ويوافقون على تنازلات أخرى غير معروفة لنا .

وعرف ملك مصر ، بسبب رسائل من ألكسيوس تضمنت معلومات عنا وجدناها فى خيامه بعد معركة عسقلان ، أن جيشنا كان صغيراً ، وأن الإمبراطور كان يتآمر لتدميرنا . ولهذا – ولأسباب أخرى – احتجز مبعوثينا لمدة عام فى مصر . أما الآن ، فعندما وصلته تقارير عن دخولنا أراضيه ، وما صحب ذلك من تدمير لقراه ، وحقوله ، وكل شيء آخر ، أبلغنا أنه يمكن لمائتين أو ثلاثمائة منا أن يذهبوا كل مرة وبغير سلاح ، إلى بيت المقدس ، ويعودوا بعد عبادة الرب . وثقة منا فى رحمة الرب رفضنا العرض ، وأبلغناه أنه إذا لم يُعِد إلينا بيت المقدس بغير تحفظات ، فإننا سنزحف على مصر [١٨] .

أذكركم أن الأمير الذى كان يحتل بيت المقدس فى ذلك الوقت ، لأنه عندما تلقى أخبار الكارثة التركية فى أنطاكية ، فقد حاصر بيت المقدس وهو يعرف أن الأتراك الذين كثيراً ما كانوا ينهزمون ويُبادون لن يحاربوه . وقد تسلم بيت المقدس بعد أن أعطى للمدافعين عنها هدايا عظيمة ، ثم قدم قرابين من الشموع والبخور عند القبر فوق جبل Calvary (الجلجثة أو الجماجم) .

ولكن لنعد إلى حصار عرقة ، فكما قلنا ، فى غمار انشغال جيشنا هناك ، أتت أنباء بأن بابا Pope الأتراك (الخليفة العباسى) وقبائل كثيرة تتبعه ، لأنه كان من ذرية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كانوا فى طريقهم لقتالنا ، ووضع الجيش فى حالة تأهّب للقتال . وتم إرسال أسقف البارة إلى جودفرى وكونت الفلاندر فى جبلة ، وهي حصن يطل على البحر ، فى منتصف الطريق بين عرقة وأنطاكية ، وعلى مسيرة يومين تقريباً من كل منهما . ولكن فى هذه الأثناء علمنا أن الأمر كان مجرد إشاعة زائفة روّجها المسلمون ، ليرهبونا ، فينالوا راحة من الحصار [١٩] . وبعد تجمّع الجيوش ، راح رجال حاشية الكونت يتباهون

واجهوا الموت من أجله . ومع ذلك ، فقد كان هناك البعض ممن زعموا أنهم كانوا فى فقر مدقع .

وهكذا فبسبب العدد الكبير من الفقراء والضعفاء ، كان هناك حثٌّ للفقراء على تقديم عُشر غنيمة الحرب . وكان التقسيم الذى سُمح به كما يلى : الربع للكهنة الذين يقيمون القداسات ، والربع للأسقف ، والنصف لبطرس الناسك ، الحارس المرخص له بحماية الفقراء ، ورجال الدين ، وعامة الناس . وأعطى بطرس بدوره من هذا المبلغ لرجال الدين وللعامة . وبالتالى فإن الرب ضاعف من عدد الخيول والجمال ولوازم الجيش الأخرى ، حتى أخذ العجب والدهشة من الصليبيين كل مأخذ . وكان هذا الرخاء المفاجيء سببا فى النزاع بين القادة وعجرفتهم أيضا ، إلى درجة أن أشد المسيحيين إخلاصاً للرب ، تاقوا إلى الفقر وإلى أن يهددنا القتال الرهيب .

وعرض علينا ملك طرابلس خمسة عشر ألف قطعة من الذهب من أموال المسلمين ، فضلا عن الخيول والبغال والملابس الكثيرة ، بل والمزيد من هذه الهدايا فى السنوات التالية . ولكى تفهم معنى هذا العرض ، فإن قطعة ذهبية واحدة كانت تساوى ما بين ثمانية وتسعة من الصولدى Solide . كانت الأموال المتداولة بيننا تشمل البيكتافانى (بواتو) والكارتنيس (شارتر) والمانسيس (مانز) واللوكينيس (لوكويس) ، والفالانزانى (فالنس) والميلجو ريئسيس (ملجويل) والبوجيزى (بويه) ، والإسمان الأخيران كانا يستخدمان بدلاً من الأسماء الأخرى . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن سيد جبلة خوفاً من حصار آخر ، أرسل إلى قادتنا ضريبة قدرها خمسة آلاف قطعة ذهبية ، وخيولاً ، وبغالا ، وكمية وافرة من النبيذ [٢٠] .

وأصبحت لدينا مؤن كافية لأن الهدايا كانت ترسل إلينا من القلاع والمدن الأخرى غير جبلة ، وفضلا عن ذلك ، فإن بعض المسلمين ، بدافع من الخوف أو

التحمس لطريقتنا فى الحياة ، تنصّروا . وبسبب هذا الثراء الجديد ، أرسل كل واحـــد من أمرائنا الرسل بالرسائل إلى المدن الإسلامية يبلغها أنه هو سيد الصليبيين . هكذا كان سوء سلوك أمرائنا فى ذلك الوقت ، وكان تانكرد من أكبر مثيرى الفتنة . وتذكرون أن تانكرد كان قد قبل خمـسة آلاف صولدى ، وحصانين عربيين من سـلالة ممتازة ، من ريموند ، مقابل خدماته أثناء الرحلة إلي بيت المقدس . لكنه الآن كان يريد أن ينضم إلى قوات جودفرى . وهكذا دبّ النزاع بينه وبين ريموند ، وأخيراً تخلى تانكرد فى خسّة عن الكونت .

* * * * *

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) « كفر طاب » بلدة صغيرة من جند حمص غربى حلب ، على الطريق بين معرة النعمان وشيزر . بينها وبين المعرة وشيزر إثنا عشر ميلا . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٣٣ . جـ ٤ ، ص ١٢٥ .
(الترجمة العربية) .

(٢) كانت حالة التفكك على الجبهة الاســـلامية أقوى من أن يتحرك حكام الشرق الأدنى الاسلامى متضافرين لمواجهة الغزو الصليبى للمنطقة ، أو أن تحركهم المقاومة الباسلة التى أبداها أهل البارة ثم عرقة بعد ذلك ، للتصدى للفرنج . فأسرعت الأسرات العربية المحلية بالشام إلى إظهار الاستعداد لعقد اتفاقات مع الفرنج . فنجد أمراء حماة وحمص يتخلون عن فكرة مقاومة الصليبيين ، ونجد أمراء شيزر من بنى منقذ يمدون الفرنج بأدلاء يقودون الطريق إلى الساحل ، ثم أمراء طرابلس من بنى عمار ، يمدون الفرنج بالمؤن ، ويدفعون لهم تعويضـات مالية ، ويطلقون أسرى الفرنج الذين كانوا فى طرابلس . وللمزيد عن رحلة الصليبيين ، التى تعتبر رواية ريموندإجيل عنها هى أدق الروايات وأكثرها تفصيلاً ، انظر : Gesta Francorum, pp. 72 - 87.
وأيضا :
Albert d'Aix, pp. 453 - 463; Raduf of Caen, pp. 680 ff; Tudebod, De Hierosoly mitano Itinere, RHC - H. Occ., III, pp. 210 - 212.
راجع أيضا: ابن الأثير : الكامل ، جـ . ١ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .
(الترجمة العربية) .

(٣) من المحتمل أن رحيل كونت تولوز إلى كفر طاب كان فى ٨ يناير ١٠٩٩م . وتقع قلعة شيزر جنوبى معرة النعمان . وفى ذلك الوقت كان يحكم فيها أسرة بنى منقذ وكان أميرها هو عز الدين أبو العـساكر سلطان . انظر :
René Grousset, Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalem, Paris, 1934, 1, p. 126; Hagenmeyer, Chr., 338, 341.

(٤) ريموند أوف إل Raymond of Isle . لم يكن من السهل التعـــرف على شخصية هذا الصليبى . ومن المحتمل أن يكون من اقليم Isle Jourdain . فقد رافق كونت تولوز =

= عدد من فرسان هذه المنطقة . ونعرف أن هناك من يدعى بريموند برتراند Raymond Bertrand من هذا الاقليم مع البروفنساليين . انظر :

Histoire generale de Languedoc, 3, p. 494.

(٥) كاميلا Camela هو الاسم اللاتينى القديم لإمسا Emessa وهى حمص Homs الحالية انظــــر :

Anonymi Gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, ed. H. Hagenmeyer, Heidelberg, 1890, p. xxxiv, 10, n. 43.

(٦) وجيبلليوم Gibellum هى جبلة Jabala القديمة . وهى ميناء يقع بالقرب من اللاذقيـة وأنطرطوس . وقد عقبنا على حديث المؤرخ فى كتابنا : Raymond IV, pp. 113-115 ولا نولى روايته الثقة الكاملة .

– وجبلة « قلعة على الساحل الشامى بينها وبين اللاذقية اثنا عشر ميلا من جهة الجنوب ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا » . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤٨ – ١٤٩ .
(الترجمة العربية) .

(٧) عكا مدينة ساحلية قديمة (Potolemais) . وصور مدينة ساحلية فى بلاد الشام (Sur) وعن طرابلس ، انظر ماتقدم ، فصل ١٣ ، حاشية رقم (١) .

(٨) وصف المؤلف لهذا الكمين مطابق تماماً لروايته عن الكمين السابق الذى نصبه البجناك . انظر ما سبق ص ٦٩ .

(٩) كان يحكم فى دمشق فى ذلك الوقت دقاق ابن تتش السلجوقى شقيق رضــوان ملك حلب . انظـــر :

Harold Fink, The role of Damascus is the History of rhe Crusades, in M.W., 49, 1, 1959.

وكان وليم أوف كونيلياكوم William of Cuniliacum شخصاً مغموراً غير معروف . ويشير HGL, 3, p. 523 إلى فارس من كوملياك Cumliac أو كينلياك Ciniliac .

(١٠) هذه القلعة هى كرك الفرســان krak des Chevaliers أو حصن الأكراد . ولا تزال هذه القلعة قائمة فى سوريا ، وهى إحدى أشهر الآثار الصليبية . انظر :

René Dussaud, Topographie Historique de la Syrie antique et médiévale, Paris, 1927, p. 92; Paul Deschamps, Les Chateaux des croisés en Terre Sainte : Le Crac des Chevaliers, Paris, 1934, pp. 113 - 115.

وكانت الإغارة والاستيلاء على القلعة فى ٢٨ – ٢٩ يناير ١٠٩٩ م .

(١١) « ساعدنا يارب » تعبير مقتبس . انظر : Breviarium, Verna, p. 231.

(١٢) كان أمير حمص فى ذلك الوقت هو جناح الدولة خلف بن ملاعب الذى عينه صاحب حلب شرف الدولة مسلم العقيلى والياً على حمص فى ١٠٨٢م / ٤٧٥ هـ ، ليكون بمثابة حاجز بينه وبين تاج الدولة تتش السلجوقى . وبقى ابن ملاعب فى حمص حتى اغتاله الباطنية فى عام ١١٠٦م / ٤٩٩ هـ . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣١ ، ١٥٠ ، ٣١٨ – ٣١٩ ، ابن الأثيــر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٧٠ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٢٢ .
(الترجمة العربية) .

(١٣) دعاء ريموند اجيل بأن يمحى اسمه من سجل الأحياء مقتبس من المزامير ومن سفر الخروج . انظــــر :
Psalm, 65 : 29, Exodus, 32 : 32.

(١٤) « المحبة لا تسقط أبداً » تعبير مقتبس من رسالة بولس الحوارى الأولى إلى أهل كورنثة والتى وردت فى العهد الجديد . انظر : I Corinthians, 13 : 8.
وسنقوم بتعريف المدينة . والحكام بتسلسلهم وليس بأسلوب ريموند اجيل فى تقديم الأحـــداث .

(١٥) اللاذقية مدينة ســاحلية (Laodicea) . وانطرطوس Tortosa أيضا مدينة ساحلية فى بلاد الشام (Antaradus) . وعرقة Arqah (Irqah) تتحكم فى الطرق المؤدية إلى كل من طرابلس واللاذقية وحمص . ومن الواضح أن المؤرخ لم يدرك الأهمية العسكرية لهذه المدينة . وقد بدأ حصار الفرنج لعرقة فى ١٤ فبراير ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 352.

– يذكر القلقشندى أن اللاذقية « أجلّ مدينة بالساحل منعة وعمارة . ولها ميناء حسنة ، ومنها إلى أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا » . بينما يذكر ياقوت الحموى أن أنطرطوس « مطلة على البحر فى شرقى عرقة بينهما ثمانية فراسخ ولها برجان حصينان كالقلعتين » . وذكر ياقوت أيضا أن عرقة « بلدة فى شرقى طرابلس ، بينهما أربعة =

= فراسخ ، وهى آخر أعمال دمشق ، وفى سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل وعلى جبلها قلعة» . انظر: القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٦٥٣ .
الترجمة العربية) .

(١٦) أنسلم أوف ريبمونت Anselm of Ribemont هو راهب ريبمونت ، وهو اقليم يقع فى وادى أويز Oise بالقرب من سان كوينتن بفرنسا . وهو صاحب رسالتين شهيرتين تتعلقان بالحملة الصليبية الأولى . انظر :

Hagenmeyer, Epistolae, pp. 156 ff.

(١٧) لورد إنجلراند Lord Engelrand شخص لم يتم التعرف عليه ويستخدمه المؤرخ ليضيف إلى قصته لمسة واقعية . ويستخدم إقتباسات من القداس . وعلى سبيل المثال ، يسأل أنسلم لورد إنجلراند « ماذا يجرى هنا ؟ لقد مت . والآن ها أنت حيا » ولاشك أنه اقتبس هذا التعبير من سفر الرؤيا . انظر :

Apocalypsis Beati Joannis Apostoli, 1 : 18.

(١٨) عن البعثة الصليبية إلى القاهـرة ، انظر حاشية رقم ٦ من الفصل الخامس . وفى ٢٦ أغسطس ١٠٩٨م قام الأفضل شاهنشاه (الوزير الفاطمى) بالاستيلاء على بيت المقدس من حكامها الأتراك سقمان وإيلغازى إبنى أرتق بعد الرفض الصليبى السابق لعرض الأفضل بتقسيم الشام وفلسطين بينه وبينهم . ويكشف المؤرخ هنا عن العداء بين الأتراك والفواطم .

- سبق أن ناقشنا القضية التى تتعلق بموقف الفواطم من الحملة الصليبية الأولى . انظر ماسبق ، الفصل الخامس ، حاشية رقم (٦) . أما عن رواية ريموندأجيل هنا ، فليس هناك مايثبت حقيقتها . فى الوقت الذى يتوفر لدينا مايدفع إلى عدم الأخذ بها أو الاطمئنان إليها . فكل مايرويه ريموندأجيل لم يرد عند سواه من مؤرخى الحملة المعاصرين ، وخاصة مؤلف الجستا الذى لازم الحملة حتى بيت المقدس منفصلا عن سيده بوهيمند الذى بقى فى أنطاكية . ولو كانت البعثة الفرنجية قد عادت إلى عرقة ، أو كانت السفارة الفاطمية أو مثيلتها التركية المشار إليهما فى المتن قد وصلتا بعروضيهما إلى المعسكر الصليبى عند عرقة لكان مؤلف الجستا ذكر ذلك ليؤكد روايته الأولى عن وجود السفارة الفاطمية خارج أنطاكية من قبل . وإذا كان رنسيمان يسرد رواية =

= ريموندأجيل كاملة على أنها حقيقية ، وإذا كان رنسيمان أيضا يحاول تأكيد رواية المؤرخ بتوثيقه إياها بكتاب وليم الصورى إلى جانب كتاب ريموندأجيل ، فمن السهل الرد على ذلك بأن وليم الصورى نقل روايته عن ريموندأجيل . وربما تقع حقيقة ماحدث فى أن السفارة الفرنجية ربما تكون قد عادت بطلب الأفضل بعدم تعرّض الفرنج لأملاكه فى فلسطين وخاصة بيت المقدس ، على أن يتمتع هؤلاء بحق الذهاب إلى المدينة مثل غيرهم من المسيحيين لأداء طقوس عبادتهم تسامحا من السلطات الاسلامية فى مصر، الأمر الذى كان سائدا قبل وصول الفرنج إلى بلاد الشام . أما عن تواطؤ الامبراطور البيزنطى الذى أثبته عثور الفرنج على مراسلاته للفواطم ، فإن المراسلات كانت تصل إلى القاهرة وليس إلى عسقلان . كما أنه من السهل الوقوف على نوايا المؤرخ ومحاولته إدانة الامبراطور البيزنطى بتهمة الخيانة منذ دخول الفرنج أراضى دولته . انظر :

Runciman, op. cit., Vol. 1, pp. 272 - 273.

(الترجمة العربية) .

(١٩) يشير ريموندأجيل إلى خليفة بغـــداد على أنه البابا بالنسبة للأتراك . وكان الخليفة العباسى وقتذاك هو الخليفة المستظهر (١٠٩٤ - ١١١٨ م) . وكانت السلطة الفعلية فى أيدى السلطان السلجوقى . ويتهم ألبرت دكس كونت تولوز بأنه تلقى رشوة من حاكم جبلة حتى يغرى كلا من كونت الفلاندرز وجودفرى بعدم التعرّض للمدينة . ومن ناحية أخرى ، فقد أيد المؤرخون المسلمون رواية ريموندأجيل حين ذكروا أن المسلمين أشاعوا ذلك . وليس هناك سبب قوى للشك فى رواية المؤلف . وقد غادر جودفرى وكونت الفلاندرز جبلة فى ١٢ مارس ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 360.

(٢٠) Charles du Fresne du Cange, Moneta, Glossarium mediae et infimae Latinitatis, Niort, 1883 - 1887, 4, p. 527.

الفصل الثانى عشر
رؤى ومحنة الحربة المقدسة

أُعلِنَتْ الآن رؤى كثيرة أرسلها إلينا الرب ، وسأحكى ، أنا مؤلف هذا الكتاب ، الرؤيا التالية تحت اسم الشخص الذى شهدها .

« فى عام ١٠٩٩م ، فى الخامس من أبريل وبينما كنت أنا ، بطرس بارثولوميو ، أستريح فى مصلى الكونت ، أثناء حصار عرقة ، فكرت فى الكاهن الذى تجلّىٰ له الرب ، بالصليب فى زمن حصار كربوغا ، ولما تساءلت لماذا لم يتجلّ لى على الصليب ، أنظر إلى ! لقد رأيت الرب والرسولين ، بطرس وأندرو ، وشخصاً غريبا ، ضخم الجثة ، قاتم البشرة ، كبير العينين ، أصلع تقريبا ، يدخلون المصلى .

ثم سألنى الرب : « ماذا تفعل ؟ » فأجبت : « إننى أقف هنا » .

واستأنف الرب كلامه قائلاً : « لقد غلبتك الآثام تقريبا ، كالآخرين ، ولكن ماهى أفكارك الآن ؟ » .

فأجبت : « يارب ، يا أيها الأب ، لقد كنت أفكر في الكاهن وظهورك على الصليب له » . فقال الرب : « إننى أعلم ذلك » . واستمر يقول : « آمن بأننى أنا الرب الذى ذهبت من أجله تحمل الصليب ، وأننى تحملت الآلام على الصليب فى بيت المقدس ، من أجل خطاياكم ، وإذا آمنت بذلك فسوف ترى » .

« ثم رأيت صليباً مصنوعاً من قطعتين من الخشب الأسود المستدير المصقول ، مركباً بشكل سيء باستثناء الوصلات المسننة التى تدعمه عند المنتصف » .

وأمرنى الرب قائلاً : « أنظر على الصليب الذى تبحث عنه ، وهناك على الصليب كان الرب ممدداً ومصلوباً ، تماماً كما هو فى الآلام وكان بطرس يسنده عن يمينه وأندرو عن شماله يمسك كتفيه والغريب من خلفه يسنده بيديه [١] .

« واستمر الرب فى إعطاء تعليماته : « أبلغ شعبى بهذه الرؤيا . هل ترى جراحى الخمسة ؟ كهذه الجراح يقف الصليبيون فى خمسة صفوف [٢] . ولايخشى الذين فى الصف الأول الرماح ولا السيوف ، ولا أى نوع من العذاب ، ويشبهنى الذين ذهبوا إلى بيت المقدس دون أن يخشوا السيوف والجراح والهراوات والعصى ، وحتى الصليب . إنهم يموتون من أجلى كما مت من أجلهم ، ومعاً نسكن روحياً الواحد منا الآخر . وعند موتهم سيجلسون إلى يمين الرب ، فى المكان الذى جلست فيه بعد تيامى وصعودى [٣] . أما الذين فى الصف الثانى ، فإنهم مساعدون للذين فى الصف الأول ، وهم حرس مؤخرة ووقاية فى حالة الفرار . وهذا الصف - يمكن أن أقول يشبه الرسل الذين تبعونى وشاركونى الطعام والذين فى الصف الثالث ، يعملون فى الإمداد ، ليمدون الذين يقاتلون بأشياء مثل الأحجار والرماح وهم يذكروننى بأولئك الذين راحوا يضربون صدورهم ويصرخون في مواجهة الظلم ، وأنا معلق على الصليب أعانى من آلامى [٤] . أما الذين فى الصف الرابع ، أغلقوا على أنفسهم بيوتهم واهتموا بشئونهم الخاصة عندما تنشب الحرب ، لأنهم يعتقدون أن النصر لايكمن فى قوتى أنا بل في الحكمة البشرية . أنهم يشبهون من صلبونى قائلين : « انه يستحق الموت ، خذوه إلى الصليب لأنه يزعم أنه ملك ، وأنه ابن الله [٥] . أما الذين في الصف الخامس ، فإنهم عندما سمعوا جلبة المعركة نظروا إليها عن بعد ، وبحثوا عن سببها ، وأظهروا جُبناً بدلا من الشجاعة ، ولم يدخلوا فى أى مجازفة من أجلى ، أو من أجل إخوتهم . والواقع ، أنهم تحت قناع الحذر يدعون من يرغبون فى خوض القتال أو على الأقل فى تقديم السلاح بأن يجلسوا على الجياد فهم أشبه بالخونة يهوذا والقاضى بونطيوس بيلاط » .

« كان الرب معلقاً على الصليب عارياً إلا من خرقة على وسطه ذات ظل أسود وأحمر تحفه شرائط بيضاء وحمراء وخضراء ، وكانت الخرقة تتدلى من خاصرتيه إلى ركبتيه » [٦] . وبعد ذلك اختفى الصليب . وبقى الرب فى ملابسه السابقة . فقلت له : « سيدى الرب ، إذا أبلغتهم بذلك فلن يصدقونى » .

« ورد الرب قائلا : « هل تريد أن تعرف المتشككين ؟ » فأضفت قائلاً : « إننى أريد ذلك فعلاً » .

وهنا أمرنى المسيح قائلاً : « اطلب من الكونت أن يستدعى القادة والعامة معاً ، واجعلهم يصطفون كما لو كانوا فى قتال أو حصار ، وفى الوقت المناسب اطلب من أحسن المنادين أن يطلق صيحة القتال « ساعدنا يارب » ثلاث مرات ، واطلب منهم أن يحاولوا استكمال النظام العسكرى ، وعندئذ ، كما قلت لك ، سترى الصفوف وتتعرف على المؤمنين وغير المؤمنين » .

ثم سألت « ماذا ستفعل بالمتشككين ؟ » فأجاب الرب : « لا تُظهر لهم أى رحمة . اقتلوهم إنهم من خانونى ، إخوة يهوذا الاسخريوطى . واعطوا ممتلكاتهم الدنيوية لأول صف وفقاً لاحتياجهم ، وبهذا العمل ستجدون الطريق الصحيح الذى كنتم حتى الآن تدورون حوله . وكما تحققت التجليات الأخرى كما تنبأت بها ستتحقق هذه . وبهذه المناسبة هل تعرف الجنس الذى أحمل له تقديراً خاصاً ؟ » .

وأجبت قائلا : « الجنس اليهودى » .

فقال الرب « اننى أحمل الكراهية لهم بصفتهم كفاراً ، وأضعهم مع أحط الأجناس [٧] لذلك تأكدوا من أنكم لستم كفاراً ، والا ستكونوا مع اليهود وسوف أختار شعباً آخر وأحقق لهم وعودى التى وعدتكم بها » .

ثم أمرنى الرب بأن أحكى مايلى للصليبين « لماذا تخافون اقرار العدالة ؟ دعونى أسألكم : ما الذى يفوق العدالة ؟ إننى أريدهم أن يفعلوا ما يلى - يعيّنوا قضاة بالأسر والأقارب ، وإذا ارتكب شخص جرماً فى حق آخر فليسأل القاضى ، أيها الأخ هل تحب أن تعامل هذه المعاملة ؟ وإذا استمر المعتدى فليحكم عليه وفقاً لحقه القانونى . وبناء على ذلك فليشعر القاضى بحريته فى أن يستولى على كل ممتلكات المدَّعى عليه ، فيعطى نصفها للمدعى ، ونصفها للسلطات . وإذا قال القاضى كلاما يحتمل معنيين ، لأى سبب من الأسباب ، فاذهب إليه وأخبره أنه

إذا لم يُصلح ذلك الأمر ، فلن يتحلل منه حتى إلى نهاية العالم ، إلا إذا حللته أنت . هل تعرف كم يكون الحرمان عبئاً ثقيلاً ؟ لقد أمرت آدم ألا يلمس شجرة المعرفة أي الخير والشر [8] . وخالف أمري ، وهكذا ظل هو وذريته في قيود تعسه ، حتى أتيت في شكل إنسان فانٍ وفديتهم بصَلْبي . وسأقول أن البعض ينبغي أن يأخذ من العشور لأنهم أعطوا كما أمروا ، وسأكافئهم وأجعلهم من المتفوقين » .

وبعد كلام الرب طلبت منه أن يعيد إليّ بعطف من قلبه معرفة الخدمات (الصلوات) التي أُخذت مني حديثاً في أنطاكية . وهنا سألني الرب « ألا تكفي معرفتك لكي تحكي ماتعرف ؟ ومع ذلك فإنك تريد أن تعرف المزيد » . « وفجأة أصبحت أثق في حكمتي ولم أطلب شيئاً آخر ؟ » ، وأجبت : « إنها كافية » . ثم استأنف الرب كلامه قائلاً : « ماذا أخبرتك ؟ أجب » . ووجدتني الآن لا أعرف شيئاً ، وعندما ألحّ علي لأكرر كلماته اعترفت : « يارب أنا لا أعرف شيئاً » ورد الرب : « اذهب وأحك ماتعرفه وسيكون هذا كافياً » .

وعندما حكينا هذه الأشياء للإخوة ، قال البعض أنهم لن يصدقوا أبداً أن الرب قد أجرى حوارا مع رجل كهذا ، متغاضيا عن الأمراء والأساقفة ، ومُظهرا نفسه لفلاح جِلْفٍ أميّ ، بل إنهم تمادوا حتى راحوا يلقون بالشكوك حول الحربة المقدسة . بالتالي جمعنا أولئك الذين كُشِفَتْ الحربة أمامهم من قبل ، ثم استدعينا أرنولف القسيس الخاص بكونت نورماندي ، وزعيم المتشككين في الرؤيا ، رغم أنه كان يتمتع باحترام كبير بسبب علمه [9] . ثم سألناه عن شكوكه .

وأجاب بأنه كان يتشكّك ، لأن الأسقف أدهيمار كان قد تشكّك في حقيقة الحربة . وهنا أجاب كاهن هو بطرس ديزيدريوس : « بعد موت أدهيمار رأيته هو والمبارك نيقولاس ، وقال لي أخيرا : إنني أقيم في الضيافة السماوية للقديس نيقولاس ولكن لأنني تردّدت في الإيمان بحربة الرب ، بينما ، كان ينبغي أن أقبلها أنا بالذات من دون الناس ، فقد أُخذت إلى الجحيم [10] . وأُحْرِقَ الشَعْرُ الذي كان على الجانب الأيمن من رأسي ونصف لحيتي ، ورغم أنني لا أعاقَب الآن ، فإنني لا أستطيع أن أرى الرب بوضوح حتى النمو الكامل لشعري ولحيتي من جديد » [11] .

وروى لنا بطرس ديزيديريوس هذه الرؤيا ، ورؤى أخرى كثيرة تحققت فيما بعد ولكننا سنحكيها في وقتها .

وتقدم إيبرار وهو كاهن ، وقال « لقد ذهبت إلى طرابلس قبل الاستيلاء على أنطاكية بوقت قصير ، وكنت هناك حيا أرزق عندما سمعت بحصار كربوغا للصليبيين [12] . وعند تلقي هذه الأخبار ، عرفت أن دخول أنطاكية والخروج منها أمرا مستحيلاً . كما سمعت عن الكثير من المصائب الحقيقية والوهمية أيضاً التي نشرتها أكاذيب المسلمين . وهكذا التجأت ، خوفاً من الموت ، إلى كنيسة ، وسقطت أمام تمثال مريم العذراء . ولعدة أيام طلبت بالدموع والصلوات متوسلاً بشفاعتها ، رحمة الرب ، وأنا صائم بصفة دائمة وأتوسل إليها قائلا : « أيتها السيدة الطيبة ، إن هؤلاء حجاج تركوا أطفالهم ، وزوجاتهم ، وممتلكاتهم الدنيوية ، باسم المسيح ، ومن أجلك ، والآن ها هم قد ارتحلوا إلى هنا من أماكن بعيدة ، ويحاربون من أجل إبنك ، فاشفقي عليهم . يا سيدتي وفكري في رأي ابنك ورأيك وفي أراضيهم إذا أسلمتيهم إلى الاتراك » .

« وربحت أغمغم وأتأوه بهذه الكلمات المرة بعد المرة ، عندما جاء مسيحي سوري وقال لي : « ابتهج وتوقف عن البكاء » واستأنف كلامه قائلا : « منذ فترة وجيزة وقفت أمام أبواب كنيسة مريم المباركة ، أم المسيح ، وإذا بكاهن في ملابس بيضاء يظهر [13] . وعندما سألته عن اسمه ووطنه أجاب : « إنني مرقس ، المبشر الإنجيلي ، جئت من الاسكندرية حديثا ، وقد عرّجت على هنا بسبب كنيسة مريم المباركة » .

« ثم سألته عن وجهته وأجاب مرقس : « إن المسيح يقيم الآن في

أنطاكية ، ويأمر تلاميذه أن ينضموا إليه ويساعدوا فى المعركة التى يجب أن يخوضها الفرنجة مع الأتراك » وبعد ذلك انصرف » .

« وعندما بقيت على شكى وحزنى ودموعى طمأننى نفس السورى قائلا : « يجب أن تفهم أنه مسجل فى انجيل بطرس المبارك ، أن الشعب المسيحى المقدر له أن يستولى على بيت المقدس ، سيحاصَر أولا فى أنطاكية ، ولن يخرجوا من الحصار إلا بعد أن يجدوا الحربة المقدسة » (١٤) .

ثم دلل إيبرا على كلامه قائلا : « إذا كان أحد يتشكك فى ذلك . فلتشعلوا ناراً للإختبار ، وسوف أعبرها باسم الله ودليلا على ذلك » .

واقترب كاهن آخر هو ستيفن من فالنس وهو شخص محترم وطيب ، وأضاف إلى هذه الشهادة قائلا : « لقد تحدث إلىّ المسيح فى محنة من أشد المحن وفى حضور أمه المباركة ، مريم العذراء ، وعد بأنه فى اليوم الخامس بعد هذا الحديث ، سيكون رحيما وينهى آلام المسيحيين ، إذا عادوا إليه بكل قلوبهم . وأعتقد أن الرب كان صادقاً فى كلمته ، لأن الحربة المقدسة اكتُشِفَت فى اليوم الخامس . والآن إذا كنتم لا تصدقوننى فإننى أقول أننى بعد هذه الرؤيا مباشرة ، عرضت على أدهيمار كبرهان على ذلك ، أن أخوض إختبار النار أمام الجمهور أو أقفز إن شاء من فوق أعلى برج ، وأنا الآن أعرض عليكم نفس الشىء » .

وزاد أسقف آبت من قائمة شهودنا المتنامية ، فتقدم وشهد بأن « الرب فقط يعرف ما إذا كنت قد رأيت ذلك فى المنام أم لا ، لأنى لا أعرف بكل تأكيد (١٥) . ومهما يكن فقد وقف أمامى رجل فى ثياب بيضاء ، وقد أمسك فى يده حربه الرب ، هذه الحربة ، أقول ، وسألنى : « هل تعتقد أن هذه حربة الرب ؟ » . وأجبت : « بالتأكيد ياسيدى » . « ولكن لما بدا على عدم الاقتناع طلب منى بخشونة إجابتين أخريين وكررت : « إننى اعتقد أن هذه هى حربة الرب ، يسوع المسيح ، واختفى فى الحال » .

الشهادة : « لقد كنت هناك فى كنيسة القديس بطرس عندما أخرجت الحربة من تحت الأرض ، وهناك شهود كثيرون آخرون على ذلك فى الجيش » . واستطردت قائلاً : « هناك كاهن هو برتراند أوف لى بويه ، وهو عضو فى أسرة أدهيمار أثناء حياته ، وقد أصيب بمرض مميت فى أنطاكية . وفى ذلك الوقت ظهر لبرتراند أدهيمار ، وحامل رايته هرقل ، الذى أصيب فى وجهه بسهم وقُتل ، بعد أن هاجم الأتراك بشجاعة فى أشرس معركة دارت فى أنطاكية .

وهنا سأل أدهيمار : « ماذا تفعل يابرتراند » وأجاب هرقل : « ياسيدى إنه مريض » . وأجاب الأسقف : « إنه مريض لأنه متشكك » . وهنا همس برتراند : « ياسيدى إننى لا أومن بحربة الرب كما أومن بآلام الرب » ؟ » . فحذره أدهيمار : « إن هذا لايكفى . فينبغى أن تؤمن بأكثر من ذلك » .

ورغم أن ما تلا ذلك يخرج عن موضوعنا ، فإننى سأسجله لأهميته لنفع من يستحقون . وعندما اضطر برتراند المريض المترنح إلى الجلوس أمام أدهيمار وسيده هرقل ، رأى عندما جلس هناك جرح السهم المحزز الذى أنهى عمر هرقل الدنيوية . وهنا سأل برتراند : « ياسيدى لقد ظننا أن جرحك التأم ، ولكن ما هذا ؟ » .

وأجاب هرقل : « هذا سؤال جيد . عندما جئت إلى الرب ، يسوع المسيح ، توسلت إليه أن يترك جرحى مفتوحاً لأنه أنهى حياتى ، وهكذا فإنه يجب أن يبقى بمشيئة الرب دون التئام » . ولم يبلغ أدهيمار وهرقل برتراند بذلك فحسب ، بل أضافا أشياء أخرى لا تتعلق بهذه الرواية » (١٦) .

وآمن أرنولف بالحربة واعترف بعد أن سمع تلك الرؤيا وغيرها . بل إنه وعد أسقف البارة بأن يكفّر تكفيرا علنيا بسبب تشككه ، ولكنه عندما جاء فى أحد الأيام إلى اجتماع ، أعلن أنه يؤمن كل الإيمان بالحربة ، إلا أنه قال كلاماً فيه تورية ، عندما قال أنه سيكفّر فقط بعد التشاور مع سيده .

وكانت أنباء موقف أرنولف سببا فى أن يسخط بطرس بارثولوميو ، وهو على حق ، كرجل صريح لكنه صادق . واندفع قائلا : « اننى لا أتمنى فقط بل أتوسل إليك أن تشعل ناراً ، وسأخوض اختبار النار وفى يدى الحربة المقدسة . وإذا كانت هى حربة الرب حقاً فإننى سأخرج منها دون أن أكوى بالنار [١٧] . ولكن إذا كانت حربة زائفة فستهلكنى النار . وأنا أعرض أن أفعل ذلك . لأنى أرى أنه لا أحد يصدق الرؤى أو الشهود » .

وأرضى ذلك الجمهور ، وحددنا موعد اختبار النار فى يوم آلام الرب على الصليب من أجل خلاصنا ، وأمرنا بطرس بارثولوميو بالصوم . وبعد أربعة أيام ، ومع بزوغ فجر الجمعة الحزينة (٨ أبريل ١٠٩٩ م) ، بدأ إعداد كومة الأخشاب ، واكتملت بعد منتصف النهار ، واحتشد نحو ستين ألفا من النبلاء ، والشعب مع رجال الكنيسة الحفاة الأقدام ، الذين يرتدون الثياب الكهنوتية . ورصت فروع الزيتون الجافة فى كومتين ارتفاعهما أربعة أقدام ، يفصل بينهما نحو قدم واحد ، ويبلغ طولهما ثلاثة عشر قدما .

وبعد إشعال النار وانطلاق لهيبها فى الهواء أعلنت أنا ، ريموندأجيل ، فى حضور الجمهور : « إذا كان الرب القادر على كل شىء قد تحدث إلى هذا الرجل شخصياً ، وإذا كان القديس أندرو ، قد كشف له الحربة المقدسة فى صلاة الليل ، فليمش فى النار دون أن يمسه أذى ، ولكن إذا كانت هذه أكذوبة فلتلتهم النار بطرس بارثولوميو والحربة » . وركعت الجماهير قائلة : « آمين » وارتفعت الحرارة اللافحة ثلاثين ذراعاً في الهواء ، ولم يستطع أحد أن يقترب منها .

ثم ركع بطرس بارثولوميو على ركبتيه وهو يرتدى ثوبا كهنوتيا بسيطا بلا أكمام ، أمام أسقف البارة ، وأشهد الرب على أنه قد رأى المسيح شخصياً على الصليب وتلقى منه التعليمات المذكورة من قبل ، وأيضا تعليمات من القديس بطرس ، والقديس أندرو ، وأن التبليغات التى أبلغها باسم القديس بطرس أو القديس أندرو أو المسيح لم تكن من تأليفه . وأضاف أيضا أنه إذا كان

قد كذب ، فإنه لن يخرج حيا من الكومة المشتعلة . ودعا أن يغفر الرب له على تطاوله على الرب وعلى جيرانه ، وأيضا على الأسقف والكهنة والمشاهدين لهذا الإختبار . وبعد ذلك سلّمه الأسقف الحربة . وركع بطرس ورسم إشارة الصليب ، ومشى داخلاً الكومة المشتعلة بشجاعة ودون أن يخيفه شىء ومشى بتمهل فى وسطها وأخيرا ببركة الرب خرج من اللهيب .

وحتى يومنا هذا يزعم بعض المراقبين أنهم رأوا هذه العلامة : وهى أن طائرا طار فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من قبر النيران ، ودار ونزل فى النيران وشهد بذلك كل من إبراره ، الذى ذكرناه سابقاً ، والذى أقام فيما بعد فى بيت المقدس من أجل الرب ، ووليم بونوفيليوس ، وهو فارس محترم ممتاز من أرليس Arles . وذكر وليم مالوس بوير ، وهو فارس محترم من بيزييه ، أن رجلا يرتدى الملابس الكهنوتية ، وبدلة القداس فوق رأسه ، دخل اللهب قبل أن يدخل بطرس [١٨] . وذكر وليام أنه بدأ يصرخ عندما لم يستطع أن يرى الرجل يخرج من النار لأنه أخطأ ، وظنه بطرس بارثولوميو ، واعتقد أن بطرس قد إلتهمته النيران .

وفى الزحام الشديد لم تُشاهَد أشياء كثيرة ، ولكن هناك تجليات وأحداثاً كثيرة نعرفها بكل تأكيد ، ولكننا لن نحكيها خوفاً من إصابة القارىء بالسأم . فضلا عن ذلك فإن ثلاثة شهود قادرين يعتبرون كافين لكافة الأحكام . إلا أننا لن نستبعد هذه : فبعد أن عبر بطرس النار ، راح الجمهور الذى أصيب بالخرف يخطفون العصى المشتعلة والفحم المتوهج ، بحيث أنه لم يبق بعد وقت قصير إلا الأرض التى إسودت من النيران . وفيما بعد ومن خلال هذه الآثار ، التى آمن بها الناس ، صنع الرب الكثير من الأعمال الجليلة .

سار بطرس خلال النار ولم يحترق ثوبه الكهنوتى ، والحربة المقدسة ، التى كانت ملفوفة فى أغلى أنواع القماش . وعندما خرج ، لوّح للجماهير ورفع الحربة وهتف قائلاً : « يارب ساعدنا » . وهنا أمسكت به الجماهير ، أمسكت به

الجماهير أتول وجذبته إلي الأرض . وأخذ كل فرد تقريبا من الرعاع يدفع ويدافع معتقداً أن بطرس كان قريباً ويأمل أن يلمسه أو يخطف قطعة من ثيابه . وجرحه الرعاع ثلاثة جراح أو أربعة فى ساقيه فى أثناء التزاحم ، كما كسروا عموده الفقرى . ونعتقد أن بطرس كان سيموت هناك ، لولا أن ريموند بيليه ، وهو فارس مشهور وشجاع ، قام بمساعدة زملاء كثيرين بمهاجمة الرعاع المتدافعين ، وجازف بحياته لينتزعه منهم . لكن لا يمكننا كتابة المزيد بسبب قلقنا وحزننا [١٩] .

وبعد إلتئام جراح بطرس بقى حيث حمله ريموند بيليه Pilet . وسألنا عن الشيء الذى جعله يقف فى النار . وأجاب : « لقد قابلنى الرب فى اللهب ، وأمسك بيدى وقال لى : « بسبب شكوكك حول اكتشاف الحربة المقدسة فى زمن تجليات القديس أندرو ، فإنك لن تعبر دون جروح لكنك لن ترى الجحيم . وبعد هذه الكلمات اختفى الرب » . واستأنف بطرس كلامه قائلاً : « هل ترغبون فى رؤية حروقى ؟ » كانت جراحه قاسية ، أما الحروق التي كانت على ساقيه فكانت تافهة .

ثم جمعنا المتشككين ليفحصوا وجهه ورأسه وشعره وأجزاء أخرى من جسده ، حتى يتأكدوا من صدق رؤيا بطرس التى تحمل من أجلها امتحان النار . ومجّد الكثيرون ، عند رؤية وجهه وجسده ، بهذه الكلمات « ان الله الذى خلّص هذا الرجل ، من هذه النيران اللافحة ، النيران التى بلغ من حرارتها أننا أعتقدنا أن سهماً لايمكنه أن يمر منها دون أن يحترق تماماً ، يمكن بكل تأكيد أن يكون حامياً لنا وسط سيوف المسلمين » .

وبعد ذلك دعا بطرس ريموندأجيل ، كاهن الكونت وسأله : « لماذا أردت أن أخوض امتحان النار لأثبت رؤاى للحربة المقدسة وأوامر الرب ؟ بالتأكيد إننى أعرف أفكارك المتميعة » وكشف عن ظنون ريموند .

وعندما أنكر ريموند هذه الظنون أتهمه بطرس قائلاً : « إنك لاتستطيع إنكار هذا الدليل الدامغ لأنى عرفت الحقيقة ذات ليلة من مريم العذراء وأدهيمار . لقد اندهشت جداً عندما علمت أنه رغم أنك لم يكن لديك أى شك فى كلمات الرب ورسله ، فإنك قد تمنيت هلاكى وأنا أتمم الدليل على هذه الرؤى ذاتها » .

وعندما كشف بطرس أكاذيب ريموند وقتها أمام الرب ، بكى ريموندأجيل فى ألم . وواساه قائلاً « إننى لا أريد لك أن تبتئس ، لأن مريم العذراء المباركة وأندرو المبارك ، سيحصلان لك على العفو أمام الرب إذا أنت صليت لهما بحرارة » [٢٠] .

* * * * *

(١) من المحتمل أن وصف ريونداجيل لنزول المسيح من الصليب مقتبس من أدب هذه الفتـرة .

(٢) تعبير الخمسة صفوف كان تعبيرا شائعا في القصص المسيحي . ومن المحتمل أن يكون لشيشرون الذي يذكر ستة صفوف في خطبته ضد القطلان تأثير كبير على الكُتّاب اللاحقين . انظر :

Cicero, Socond Oration Against Cataline, VIII - X.

(٣) و المسيح يجلس إلى يمين الرب ، تعبير اقتبسه المؤرخ من انجيل متى (ابن الانسـان جالسا عن يمين القوة) . انظر :

Matthew, 26 : 64; Breviarium, Ordinarium Divini Officii, p. 2.

– مرة أخرى يلجأ ريوندجيل إلى الاقتباس من الانجيل والتوراة ومن الأدب الروماني ومن الكتب الكنسية حتى يعطي لروايته قوة التأثير على المستمعين له من الفرنج . (الترجمة العربية) .

(٤) و الحزانى يقرعون صدورهم ، تعبير مشابه لما جاء في انجيل لوقا . انظر :

Luke, 23, : 48.

(٥) وادعى أعداء المسيح و إنه يستحق الموت ، انظر:

Mark, 14 : 46; Luke, 23 : 21 - 23.

(٦) يوضح وصف المسيح وهو معلق على الصليب استخدام ريوندجيل للأفكار السائدة عن مظهره . فالخرقة التي تتدلى من خاصرتيه إلى ركبتيه كانت النمط السائد في تلك الفترة . وكانت أطول بكثير من ستار العورة المختصر الذي ظهر في فن عصر النهضة . انظـــر :

Alfred Maury, Croyances et légendes du moyen-age, Paris, 1896, pp. 401-403; Bernard Teys'adre, Le Sacramentaire de Gellon, Toulouse, 1959; Planches, horse - texte Pig. 143 v.

والمرجع الأخير به المنظر الأوضح للمسيح .

(٧) « الرب يحمل الكراهية لهم » تعبير يوضح عداء ريموندأجيل للسامية . انظر :

Psalm. 21 : 22.

(٨) يستخدم المؤرخ عبارات من سفر التكوين ليضيف إلى حديثه عن العدالة . انظر :

Genesis. 2 : 17.

(٩) أرنولف أوف تشوكس Arnolf of Chocques هو القس الخاص بروبرت النورماندى وكان يدعى مالبكورن Malecorne . وأصبح بطريركا لبيت المقدس فى عام ١٠٩٩م. ثم عزل من منصبه بعد فترة قصيرة . وأعيد انتخابه بطريركا فى عام ١١١٢م وبقى فى هذا المنصب حتى عام ١١١٨م ، باستثناء فترة قصيرة فى عام ١١١٥م . وقد عقد هذا الاجتماع فى ٦ - ٧ أبريل عام ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr. 363.

- تم انتخاب أرنولف فى أول أغسطس ١٠٩٩م . وكان من المعارضين لذلك المؤرخ ريموندأجيل وجموع البروفنساليين ولم يتمتع أرنولف بتأييد رجال الدين الأرثوذكس لما اتخذه من إجراءات لمنع المسيحيين الشرقيين بصفة عامة من أداء الشعائر الكنسية الشرقية فى كنيسة بيت المقدس . كما قام باضطهاد بعض رجال الدين الشرقيين ليسلموه الجزء الأكبر من صليب الصلبوت . فالكنائس الشرقية التى نعمت بالتسامح فى ظل الحكم الاسلامى ، أدركت ان الفتح اللاتينى لبيت المقدس يعتبر بالنسبة لها بدء فترة الزوال . انظر:

Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 292 - 293.

(الترجمة العربية) .

(١٠) القديس نيقولا saint Nicolas هو أسقف ميرا Myra وقد عُذّب فى عصر دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) . ويحتفل الروم واللاتين بذكراه فى السادس من شهر ديسمبر من كل عام . وقد نقل سكان بارى Bari آثاره هناك فى عام ١٠٨٧م . وقاموا ببناء كنيسة تكريما له . ويروى فولشر أوف شارتر أن الصليبيين توقفوا عند كنيسة القديس نيقولا فى مدينة بارى الإيطالية لتأدية صلاتهم هناك . وانتشرت هذه الطقوس فى ألمانيا وهولندة ثم فى أمريكا بعد ذلك . وبطرس ديزيديريوس Peter Desiderius كاهن جاء مع القوات البروفنسالية التى صحبت كونت تولوز .

(١١) يكرر ريموندأجيل بعضا من رؤيا مشابهة لأدهيمار ومرة أخرى يجب أن تقع النار المقدسة كان عقابا لرجل طيب .

(١٢) إيفرار Evrard كاهن مغمور . ومن الغريب أن نلحظ أنه - إفتراضا - قد ذهب إلى طرابلس أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية . ويبدو ذلك محالا إلا إذا كان الرجل فى مهمة لترتيب اشتراطات بين الفرنج وأهل طرابلس ، أو تكون تحركات الفرنج فى المنطقة سهلة فى ذلك الوقت .

(١٣) المؤرخ هنا يجعل المسيحى الشرقى يقول « إبتهج » . وهو سطر اقتبسه المؤرخ من أعمال الرسل . انظر :

Acts. 27 : 22 : 23.

(١٤) من المحتمل أن تعليمات المسيحى الشرقى مأخوذة من كتابات دينية مشكوك فى صحتها .

(١٥) أسقف آبت Apt أحد رجال الدين البروفنساليين ، وقد تشكك فى حقيقة الحربة المقدسة .

(١٦) تكشف رؤيا القس برتراند Bertrand عن مقدرة المؤرخ فى كتابة الأدب الكنسى . ففى البداية نجده يستخدم العديد من الشهيرة ليقدم المحنة . وهؤلاء الرجال مروا بتجربة أن يزورهم أشخاص سماويون . وقد كان برتراند فى ذلك الوقت مريضا مرض الموت ، وهنا يمنح زائره الفرصة أن يقول أن الرجل مريض لأنه تشكك فى حقيقة الحربة المقدسة . وقد اقتبس المؤرخ وصفه لمرض برتراند من انجيل يوحنا (John. 11 : 4) . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن هرقل حامل لواء أدهيمار الذى لقى مصرعه فى ميدان القتال ، يعود بصحبة سيده أدهيمار ليوضح أن جرحه الناتج عن إصابته بسهم لم يندمل بعد . وهذا أيضا أمر مألوف لأنه وفقا لأسس رغبات رجل مقدس فإنه لابد أن يعانى . وقد عانى القديس جيل الكثير وبنفس الطريقة . انظر ماسبق ، الفصل الثامن ، حاشية (٥) .

(١٧) لقد أثارت القصة الكاملة لاختبار النار اهتماما كبيراً . ويلاحظ كرى أنه من الغريب أن لايورد مؤلف الجستا المجهول هذه الرواية . ولأن ريموندأجيل هو شاهد العيان الوحيد الذى أورد قصة هذه المحاكمة كاملة (باستثناء فقرة تيفيوده المنقحة) . فلابد أن نخلص إلى أن طبيعة تقريره تجعل روايته محل شك . فريموند يخبرنا : بطرس بارتلميو كان صادقا (وهو تعبير استخدم لوصف أيوب بأنه إنسان طبيعى) . فكل التفاصيل حسب أفضل الروايات الأدبية للمحاكمات - وصف النار ، الحشد الكبير (ستون ألفا) . =

الحفل الدينى ، الزائر الخارق للطبيعة وسط اللهب ، الطائر المحلق ، وخروج البطل ، كل هذه التفاصيل وأكثر منها لها مثيلاتها فى عصور أخرى . انظر :

H.C. Lea, Superstition and Force, Philadelphia, 1892, pp. 305 - 306;
H.C. Howorth, Saint Gregory the Great, London, 1912, pp. 237-238.

ويشير هوارث إلى أنه عندما حكى عن الشخص المعنوى كحقيقة فإن هذه غالبا ماتكون كتابة أدبية أكثر منها نتاجا لعقل راجح . ونحن لاندحض فكرة أنه كان هناك إختبار النار ، ولكننا مقتنعون بأن وصفه كان تلفيقا قام به المؤرخ . ويضع هاجنمير إختبار النار فى ٨ أبريل ١٠٩٩م . انظر : Hagenmyer, Chr. 364.

- سبق أن اعتمدنا فى نقدنا لرواية ريموندا جيل عن عودة السفارة الفرنجية من مصر إلى المعسكر الصليبى بالقرب من عرقة ، ووصول سفارات أخرى اسلامية إلى الفرنج ، وعن عروض قدمها المسلمون للفرنج ،على انفراد ريموندا جيل - دون بقية مؤرخى الحملة الأولى وخاصة مؤلف الجستا الذى رافق الجيش الصليبى إلى بيت المقدس بعد أن انفصل عن سيده بوهيمند الذى بقى فى أنطاكية - وحده بسرد هذه الرواية مما يشكك فى صحتها ، وما يذهب إليه كرى هنا يؤيد ما ذهبنا إليه من قبل . انظر ماسبق ، الفصل الحادى عشر ، حاشية (١٨) .
الترجمة العربية) .

(١٨) وليم بونوفيليوس Guillelmus Bonofilius ، فارس من آرل Arles ووليم مالوس بوير Guillelmus Puer ، فارس من بيزييه Béziers . وقد استخدمهما المؤرخ كشهود علمانيين ليدعم روايته .

(١٩) ريموند أوف بيليه Raymond of Pilet عرّفه بيريه كفارس من ليموزين وانضم إلى القوات البروفنسالية . وعرّفه فيزيه كحاكم آلية Alais . انظر : HG L, 3:483.

(٢٠) مرة أخرى يخصص ريموندا جيل جزءا كبيرا من تاريخه لسرد رؤيا بارتلميو . وفى حصار عرقة ، يبدو أن رؤيا واحدة لم تكن تكفى ، فروى ريموندا جيل رؤى آخرين غير بطرس . ربما ليزيد من حماس الفرنج فى محاولتهم للإستيلاء على تلك المدينة الإسلامية الصغيرة ، التى كلفت ، المقاومة التى أبداها أهلها ، الصليبيين الكثير من الأرواح والعتاد ، إلى جانب الوقت والجهد دون طائل . ومرة أخرى نجد ريموندا جيل وحده - من بين مؤرخى الحملة الأولى- يسرد هذه الرواية بإسهاب كشاهد وحيد لها . ومرة=

= أخرى لانجد لهذه الأحداث أى أثر فى كتاب مؤلف الجستا الذى كان ضمن صفوف الفرنج عند عرقة ، الأمر الذى يشكك فى صحة الرواية التى أوردها ريموندا جيل . وإذا كان هناك من ذكر هذه الأحداث من مؤرخى هذه الحملة مثل فوشيه أوف شارتر أو رادولف أوف كان . فكلاهما لم يكن شاهد عيان لهذه الأحداث وكان فوشيه بصحبة بولدوين فى الرها وكان رادولف لايزال فى غرب أوربا . وأظهر فوشيه ارتيابه فى أمر الحربة ، أما رادولف فلم يتوان عن إظهار تشككه فى بطرس بارتلميو واتهامه بالكذب وباختلاق روايات لم يحدث منها شىء . ويظهر ذلك جليا من حديث رادولف عن اختبار النار الذى مر به بطرس حيث يقول « وارتدى بطرس عباءته ، ولم يرتد غيرها ، ومشى وسط النيران ، وسقط مشتعلا ، ولفظ أنفاسه محترقا بكذبه ، وعندما رأى الناس ماحدث أمامهم ، حدثت غمغمات وهمهمات وأقروا بأنهم كانوا مخدوعين ... وبعد أن نال بطرس مختلق الأكاذيب العقاب الذى يستحقه ساد الاتفاق ... » أنظر :

Fulcher of Chartres, pp. 99 - 100, Radulf of Caen, pp. 682 - 683.

وبالرغم من طول الرواية التى سردها ريموندا جيل عن الرؤى المختلفة ، فإنه لايشغلنا عن ملاحظة المقاومة الشديدة والشجاعة التى أبداها أهل عرقة فى التصدى للهجمة الصليبية على مدينتهم ، التى صمدت دون مساعدة من سائر القوى الاسلامية ، فى الوقت الذى أجبرت قوى إسلامية أخرى فى بلاد الشام على الإتفاق مع الصليبيين والتخاذل أمامهم . فحصار الفرنج لعرقة كلف الفرنج الكثير ، وجعل اليأس يدب فى قلوب الكثيرين منهم ، ويكفى أن يصدر كونت سان جيل أوامره برفع الحصار عن عرقة وهو منخرط فى البكاء على ماتكبده وقواته من خسائر فى الحصار الذى وصفه مؤرخه بأنه حصار كريه ومقوت . فقد استمر حصار الفرنج لعرقة لمدة « أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها » . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١٥ . راجع أيضا ماتقدم من الفصل ١٣ ، ص ٢٢١ .
(الترجمة العربية) .

الفصل الثالث عشر

التخلى عن حصار عرقة واستئناف الرحلة إلى بيت المقدس

في هذه الأثناء قسّمت النزاعات الجيش ، ولكن الرب ، مرشدنا ، وربنا أصلح هذه النزاعات حتى لا تضيع أنعمه . وعندما علم حاكم طرابلس ، وهى مدينة قريبة من معسكرنا ، بالنزاعات ، سخر من طلب الجزية التى حمله مبعوثونا ، وقال : « من هم الفرنجة ؟ وما شأن فرسانهم ؟ وما مدى قوتهم ؟ فكروا فى الأمر . لقد حاصر جيش الفرنجة عرقة ثلاثة أشهر [١] ، ورغم أننى لا أبعد عنهم إلا أربعة فراسخ ، فلم يقع منهم هجوم واحد علىّ ، ولم أر رجلا واحداً مسلحاً منهم . أيها الفرنجة تعالوا إلى طرابلس ودعونا نراكم ونختبر فرسانكم . لماذا ينبغى أن أدفع جزية لوجوه لم أرها ، ولقوة لم أعرفها ؟ » [٢] .

وأثار هذا التقرير التساؤل العام « أنظروا ماذا جنينا من النزاعات والمشاحنات ؟ لقد احتجب الرب عنا من جديد ، وأصبحنا موضع احتقار » .

ووحدّت هذه المشاعر الأمراء الذين أمروا أسقف البارة وجزءا من الجيش أن يحموا المعسكر بينما يقومون هم مع المشاة والفرسان فى التشكيل المعتاد بمهاجمة تحصينات طرابلس.وفى التاريخ المحدد عندما سار جيشنا بهذا النظام ، خرج إلينا أهل طرابلس وهم واثقون فى حشودهم الصاخبة في تشكيل قتالى . كان هناك سور صلب ومرتفع جدا لمجرى مائى يؤدى إلى طرابلس ، يشكل طريقا ضيقاً بين المدينة والبحر الذى يحيط بطرابلس من ثلاث جهات .

وهكذا حصّن المسلمون هذا السور المذكور للمجرى المائى ، بحيث يمكنهم فى حالة الفشل أن يمروا إلى الخلف وإلى الأمام كما لو كانوا يمرون من حصن إلى حصن . وعندما رأى الصليبيون منظر أهالى طرابلس وهم واثقون فى موقعهم القتالى وأسلحتهم ، ابتهلوا ، مشاة وفرساناً ، إلى الرب ولوحوا برماحهم واحتشدوا معاً . كان تقدمهم إلى صفوف العدو أشبه بموكب ، بحيث أنك لو رأيت

الزحف ، خشيت أنهم يتقدمون كأصدقاء لا كأعداء . وشل الرب حركة قوات طرابلس بالخوف ، ولم يكد واحد يهرب بعد أول صدام مسلح . وامتلأت الأرض بدم المسلمين وسدّت جثثهم المجرى المائى . وكان من المناظر المبهجة منظر المياه المتدفقة فى المجرى المائى وهى تدحرج أجســاد النبلاء والدهماء إلى طرابلس وقد فقــدت رؤوسها . وفقدنا رجلا أو اثنين بينما يقال أن سبعمائة من الأتراك قد قُتلوا .

وبعد الانتصار ، عاد قادتنا إلى عرقة بالغنائم ، وأعلنوا : « لقد رأنا ملك طرابلس اليوم كما رأينا نحن كذلك الطرق إلى طرابلس ، ودرسنا وسائل الهجوم . وإذا وافقتم الآن فسنجعل ملك طرابلس يختبر معدن فرســانا غداً » . وهكذا لم يجرؤ شخص واحـــد على الخروج من طرابلس عند عودتنا إليها فى اليوم التـالى . وبعد ذلك عرض ملك طرابلس على قادتنا أن يعطيهم خمسة عشر ألف قطعة ذهبية ، وخيـولا ، وبغـالا ، وملابس ، ومؤنا ، وسوقاً عامة مفتوحة . كما أنه سيعيد إلينا جميع الأسرى المسيحيين إذا تخلينا عن حصار عرقـــة [3] .

ووصل رسل من الإمبراطور ألكسيوس إلى المعسكر فى ذلك الوقت ، يحملون احتجاجا على تملك بوهيمند لأنطاكية ، خلافاً للعهود التى قطعت للبازيليوس . وسأقطع روايتى لأذكر أن بوهيمند كان يحتل أنطاكية فى ذلك الوقت ، لأنه طرد رجال ريموند بعنف ، من الأبراج التى كانوا يحرسونها ، عندما سمع أن الكونت قد انطلق من معرة النعمان إلى داخل سوريا .كما ذكر المبعوث البيزنطى أن ألكسيوس سيقدم مبالغ كبيرة من الذهب والفضة ، وأن على الصليبيين أن ينتظروه حتى عيد القديس يوحنا (أواخر يونية) حتى يستطيع أن يسير معهم إلى بيت المقدس . وجدير بالذكر أن عيد الفصح كان يقترب فى ذلك الوقت [4] .

وجادل كثيرون ، منهم كونت سانجيل ، قائلين « لنؤجل زحفنا حتى وصول ألكسيوس . فسوف نأخذ هداياه ، وسيؤمّن وجوده التجارة براً وبحراً ، وستتوحد تحت قيادته . وستلقى كل المدن أسلحتها وسيتملكها ألكسيوس أو يدمرها كما يشاء . وهناك احتمال أيضا بأن الصليبيين ، الذين أجهدتهم الخصومات الطويلة المستمرة سيؤثرون ، إذا وصلوا بيت المقدس ، أن يعودوا إلى ديارهم بمجرد أن يروا أسوارها . ففكروا بعناية في عدد الأخطار الكامنة فى مواجهة أولئك الذين يتوقون إلى الوفاء بنذرهم . ولنصعّد من حصار عرقة حتى تستسلم حاميتها فى خلال شهر ، أو يتم الإستيلاء عليها بالقوة . ومن ناحية أخرى فإذا نحن قررنا ألا جدوى من الحصار ، وانتشرت أخبار تخلينا عنه بعيدا ، أصبحنا ، ونحن جيش عُرف بتنفيذه لمشروعاته بنجاح ، موضع سخرية واستهزاء » .

ورد آخرون بعكس ذلك : « لقد أضرّنا الإمبراطور دائما وخدعنا وتآمر علينا . ولما أدرك أنه ضعيف ، وأننا أقوياء بفضل الرب ، سعى إلى إبعادنا عن القبر المقدس ، خوفا من أن يؤدى الحديث عن نجاحنا إلى أن يحذو آخرون حذونا . فليحذر أولئك الذين أساء إليهم بالكلام أو بالأفعال من أن يثقوا فيه ثقة لا طائل وراءها . ولنستأنف زحفنا إلى بيت المقدس ، ولنضع ثقتنا فى المسيح قائدنا الذى خلصّنا من الخطر الذى أشعرنا باليأس ، وحمانا من أعمال ألكسيوس وخداعه . وعندئذ فإننا سنحقق أحلامنا بسهولة بوعد الرب . وعند سماعه لأخبار استيلائنا على بيت المقدس ، والتجارة المفتوحة ، فإنه سيرد على ذلك بأعمال وبهدايا بدلاً من الكلمات الخادعة » .

ووافقت أغلبية الناس على هذا الرأى الأخير ، ولكن رغباتهم ومجلس الأمراء لاقت صعوبات . وقد ثارت هذه الصعوبات بسبب الحاشية الضخمة لكونت ريموند ، ولأنه واجه الموت بشجاعة ، دون أن يكون معه القادة الآخرون ، وحقق الكثير من المكاسب الخاصة الكبيرة .

فى هذه المحنة أعلنا الصوم والصلوات والصدقات للناس ، على أمل أن

يتلطف الرب القادر على كل شيء ، والذى أخذ بيدنا عبر بلاد كثيرة ، ويبلغنا مشيئته . وهكذا أقنعت صلوات المؤمنين الرب .

وظهر الأسقف أدهيمار لستيفين أوف فالنس ، الذى كتبنا عنه من قبل بخصوص رؤياه للرب على الصليب ، وضربه بقضيب بينما كان يمشى عائدا إلى بيته ذات ليلة وناداه « يا ستيفين » .

ورد ستيفين : « سيدى » وعندما استدار تعرّف على أدهيمار .

فسأله أدهيمار : « لماذا تجاهلت لعدة مرات أوامرى الخاصة بصليب الرب ، وأوامر أمنا مريم العذراء ؟ إننى أتحدث عن الصليب الذى كان في صفوفى الأمامية ، ليحُمل فى الجيش . قل لى أى أثر دينى أفضل من الصليب ، ألم يرجم هذا الصليب بما يكفيكم ؟ ألم يرشدكم إلى الحربة المقدسة ؟ إن سيدتنا مريم العذراء المباركة تقول الآن أنه بدون هذا الصليب لن تكون لديكم حكمة » .

وهنا صاح ستيفين : « آه يا أعز سيد ، أين مريم المباركة ؟ » .

وفى الحال كشف أدهيمار عن مريم رائعة الشكل والملبس ، وهى تقف على بعد تسعة أو عشرة أذرع مع أخانا المباركة وعذراء ممسكة بشمعتين (٥) . وهنا تكلم ستيفين مع أدهيمار ، الذى كان يقف بجوار مريم : « ياسيدى كثيرة هى الإشاعات فى الجيش ، ومن بينها أن شعرك ولحيتك قد إحترقا فى الجحيم ، وغير ذلك من القصص التى لايمكن تصديقها . كذا فإننى أتضرّع إليك أن تعطينى واحدة من الشموع لأحملها إلى الكونت دليلاً على أوامرك » .

فرد أدهيمار قائلا : « أنظر إلى وجهى ، ألا تراه محترقاً ؟ » . ثم سار الأسقف إلى مريم العذراء ، وعرف مشيئتها وعاد إلى ستيفين وقال له : « لايمكن تحقيق رغبتك ، ولكن الخاتم الذى فى أصبعك لا فائدة لك منه ، ولاينبغى أن تلبسه . لذلك فاذهب إلى ريموند ، وقدمه إليه وأخبره أن « العذراء ، المقدسة

جدا ، ترسل هذا الخاتم إليك ، وفى كل فشل استحضر إلى ذهنك السيدة مانحة هذا الخاتم ، وتوسل إليها وسيساعدك الرب » .

ومرة أخرى استفسر ستيفين عن الأوامر الخاصة بأخيه ، وأجاب أدهيمار : « إجعله يقنع الأسقف المنتخب بإقامة ثلاثة قداسات للرب لأرواح أقاربنا . وأما مريم تأمر بألا تظهر الحربة المقدسة بعد ذلك إلا ويحملها كاهن يرتدى الملابس المقدسة ، وأن يسبقها الصليب على هذا النحو . وأمسك أدهيمار الصليب معلقاً من رمح وتبعه رجل يرتدى الملابس الكهنوتية ، والحربة المقدسة فى يده ، بينما الأسقف يردد :

" Gaude Maria Virgo Cunctas hereses sola unteremisti "

واشتركت مئات الآلاف من الأصوات التى لاحصر لها فى جوقة المرنمين السماوية واختفت جماعة القديسين (٦) .

وفى الصباح التالى ، كان أول ما سأل عنه ستيفن هو ما إذا كانت لدينا الحربة ، وعندما رآها انفجر باكيا ، وبدأ يحكى الرؤيا السابقة وما سمعه ورآه . وتأثر الكونت بذلك ، فأرسل وليام هيو أوف مونتيل ، شقيق أسقف لى بويه إلى اللاذقية حيث ترك صليب أدهيمار وقلنسوته .

فى هذه الأثناء ، استدعى بطرس بارثولوميو ، الذى كان قد أقعده المرض الناتج عن الضربات والجروح التى نزلت به ، الكونت والقادة الآخرين إليه وأخبرهم : « لقد دنا الموت منى ، وأنا على وعى تام بأننى فى حضرة الرب سوف أحاسب على كل أعمالى ، أو كلماتى ، أو أفكارى الشريرة . وأمام الرب ، وفى حضوركم ، أشهده أننى لم أخترع أى شيء بخصوص كل الأشياء التى أبلغتكم بها على أنها من الرب والرسل . ولاشك أنكم سوف ترون تحقيق كلماتى إذا خدمتم الرب بصدق » . وبعد ذلك مات بطرس فى الساعة التى حددها الله فى سلام ودُفن فى البقعة التى عبر فيها النار ومعه الحربة المقدسة » (٧) .

فى ذلك الوقت سأل ريموند والزعماء الصليبيون الآخرون أهالى المنطقة ، عن

أفضل الطرق إلى بيت المقدس ، وأقلها وعورة . وهكذا ، أتى إلينا بعض السوريين وسأستغل مجيئهم لاستطرد قليلا . فقد كان هناك نحو ستين ألفاً من المسيحيين يتملكون جبال لبنان والمناطق المحيطة لسنوات طويلة ، ويخاطب هؤلاء المسيحيون باسم الصوريون حيث أنهم قريبون من Tyre التي تسمى الآن عادة صور Sur . وعندما زادت قوة المسلمين والأتراك بمشيئة الرب ، أجبر الكثير من الصوريون الراقعين تحت نيرهم لأربعمائة سنة أو يزيد على التخلى عن بلادهم وشريعتهم المسيحية .

ولكن إذا كان البعض قد تحدى المسلمين بفضل من الرب ، فقد أجبروا على تسليم أطفالهم لكي يتم ختانهم ، وتعليمهم القرآن ، أكثر من ذلك ، فإن الآباء كانوا يُقتلون بينما كانت الأمهات تلقين معاملة سيئة وينتزع أطفالهن من بين أحضانهن . لقد دفعت المشاعر الشريرة الملتهبة هذا الجنس من البشر ، إلى هدم كنائس الرب والقديسين ، وتحطيم الصور ، وفقأ عيون الصور التى لايمكن تحطيمها ، واستخدام التماثيل هدفاً لسهامهم . وقلبوا الهياكل ، وحولوا الكنائس الكبيرة إلى مساجد . ولكن إذا رغب مسيحى واحد فى صورة للرب أو لقديس فى بيته ، فقد كان عليه أن يدفع ثمناً لذلك شهرا بعد شهر وعاماً بعد عام وإلا فإنه سوف يرى هذه الصورة وقد ألقيت فى الوحل وحطمت . والشىء الذى سأرويه الآن غير سار بالمرة . فقد وضعوا شبابهم فى المواخير وتبادلوا شقيقاتهم بالخمر من أجل المزيد من الفسق (٨) .

وكانت الأمهات يخشين أن يبكين على ذلك ، وعلى غيره من الآلام علناً . ولكن لماذا أضيع كل هذا الوقت عن الصوريين ؟ من المؤكد أن هذا الجنس قد تآمر على قدس الأقداس وتراثه . ولولا أن الرب قد حصن بأمره ومبادرته الحيوانات المتوحشة ضد شرور مماثلة ، كما فعل مرة فى وجودنا ، فإن الفرنجة كانوا سيلاقون مصائب الصوريين إلا أن هذا يغطى الموضوع بشكل كاف (٩) .

وسئل الصوريون الذين تحدثت عنهم فيما سبق ، فى اجتماع مع ريموند أوف سان جيل ، عن الطريق وأجابوا : « إن طريق دمشق ممهد ، ومزود بالطعام الكافى ، لكن لا ماء به لمدة يومين . والطريق من خلال جبال لبنان ، مأمون وتتوفر بها الضروريات ، لكنه وعر جداً بالنسبة لجمال ودواب الحمل . وهناك طريق آخر مع ذلك محاذٍ للبحر ، إلا أن به بعض الممرات الضيقة جدا ، حتى أن خمسين أو مائة من المسلمين يمكن أن يصدوا عندها الجنس البشرى كله . ومع ذلك فإنه مسُجل فى إنجيلنا لبطرس المبارك ، أنه إذا كنتم أنتم الذين قُدّر لهم أن يستولوا على بيت المقدس ، فإنكم ستسيرون بحذاء ساحل البحر ، رغم أن مخاطره تجعله يبدو مستحيلاً علينا . وهذا الإنجيل الذى كتب بيننا لايتضمن فقط اختياركم للطريق ، بل الكثير من أعمالكم السابقة ومسار الأحداث القادمة » (١٠) .

وأثناء تبادل الآراء ، عاد وليام هيو أوف مونتيل ، بالصليب المذكور آنفاً . وأثارت رؤية الصليب مشاعر حاشية الكونت بخصوص الرحلة حتى أنهم خلافاً لنصيحة ريموند وأمراء آخرين ، أحرقوا ملاجئهم وكانوا أول من غادر عرقة .

إنفجر ريموند باكياً ، وبدأ يحتقر نفسه والآخرين ، ولكن الرب تجاهل مشاعره مراعاة لإرادة جمهور الصليبيين . ومن ناحية أخرى ، فإن جودفرى الذى كان تواقاً إلى استئناف الزحف راح يحرّض الجماهير . وهكذا بعد أن تركنا هذا الحصار الكريه والمقوت لعرقة ، وصلنا إلى طرابلس حيث حاول ريموند – فى مواجهة المعارضة الإجماعية للقادة – أن يغريهم بالتوسلات والمكافآت أن يحاصروا طرابلس (١١) .

وهنا ظهر القديس أندرو لبطرس ديزيديريوس ، وهو شخص أشرنا إليه من قبل وأمره : « إذهب وأبلغ الكونت : « توقف عن إزعاج نفسك وإزعاج الآخرين ، لأنك لا تستطيع أن تتوقع أى مساعدة من الرب ، حتى يتم الإستيلاء على بيت المقدس أولاً . لا تتزعزع لعدم اكتمال حصار عرقة . ولا تحمل هماً إذا لم تسقط هى ومدن أخرى فى الطريق . وفعلاً ، فإن هناك معركة وشبكة سيتم فيها فتح هذه

المدن هى ومدن أخرى أيضا . لهذا توقف عن إقلاق نفسك وأتباعك . وباسم الرب إعط بسخاء من عطاياه لك ، وكن أيضاً رفيقاً وصديقاً مخلصاً لرجالك . وسيعطيك الرب بيت المقدس والاسكندرية والقاهرة إذا فعلت ذلك . ولكن إذا لم تفعل فإنك لن تحصل على المكافآت التى وعد الرب بها ، ولن يكون لك ميراثا حتى تكون فى عوز لا مفر منه .

وخضع الكونت لهذه الكلمات التى قالها الكاهن خضوعاً باللسان فقط ، فقد تجاهلها بأعماله وأنكرها بتقتيره فى الكنوز العظيمة التى نالها من ملك طرابلس . أكثر من ذلك ، فقد أثار غيظ أتباعه بالسب والتعنيف . وقد حكى بطرس ديزيديريوس ذلك ، ومسائل أخرى كثيرة ، ننقل بعضها فى هذا الكتاب .

فقد جاءنى بطرس ديزيديريوس أنا ، ريموندأجيل ، قبل ذلك بوقت طويل ، عندما كنا نفكر فى مغادرة أنطاكية ، وأخبرنى أنه رأى رؤيا أتى فيها إليه شخص وأمره : « إذهب إلى كنيسة ليونتيوس المبارك ، حيث ستجد بقايا أربعة قديسين ، فخذها واحملها إلى بيت المقدس » . ومضى الشخص يُرى بطرس الآثار ومكانها وأخبره بأسماء القديسين . ومع ذلك ، فإن بطرس تشكك فى الرؤيا بعد أن استيقظ وصلى وتوسل إلى الرب أن يؤكد له مرة ثانية أن ذلك كان وحياً منه . وهكذا ، ظهر نفس القديس مرة أخرى ، وهدده لإهماله أوامر الرب . وقال أنه إذا لم يتم نقل البقايا قبل اليوم الخامس من الأسبوع ، فسيحل به ضرر كبير هو وسيده إيزوارد كونت أوف داى ، وهو رجل مخلص للرب بنوره وبحكمته وبركته التى نفعتنا [١٢] .

وقد كررت هذه القصة على مسامع أسقف أورانج ، وريموند سان جيل وآخرين بعد أن رواها لى بطرس . بعد ذلك مباشرة جئنا إلى كنيسة القديس ليونتيوس ونحن نحمل الشموع ، التى قدمناها مع النذر للرب وللقديسين فى نفس الكنيسة . وسألنا الرب الذى جعل هذه الآثار مقدسة ، أن يعينها لتكون رفاقاً لنا وعوناً ، وسيكون هؤلاء القديسون مرتبطين بنا بدلاً من احتقار زمالة

الحجاج ، ومن تفاهم الرب ، وسيكون ارتباطهم هذا بدافع من الحب المسيحى ، وهكذا يربطوننا بالرب . فى الصباح التالى ، وفى صحبة بطرس ديزيديريوس أتينا إلى مكان آثار القديسين ، وكما حكى تماماً ، وجدنا بقايا القديس كيبريان ، والقديس أوميخيوس ، والقديس ليونتيوس ، والقديس حنا ذهبى الفم [١٣] . كما وجدنا هنا أيضا خزانة بها آثارلم يتعرف عليها الكاهن . وعندما سألنا الوطنيين ، حاروا فى تعريفها ، فقال البعض أنها للقديس مركوريوس ، وبينما ذكر آخرون أسماء قديسين مختلفين . وبغض النظر عن غموض أمرها ، فقد أراد ديزيديريوس أن يجمعها ويضمها مع الأخرى [١٤] .

فقلت أنا - ريموندأجيل - فى حضور كل الجماعة وبقوة أنه : « إذا كان هذا القديس يرغب فى الرحيل معنا إلى بيت المقدس ، فليعلن إسمه ورغبته ، وإلا فليبق فى هذا التابوت . هل نزيد من أعبائنا بحمل هذه العظام المجهولة ؟ » ونتيجة لكلامى تركنا العظام التى لم يتعرف عليها أحد فى ذلك الوقت .

وفى الليلة التالية لجمع الكاهن للبقايا الأخرى ولفها فى الأقمشة وفى غطاء ، وقف شاب وسيم فى حوالى الخامسة عشرة أمام هذا الكاهن فى صلاة الليل وسأل : « لماذا لم تحمل رفاتى اليوم مع الآخرين ؟ » .

وهنا سأله الكاهن « ومن أنت ؟ » واستمر الشاب يسأل : « ألا تعرف اسم حامل راية هذا الجيش ؟ » واعترف بطرس : « لا ياسيدى » . وعندما كرر بطرس نفس الإجابة قال له الشاب بعنف : « أخبرنى بالحقيقة » .

وهنا رد بطرس : « ياسيدى ، يقال أن القديس جورج هو حامل راية هذا الجيش » . وهنا قال الشاب : « صحيح ماتقول . إننى أنا القديس جورج وأنا آمرك أن تجمع رفاتى وتضعها مع الآخرين » [١٥] .

ومع ذلك فبمرور الأيام دون أن ينفذ الكاهن الأمر عاد القديس جورج وطلب منه بغلظة : « لاتدع الصباح يمر دون أن تجمع رفاتى . وخذ أيضا قنينة من دم

مريم العـــذراء والشهيدة تقلا Thecla ، ومسجدها قريبة . ورتل القداس » .
وفى هذه المرة وجد بطرس ديزيديريوس كل هذه الأشياء ونفذ أوامر القديس جورج [١٦] . وقبل أن نواصل قصتنا يجب أن نذكر أولئك الرجال الذين تجرأوا وأبحروا على سطح البحر المتوسط الغريب الشاسع ، والمحيط ، حباً فى القيام بالحملة الصليبية . فعندما سمع هؤلاء الإنجليز أخبار الحملات الصليبية التى تُشن باسم انتقام الرب من أولئك الذين دنسوا الأرض التى ولد فيها المسيح ورسله ، أبحروا فى البحر الإنجليزى وداروا حول ساحل إسبانيا ، مبحرين عبر المحيط وماخرين عباب الأمواج فى البحر الأبيض المتوسط ، وبعد جهد جهيد وصلوا أنطاكية واللاذقية قبل جيشنا . وقد ضمن لنا الإنجليز ، وأيضا الجنوية ، التجارة من قبرص والجزر الأخرى ، فأثبتوا بذلك نفعهم ومعاونتهم . كانت هذه السفن تبحر يومياً فتروح وتغدو فى البحر ، فتبث الرعب فى قلوب المسلمين وتجعل إبحار السفن اليونانية أمراً مأموناً . ومع ذلك فعندما رأنا الإنجليز تنطلق إلى بيت المقدس ، ورأوا خشب السرو المصنوعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده حتى لم يبق من الثلاثين سفينة إلا تسع سفن أو عشر ، هجر البعض السفن ونزلوا إلى الشاطىء ، بينما أحرق آخرون قواربهم وأسرعوا ينضمون إلى الزحف على بيت المقدس [١٧] .

وتباطأ أمراؤنا أمام طرابلس حتى زرع الرب فيهم الرغبة فى مواصلة الرحلة بحيث زالت كل معارضة . وهكذا فعلى خلاف عادتنا ، وأوامر الأمراء ، وصلنا ليلاً ، وسرنا طوال الليل ، ووصلنا بيروت فى اليوم التالى . وبعد أن 'ستولت طليعتنا فجأة على ممر (مرتقى صور) Bucca Torta ، وصلنا عكا دون أن يمنعنا شىء . وفى خلال أيام قليلة [١٨] . وخاف ملك عكا من الحصار ، وتطلع بقلق إلى رحيلنا ، فأقسم لريموند على مايلى : « أنه سوف يسلم نفسه وعكا للصليبيين ، إذا استولينا على بيت المقدس ، أو بقينا فى فلسطين لمدة عشرين يوما دون أن نضطر إلى الاشتباك مع ملك مصر ، أو إذا هزمنا هذا الملك . وفى هذه الأثناء ، فإن ملك عكا وعد بتقديم صداقته [١٩] . وبعد ذلك رحلنا من عكا فى مساء أحد الأيام وعسكرنا بالقرب من المستنقعات القريبة .

عن الحمامة التى حملت رسائل لقتل الصليبيين

كما جرت العادة فى ذلك الوقت ، فبينما راح البعض يجرى هنا وهناك ، بحثاً عن الضروريات ، والبعض يبحث عن موقع خيام أصدقائه ، ألقى صقر حام فوق المعسكر ، بحمامة مصابة بجرح قاتل فى المعسكر الذى كان فى لغط وضوضاء . وعندما التقط أسقف أبت الحمامة ، وجد رسالة كانت تحملها .

كانت الرسالة تقول : « التحيات من ملك عكا إلى دوق قيسارية . لقد إجتاح بلادى جيل من الكلاب ، من عنصر أحمق عنيد غير منظم . إذا كنت حريصا على حياتك فيمكنك أنت والمسلمين الآخرين أن تلحقوا بهم الأذى طالما يمكنك أن تفعل ماتريد بسهولة ، إنقل هذه الرسالة إلى المدن والحصون الأخرى » .
وفى الصباح ، عندما انتظم الجيش فى ارتخاء ، أعلنت محتويات الرسالة . وهكذا تجلى لنا عطف الرب ، وهو عطف منع الطيور الطائرة من أن تلحق بنا الضرر ، وكشف أسرار أعدائنا [٢٠] .

فمجّدنا الرب القادر على كل شىء ، وشكرناه ، ثم رحلنا بلا خوف ، وبخفة ونشاط ، ونحن نسير إلى الأمام وإلى الخلف فى صفوف . وعندما سمع سكان الرملة المسلمون أنباء عبورنا نهر قريب ، تركوا قلاعهم وأسلحتهم ، وأيضا الكثير من الحبوب فى الحقل ، ومحصولات محصودة . وهكذا ، فعندما وصلنا فى اليوم التالى كنا على يقين من أن الرب يحارب من أجلنا . وهنا ، نذرنا النذور للقديس جورج ، قائدنا المعترف به . وقرر زعماؤنا والجمهور إختيار أسقف لأننا وجدنا هنا أول كنيسة لإسرائيل . كما شعرنا أن القديس جورج سيكون شفيعنا عند الرب وسيكون قائدنا المخلّص من خلال مقر إقامته .

ولما كانت الرملة تبعد خمسة عشر ميلا عن بيت المقدس ، فقد عقدنا مجلساً هناك ، وقال البعض : « أجلوا الزحف الآن ، وتحولوا إلى مصر ، وإذا استطعنا بفضل الرب أن نفتح مملكة مصر ، فإننا لن نكسب بيت المقدس

فقط بل أيضا الاسكندرية والقاهـــرة . وممالك كثيرة . ومن ناحية أخـــرى ، فإذا نحن زحفنا على بيت المقدس وتخلينا عن الحصـــار لنقص المياه ، فإننا لن ننجح أبداً » .

بينما قالت المجموعة الأخرى : « على الرغم من أن قوتنا لا تكاد تبلغ ألفاً وخمسمائة من الفرسان ، وعدداً صغيراً من المشاة المسلحين ، فإن البعض كان يحبذ القيام بحملة إلى أرض غريبة ، وبعيدة تعزلنا عن معاونة بنى جلدتنا . وعليه فإن الفرص قليلة فى الاحتفاظ بمدينة يتم الاستيلاء عليها ، أو امتلاك طريق للهروب عند الحاجة . وليس فى هذا أى نفع . فلنتمسك بطريقنا وليتول الرب أمر الحصار والعطش والجوع والأشياء الأخرى (٢١) » .

* * * * *

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) بدأ حصار الفرنج لعرقة فى ١٤ فبراير ١٠٩٩م وانتهى فى ١٣ مايو ١٠٩٩م . وهكذا استمر الفرنج فى حصار عرقة لمدة ثلاثة أشهر كما حدد مؤلف الجستا . بينما حدد ابن الأثير فترة الحصار بأربعة أشهر . ومن المرجح أن رواية مؤلف الجستا هى الأقرب إلى الصحة . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٥ .

راجع أيضا :

Gesta, pp. 83, 85.

ومن الملاحظ أن مؤلف الجستا المجهول كان حريصا دائما على أن يحدد الأيام التى تقع فيها أحداث تاريخه إلى جانب التواريخ التى تقع فيها هذه الأحداث . فبينما يكتفى ريموندأجيل – فى كثير من الأحيان – بذكر الحدث دون تحديد تاريخ له .
(الترجمة العربية) .

(٢) كان أمير طرابلس فى ذلك الوقت هو جلال الملك أبو الحسن بن عمار . ولاتزال طرابلس موجودة حتى الآن . وهى مدينة جميلة بالقرب من بيروت . وقد أسس كونت تولوز – فيما بعد – كونتية له هناك . ولا تزال قلعته موجودة حتى الآن . وقد أبدى أمير طرابلس – فى بداية الأمر – رغبته فى التفاوض مع الفرنج ، الا انه لم يلبث أن طلب المعونة من بغداد .

(٣) لم يكن العرض الذى قدمه ابن عمار للفرنج نظير التخلى عن حصار عرقه ، ولكن لعدم التعرض لطرابلس نفسها . كما يزيد مؤلف الجستا على ما ذكره ريموندأجيل أن ابن عمار قدم للفرنج خمسة عشر حصاناً أصيلا ، كما عرض عليهم أن يرتد هو إلى المسيحية ، إذا ما انتصر الفرنج على الجيش الفاطمى ، وأن يحكم فى بلاده تحت حكم الفرنج . وهذا ماعرضه ستيفن رنسيمان على أنه حقيقة تاريخية . إلا أن كل ما قدمه ابن عمار للفرنجة لم يتعد فى طبيعته المهادنة حتى يتخلص من شرورهم وهو يرى الجبهة الإسلامية مفككة ، وكان من الصعب عليه نيل المساعدة من الفواطم أو من السلاجقة ، والدليل على ذلك أنه حين وجد فى عام ١١٠٢م أن ريموند كونت تولوز مصرٌ على الإستيلاء على طرابلس بدأ يستعد للتصدى له ، ولم يعد يحرص على استقلاله بين القوى المتنازعة من فواطم مصر وسلاجقة فى حلب ودمشق ، وبدأ يلقى بنفسه – كرها – بين أحضان القوى الاسلامية القريبة لمواجهة خطر كونت تولوز . أما مسألة الإرتداد عن الاسلام . التى ترد فى كثير من المصادر اللاتينية فهذه قضية لا أساس لها من

الصحة ، وسنتناولها كما ذكرنا من قبل فى بحث مستقل إن شاء الله . انظــــر :

Gesta. p. 85.

راجع أيضا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٤) وصل مبعوثو الامبراطور إلى الفرنج فى ١٠ أبريل حسب رواية ريموندا جيل . انظر :

Grousset, op. cit., p. 137.

وقد ناقش رنسيمان هذه القضية (Runciman, op. cit., p. 272) كما عالجها أيضا كرى : أنظر :

A.C. Krey Irbans Crusade - Success or Failure, in AHR. 43, 1948, p. 243.

والمناظرات التى قدمها ريموندا جيل مكررة . ففريق كان يرغب فى الإندفاع إلى بيت المقدس ، وفضل كونت تولوز ، الذى فقد شعبيته بسبب سياسته البيزنطية ، انتظار وصول ألكسيس . وكان بوهيمند قد كشف بالفعل عن نواياه بنقضه لقسمه أمام الامبراطور حين استولى لنفسه على أنطاكية . والمؤرخ هنا يتوق لاستئناف الرحلة إلى بيت المقدس ، ويعطى صورة مخللة لكونت تولوز . ويستعمل المؤرخ النزاع بين قادة الفرنج ليجعل من تهم التراخى والتكبر والغيرة كوسائل ينقل بها إلينا علوم الكنيسة التى يعرفها . وتشير الدلائل على أن الخلاف بين قادة الفرنج لم يكن شديدا كما صوره ريموندا جيل .

(٥) عاشت القديســــة أجاثا Saint Agatha فى عهد الامبراطور Decius وقد ثارت والى صقليه فعذبت وأمر بحرقها حية ، ووقعت هزة أرضية أفزعت الجمهور الذى احتشد لمشــاهدتها تحترق فى الوقت الذى بدأت تحترق فيه كومة القش من تحتها ، فتأجل إحراقها ، وماتت فى سجنها فى ٥ فبراير ٢٥١ م . وتمثل وهى تمسك فى يديها بكلابات وأدوات التعذيب .

- صدر فى عهد الامبراطور دكيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) أول مرسوم عام باضطهاد المسيحية . وكان ذلك راجعا إلى الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية التى كانت تمر بها الامبراطورية إبان ما عرف بأزمة القرن الثالث . فكان مرسوم الاضطهاد تعبيرا عن نظرية الأباطرة الرومان والوثنيين من أن اضطهاد المسيحية ضرورة لأمن الامبراطورية . انظر : رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، ص ١٤٠ .
(الترجمة العربية) .

(٦) « إفرحى يامريم العذراء » استخدم هذا التعبير كرد أثناء الصلوات . وأحيانا كان يستخدم كترتيل .
- ورد هذا التعبير باللاتينية فى الترجمة الانجليزية . ومعناه بالعربية :
« إفرحى يامريم العذراء ، فإن أتباعك وحدهم قد ظهروا على جميع الطوائف » .
(الترجمة العربية) .

(٧) يذهب فولشر أوف شـــارتر ، الذى أورد رواية موجزة لاختبار النار ، إلى أن بطرس بارثلميو كان محتالا ، وأن الذين آمنوا برواية الحربة المقدسة أصبحوا متشككين فيها الآن . انظر :

Fulcher (Hagenmeyer edition,) Book 1, chap. 18, p. 241.

وكان رادولف أوف كان أكثر المؤرخين إنتقادا لقصة الحربة المقدسة واستخدامها فى هجومه ضد البروفنساليين . وقد مات بطرس بارثلميوس فى ٢٠ أبريل ١٠٩٩ م .
انظـــــر :

Hagenmeyer, Chr. 367.

(٨) مرة أخرى يستمتع المؤرخ بالفزع الذى تسببه الشرور التركية ، ولكن بأســـلوب تترقعه من المهتمين بإحياء الثقافات القديمة اللاحقين ، يقرر المؤرخ أن مهمته غير سارة بالمرة . وعبارته عن وضع الشباب فى المواخير ، من المحتمل أنها مقتبسة من العهد القديم . انظر :

Joel : 3 : 3; Breviarium Autumnalis.

وكان سفر جويل يقرأ فى الأسبوع الرابع من شهر نوفمبر . ونسل هؤلاء المسيحيين هم المسيحيون المارونيين الآن .

(٩) تشير رواية ريموندا جيل عن تحصين الحيوانات المتوحشـــــة إلى معركة عسقلان التى ستحدث فيما بعد عندما سار قطيع من الماشية ملازما الجيش الصليبى .

(١٠) عند المناقشة الخاصة بالحجيل بطرس المبارك . انظر :

Clemens Klein, Raimund von Aguilers, Berlin, 1892, pp. 72 - 75.

(١١) وليـــام هيو أوف مونتيل William Hugh of Monteil شقيق لأدهيمار . وقد استخدم الصليب كعوض عن قيمة الحربة المقدسة . بالإضافة إلى ذلك ، فإن مؤلف الجستا لم يناقش إحجام كونت تولوز عن الرحيل إلى بيت المقدس . ومن ناحية أخرى فمن الواضح أن المؤرخ كان حانقا على الكونت ويستخدم سلسلة من الرؤى لتحذيره . كما نجد المؤرخ =

= يجعل الكونت – في روايته – يبذل كل جهد لمنع استئناف السير إلى بيت المقدس . إلا أن المؤرخ يوضح أن الكونت كان يضع الخطط مع القادة الآخرين لاستئناف الرحلة . ومن المحتمل أن كونت سان جيل كان مقترا وهو يوزع الغنائم التي أخذها الفرنج من طرابلس ، وأن قسيسه الخاص (المؤرخ) استخدم معلوماته الكنسية ليجعل منه دراسات أخلاقية . عن منهج المؤرخ . انظر :

John and Laurita Hill, Raymond IV, pp. 123 - 126.

(١٢) القديس ليونتيوس Saint Leontius من طرابلس . وهناك أيضا معلم لاهوت من القرن السادس يحمل اسم ليونتيوس . أما إيزوارد Isoard ، كونت داي Die ، فهو من مدينة داي التي تقع إلى الجنوب الشرقي من فالنس Valence .

(١٣) القديس كيبريان Saint Cyprian (٢٠٠ – ٢٥٨ م) هو أسقف قرطاجنة Carthage الذي تورط في اضطهادات الإمبراطــور فاليريان . وقطعت رأسه في ١٤ سبتمبر ٢٥٨ م . وهناك أيضا القديس كيبريان الذي عاش زمن الامبراطور دقلديانوس ، في آسيا الصغرى ، ومن المحتمل أن المؤرخ يشير إلى مخلفاته بالرغم من وجــود بعض الشك في ذلك .

والقديس حنا ذهبي الفم Saint John Chrysostom (٣٤٥ – ٤٠٧ م) أصبح في بداية حياته ناسكا ليتخلى عن شكل الحياة هذا ويعود إلى التبشير . وعين في عام ٣٩٨ م أسقفا للقسطنطينية . وفي مركزه هذا أظهر عداوة شديدة جعلت الإمبراطور هنوريوس يأمر بنفيه . ومات في عام ٤٠٧ م وهو في طريقه إلى منفاه في صحراء بثيوس Pithyus .

والقديس أوميخيوس Saint Omechios من المحتمل أنه لهجة محلية لإسم القديس إبيماخوس Saint Epimachus .

– في الحقيقة لم يكن الإمبراطور الغربي هنوريوس (٣٩٥ – ٤٢٣ م) هو الذي أمر بنفي حنا ذهبي الفم ، بل نفى الرجل بناء على أوامر الإمبراطورة إيودوكيا Eudocia زوجة أركاديوس إمبراطور الشرق (٣٩٥ – ٤٠٨ م) . وقد عاصر حنا حكم خلفاء قسطنطين الأول ، ثم حكم ثيودسيوس الأول (٣٧٩ – ٣٩٥ م) ثم عهد ولديه . وكان حنا قسيسا من مواطني أنطاكية في شمال الشام . وتتلمذ على الفيلسوف الوثني ليبانيوس Libanius ، ثم درس علوم الكنيسة ، حتى أصبح قسيسا . ثم اعتزل لمدة ست سنوات عاش فيها حياة النسك والرهبنة . وحين خضعت أنطاكية للضرائب الباهظة =

= التي فرضها ثيودسيوس ، وضع حنا كتابه (عن التماثيل) وبه احدى وعشرين عظة . وسرعان ما توجه حنا إلى القسطنطينية في عهد أركاديوس ، وألقى عظاته في كنيسة آيا صوفيا ، وتعرض فيها لفساد حياة النساء وبعض رجال الدين وأخلاقهم ، ولانحلال المسيحيين . وفي النهاية دبر ثيوفيلوس أسقف الاسكندرية مؤامرة ضد حنا انتهت بنفيه إلى مدينة كوكسوس الواقعة بين جبال طوروس في قيليقية . وعاش حنا مواصلا إلقاء عظاته ، واتصل بأبعد ولايات الإمبراطورية ، وبالبابا الروماني والامبراطور الغربي هنوريوس ، واستغل المعارضين لأرثه اسم أركاديوس ، وتم إبعاد حنا إلى منفاه الجديد على شواطىء البحر الأسود ، إلا أنه مات في الطريق عند كومانا وهو في الستين من عمره . وللمزيد عن حياة يوحنا ذهبي الفم . انظر : إدوارد جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ٣ جـ . نقله إلى العربية لويس اسكندر . القاهرة ، ١٩٦٩ م ، جـ ٢ ، ٢٣١ – ٢٤١ ، رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ٤ ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ١٠٣ – ١٠٥ .
(الترجمة العربية) .

(١٤) القديس ميركوريوس Saint Mercurius كان جنــديا أرمينيا قطعت رأسه حوالي عام ٢٥٠ م . وهناك من يدعى بالقديس ميركوريوس والمعروف في الشرق والغرب بأنه قتل جوليان بحربة .

(١٥) رد القديس جورج « صحيح ماتقول » مقتبس من العهد القديم . انظر : Psalm. 84:1 وكان يقرأ في اليوم السادس من التبجيل . والقديس جورج شخصية خيالية من المفروض أنه قتل في نيقوميديا حوالي عام ٣٠٠ م ، ونقلت عظامه إلى اللد ، مسقط رأسه . وتربط الأسطورة الذهبية بين القديس جورج وبين تنين . ويبدو أنه كان بديلا لبرسيوس Perseus الذي قتل الوحش البحري .

(١٦) القديسة تقلا Thecla قديســة مشهورة ، أطلق عليها لقب « الشهيدة الأولى » . وقد تلقت تعاليمها على أيدي بولس ، وكانت لها شعبيتها خاصة في العصر الوسيط بسبب محاكمتها باختبار النار والشدائد الأخرى .

(١٧) لايذكر المؤرخ أسماء قادة الأساطيل ويستعمل عبارات مبهمة . ويدفعنا رنسيمان إلى الاعتقاد بأن الإخوة إمبرياكو Emberiaco هم قادة السفن الجنوية . انظر : =

الفصل الرابع عشر

حصار مدينة بيت المقدس والاستيلاء عليها

وحمّلنا جمالنا ، وثيراننا ، ودواب الحمل الأخرى ، وانطلقنا إلى بيت المقدس بعد أن استأذنا الأسقف وحاميته . وفى اندفاعنا الجنونى بسبب الطمع فى الاستيلاء على القلاع والمنازل ذات الحدائق ، لم نتذكر أو نعبأ بأمر بارثولوميو ، بألا نقترب من بيت المقدس ، إذا كانت تبعد عنا فرسخين إلا ونحن حفاة الأقدام . وكان من العادات المتبعة ألا يستولى أحـــد على قلعة أو مدينة ترفع أحد أعلامنا ، ويكون أول من وضع يده عليها أحد رجالنا . وهكذا دفع الطموح الكثيرين إلى أن يخرجوا من فراشهم فى منتصف الليل دون أن يصحبهم رفاقهم ، ويستولوا على كل القلاع الجبلية والمنازل التى تحيطها الحدائق فى سهول الأردن . ولكن قلة حافظت على أمر الرب ، وساروا حفاة الأقدام ، وهم يصعدُون التنهدات العميقة إلي الرب ، وبسبب التبجع على إرادته ، ولكنهم لم يتذكروا صـــديقا ولا رفيقاً واحداً ممن ساروا فى طريق الباطل . وعندما اقتربنا من بيت المقدس فى هذه المسيرة المتعجرفة (المتكبرة) ، ضرب أهل المدينة طليعتنا ، وأصابوا بعض خيولنا بجراح خطيرة ، كما أصابوا كثيرا من رجالنا وقتلوا ثلاثة أو أربعة من صفوفنا .

وإذا انتقلنا إلى الحصار ، فإننا نلاحظ أن جودفرى وكونت الفلاندر ، وكونت نورماندى ، عـسكروا إلى الشمال ، وضربوا الحصار حول بيت المقدس من كنيسة القديس ستيفن التى تقع فى الوسط ، إلى البرج الذى يقع فى الزاوية مجاوراً لبرج داود [1] . واستقر ريموند مع جيشه فى الغرب ، وحاصر المدينة من خط الدوق إلي سفح جبل صهيون . ومع ذلك ، فقد كان هناك واد عميق بين معسكره والأسوار ، يحول دون الإقتراب بيسر من المدينة ، وكان سببا فى أن يرغب فى تغيير معسكره وموقعه . وفى أحد الأيام ، وبينما كان ريموند يحاصر بيت المقدس ، توقف وزار كنيسة جبل صهيون ، حيث سمع عن معجزات الرب هناك ، وتأثر جداً ، حتى أنه خاطب الأمراء والحاضرين قائلاً : و ماذا سيحدث



لنا لو أننا تخلينا عن هذه الهبات المقدسة ، واستولى عليها المسلمون ، وربما دنسوها وحطموها لكراهيتهم للصليبيين ؟ [٢] . ومن يدرى أليس من الممكن أن تكون هذه الهبات من الرب اختباراً لمدى حبنا له ؟ إننى أعرف أن الفشل فى حراسة كنيسة جبل صهيون بحماس سيجعل الرب يمنع عنا مثل هذه البقاع فى بيت المقدس » .

وبناء على ذلك ، وخلافا لرغبات الأمراء ، أمر كونت تولوز بنقل معسكره إلى جبل صهيون . وكانت هذه الحركة سببا فى استياء رجاله ، الذين لم يكونوا يرغبون فى تغيير المعسكر ، والاستمرار فى المراقبة ليلاً ، وهكذا فباستثناء قلة ذهبت إلى جبل صهيون ، بقى الآخرون كلهم فى المعسكر الأصلى . ولكن الكونت ظل يحمى موقعه يوميا بدفع مبالغ ضخمة من المال لفرسانه ومشاته .

سأستطرد الآن لأذكر بعض الأشياء المقدسة هناك قبر داود وقبر سليمان وقبر الشهيد الأكبر القديس ستيفن . وهناك ماتت مريم المباركة ، وهناك أكل المسيح وظهر بعد قيامه لحوارييه ولتوماس . وفى هذا المكان ذاته أوقظ الرسل بمجىء الروح القدس .

وفى أحد الأيام ، بعد حصار بيت المقدس ، اخبر ناسك على جبل الزيتون بعض الأمراء هناك أن : « الرب سيعطيكم بيت المقدس ، إذا هاجمتموها غدا حتى الساعة التاسعة » .

ورد المسيحيون : « ليس لدينا أى آلة من آلات الحصار » .

فقال الناسك « إن الرب قادر على كل شىء ، حتى أنه إذا أراد ، فإنكم ستستطيعون تسلق السور بسلم واحد . إنه مع أولئك الذين يعملون من أجل الحق » .وهكذا هاجموا بيت المقدس فى الصباح التالى حتى الساعة الثالثة بأسلحة الحصار التى استطاعوا تدبيرها أثناء الليل . فحطموا السور الخارجى ، وأجبروا المسلمين على التراجع إلى السور الداخلى . وتسلق عدد صغير من الصليبيين

التحصينات الداخلية . وفى اللحظة التى صار سقوط المدينة وشيكاً ، توقف الهجوم بسبب التخاذل والخوف [٣] .

وبعد هذا التخاذل ، راح المسيحيون يبحثون عن الطعام فى المناطق المجاورة ، وتجاهلوا الإعداد لهجوم جديد ، وفضّل كل واحد منهم أن يشبع نهمه وبطنه . والأحقر من ذلك أنهم لم يُصلّوا للرب ليخلصهم من الشرور الكبيرة الكثيرة التى كانت تهدد حياتهم ذاتها . فقد جاءت تهديدات جديدة من المسلمين الذين سدوا أفواه الآبار ، ودمروا صهاريج المياه ، ومنعوا تدفق العيون ، وكل ذلك يذكرنا بالرب الذى « يحول الأنهار إلى برية ، وعيون الماء إلى أرض جافة لمن يعيشون فيها » . وهكذا أصبح الماء شحيحاً جدا لهذا السبب .

وتتدفق بركة السلوان وهى نبع كبير عند سفح جبل صهيون مرة كل ثلاثة أيام ، ولكنها ، كما يقول الوطنيون ، كانت تتدفق يوم السبت فقط وتصبح مستنقعاً بقية الأيام . وبالتأكيد فليس لدينا تفسير لهذه الظاهرة إلا أنها إرادة الرب . وتقول الروايات أنه عندما كانت تتدفق فى اليوم الثالث ، فإن التدافع الجنونى العنيف لشرب الماء ، كان يجعل الكثيرين يلقون بأنفسهم فى البركة ، ويتسبب فى هلاك كثير من دواب الحمل والماشية ، وذلك فى غمار التزاحم . فكان الأقوياء يتدافعون فى استماتة ويخوضون فى البركة الغاصة بالحيوانات الميتة ، والبشر المتصارعين حتى المصب الصخرى الذى يتدفق فيه الماء ، بينما يضطر الضعفاء إلى الاكتفاء بالماء القذر .

كان الضعفاء يزحفون على الأرض بجوار النبع بأفواه فاغرة ، وقد أخرسهم جفاف ألسنتهم وامتدت أيديهم إلتماساً للماء من الذين هم أكثر حظاً . وفى الحقول ، كانت تقف الخيول والبغال والمواشى والأغنام وحيوانات أخرى كثيرة لم تعد تقوى على أن تخطو خطوة واحدة . وهناك كانت هذه الحيوانات تذوى وتموت عطشاً ، وتتعفن فى مراتعها وتملأ الجو برائحة الموت العفنة [٤] . فاضطر المسيحيون ، والحال هكذا ، إلى حمل الماء فى جهد ومشقة من عين تبعد فرسخين

أو ثلاثة ، وليسقوا ماشيتهم هناك ولكن المسلمين علموا أن رجالنا يروحون جيئة وذهابا فى طرق وعرة ، وهم غير مسلحين ، فكمنوا لكثيرين منهم ، وقتلوا الكثيرين وأسروا الكثيرين ، واستولوا على ماشيتهم وقطعانهم . وكان ثمن الماء المجلوب للبيع فى أوعية مرتفعاً إلى أقصى حد ، وكان مبلغ خمسة أو ستة نوميسما Nummi (٥) لا يكفى لكمية مياه نقية تكفى يوماً واحداً لشخص واحـــــد .

أما الخمر ، فلم يذكر بالمرة إلا فيما ندر . ومما زاد من شدة العطش ، الحر اللافح ، والتراب الخانق والرياح الشديدة . ولكن لماذا أضيع الوقت فى تلك الأمور الفانية ؟ لم يكن هناك إلا قلة يفكرون فى الرب أو فى ضروريات الحصار ولم يصل الصليبيون طلبا لرحمة الرب . وهكذا كنا نتجاهل الرب فى شدائدنا وبدوره لم يهتم بالجاحدين .

فى ذلك الوقت ، جاءت ، الأنباء برُسُوّ ست من سفننا فى يافا ، وجاءت معها أيضا مطالبة البحارة لنا بأن نرسل حامية لحماية أبراج يافا وسفنهم فى الميناء . كانت يافا تبعد مسيرة يوم ، وهى أقرب ميناء إلى بيت المقدس ، ولكن لم يبق من الموقع المحطم إلا القليل باستثناء برج واحد سليم فى قلعة دمرت تدميرا شديداً (٦) . وفرح الصليبيون وأرسلوا الكونت جيلديار كاربينتيل مع عشرين فارساً وحوالى خمسين من المشاة ، ثم أرسلوا بعده ريموند بيليه ، مع خمسين من الفرسان ، وأخيراً وليام سابران ورجاله . وعندما وصل جيلديار إلى سهل بالقرب من الرملة ، كان هناك أربعمائة من قوات العرب الأقوياء ، ومائتان من الأتراك يسدون الطريق (٧) .

وسحب جيلديار فرسانه ورماته ، الذين كانوا فى الصفوف الأمامية ، بسبب قلة عدد رجاله . وزحف فوراً على الأعداء ، وهو واثق فى عون الرب له . واندفع الخصوم إلى الأمام وهم على يقين من أنهم يستطيعون إبادة المسيحيين ، وأطلقوا السهام ، وأحاطوا بهم ، وقتلوا أربعة فرسان ، فضلا عن أشارد أوف مونتميريل ،

وهو شاب نبيل وفارس مشهور (٨) . كما قضوا تماما على كل رماتنا وجرحوا آخرين من قوات جيلديار ، لكن الأمر لم يخل من تكبدهم خسائر فادحة .

وعلى الرغم من هذه الخسائر ، فما ضعف الهجوم الإسلامى ، وما دب الوهن إلى قوة فرساننا ، الذين كانوا فعلا « جند المسيح » "Militia Christi" بل إن الجراح ، والموت نفسه ، ، قد حملتهم على شن الهجوم بقوة أكبر كلما ازداد الضغط عليهم . وأخيراً ، وبعد أن أرهقهم التعب ، وليس الخوف ، لاحظ قادة الفرقة الصغيرة سحابة من غبار فى الأفق عندما كانت الفرقة علي وشك الإبتعاد . وكان سبب هذا الغبار هو ريموند بيليه. ورجاله الذين غمزوا جيادهم ، وفى هجومهم الجنونى أثاروا كثيرا من الغبار حتى أن الأعداء ظنوا أن هناك قوة كبيرة تقترب .

وهكذا وبفضل الرب ، أبيد الأعداء ، وأجبروا على الفرار ، وقتل نحو مائتين منهم ، وتم الاستيلاء على غنائم كثيرة . ويمكن إرجاع كثرة الغنائم إلى عادة متبعة بين المسلمين وهى أنهم إذا لاذوا بالفرار وطاردهم العدو مطاردة شديدة فإنهم يطيحون بأسلحتهم ثم بملابسهم وأخيراً كلٌ بخرجه . وهكذا قتل هذا العدد الصغير من فرساننا الأعداء ، حتى نال منهم التعب ، وأخذوا غنائم من لاذوا بالفرار .

وبعد القتال وجمع الغنائم وتقسيمها ، توجه فرساننا إلى يافا حيث استقبلهم البحارة بفرح بالخبز والنبيذ والسمك . ولم يكترثوا بالخطر ، فأهملوا سفنهم ولم يعيّنوا مراقبين للحراسة باتجاه البحر فى منصة المراقبة بكل سفينة . وسرعان ما وجد البحارة السعداء غير المكترثين أنفسهم محاطين من ناحية البحر بالأعداء ، وكان السبب الرئيسى فى ذلك يرجع إلي إهمالهم فى تعيين حرس المراقبة . وعند الفجر ، رأوا أنه لم تكن أمامهم فرصة لقتال القوة المتفوقة عليهم ، فتركوا سفنهم ولم يأخذوا إلا الغنائم وهكذا فبشكل ما عادت قواتنا إلى بيت المقدس منتصرة ومهزومة فى آن واحد . ونجت إحدى السفن ، التى كانت تقوم بأعمال النهب ، من الأسر . فعندما عادت من يافا محملة بالغنائم رأت الأسطول

المسيحى وقد أحاطت به قوة أكبر منه . فغيرت إتجاهها وعادت بالمجاف والقلوع إلى اللاذقية ونقلت إلى زملائنا وأصدقائنا الحالة الحقيقية للأوضاع فى بيت المقدس .

ونحن نعرف أنه قد أصابنا مانستحق ، لأننا لم نؤمن برسائل الرب ، وهكذا ، فقد الصليبيون الأمل فى رحمة الرب ، وساروا إلى سهل الأردن . وهناك جمعوا السعف وتعمدوا فى نهر الأردن ، ولما كانوا قد شاهدوا بيت المقدس ، فقد خططوا للتخلى عن الحصار والتوجه إلى يافا ، والعودة بأى شكل ممكن إلى بلادهم . ولكن الرب اهتم بأمر سفن من لم يؤمنوا به .

ودعونا إلى إجتماع بسبب الخلافات العامة بين القادة وخاصة لأن تانكرد قد استولى على بيت لحم . وهناك رفع رايته على كنيسة بيت لحم ، كما لو كان يرفعها على ممتلكات علمانية . كما طرح الإجتماع أيضاً مسألة انتخاب واحد من الأمراء ، وحارساً على بيت المقدس فى حالة إذا ما منحها الرب لنا . وقيل أن الفوز بها سيكون مجهوداً مشتركاً ولكن إذا ضاعت فان ذلك سيكون إهمالاً مشتركاً إذ لم يتول أحد حمايتها (٩) .

ولكن الأساقفة ورجال الدين اعترضوا قائلين « من الخطأ انتخاب ملك فى المكان الذى تألم فيه الرب وتوج بتاج الشوك . افترضوا أن الشخص المنتخب قال فى قلبه : « إننى أجلس على عرش داود ، وأمتلك ممتلكاته ، وافترضوا أنه أصبح داودا ، وهو منحط العقيدة والأخلاق ، فلا شك أن الرب سيطيح به ، ويغضب على المكان والناس . فضلا عن ذلك ، فإن النبى يهتف « عندما يكون قدس الأقداس قد أتى سيتوقف المسـح » لأنه قد اتضح لكل الناس أنه قد أتى (١٠) . ولكن لنختر وكيلاً ليحرس بيت المقدس ويقسم الجزية والريع بين حماة المدينة » . ولهذا السبب ولأسباب أخرى ، لم يتم الانتخاب إلا بعد ثمانية أيام من سقوط بيت المقدس . ولم يأت هذا النزاع بخير ، ولم يتضاعف إلا جهد وأحزان الناس يوماً بعد يوم (١١) .

وأخيراً أبلغنا الرب الرحيم الطيب ، حتى نحترمه وحتى يمنع المسلمين من السخرية بقوانينه إذا سألوا : « أين هو إلههم ؟ » (١٢) ، وأبلغنا عن طريق رسالة من أدهيمار ، أسقف لى بويه ، كيف نسأله ونكسب رحمته . لكننا نشرنا أوامر الرب علناً ودون أن نربط بينها وبين إسمه خوفا من أن يعصيها الناس ، فيكون عقابهم أشد بسبب ذنبهم . وأرسل الرب الكريم رسلاً عديدين إلينا ولكن لكونهم اخوتنا ، فإن براهينهم بقيت بلا قيمة (١٣) .

فى ذلك الوقت أعطى أدهيمار تعليماته لبطرس ديزيديريوس : « مر الأمراء والجمهور ،والصليبيين القادمين من بلاد بعيدة ، والذين هم هنا الآن ، ليعيدوا الرب ورب كل الجيوش ، أن حرروا أنفسكم من العالم الدنس ، وليعط كل منكم ظهره للخطيئة ، ثم اخلعوا أحذيتكم ، وسيروا حفاة باقدام عارية حول بيت المقدس ، ولا تنسوا أن تصوموا . فإذا اتبعتم هذه الأوامر ، ستسقط المدينة فى نهاية الأيام التسعة بعد هجوم عنيف ، ولكن إذا لم يفعلوا ذلك ، فإن الرب سيزيد من كل مصائب الماضى » .

وبعد أن أبلغ بطرس ديزيديريوس سيده الكونت ايزوارد وشقيق أدهيمار ، ووليم هيو ، وبعض الكهنة بذلك ، دعا أولئك الثقـاة إلى اجتماع عام وتكلموا بما يلى :

« أيها الرجال ، أيها الزملاء ، تعرفون أسباب الرحلة وتعبنا الشديد ، وتعرفون أيضاً أننا تباطئنا كثيراً بلا مبالاة فى اقامة المعدات لحصار بيت المقدس ، وأكثر من ذلك فإننا لم نكتف بعدم مبالاتنا بأن يكون الرب ودوداً معنا ، بل لقد أثرنا غضبه بكل شكل يمكن أن يتخيله الانسان فى كل الأمور . كما أننا نطرده ونتبذه فنجعله غريباً بسبب أعمالنا المدنسه . والآن ، إذا كنتم توافقون ، فلنترك الماضى ولتنتشر بين الأخوة المسيحين روح المغفرة . وبعد ذلك فلنفقد كبريائنا فى رؤية الرب ، ونسير حول المدينة المقدسة حفاة الاقدام ، ونبتهل لتحل بنا رحمة الرب عن طريق شفاعة القديسين .

فلنصل قائلين أن الرب القدير الذى تنازل عن عرش سيادته السماوية ، وأصبح بشراً من أجلنا ، ومنا نحن خدمه ، والذى دخل بيت المقدس فى تواضع راكباً جحشاً فى موكب تحوطه الحشود التى تلوح وتقدم له آيات التكريم ، لكى يعانى بعد ذلك من الآلام على الصليب ، تضحية من أجلنا ، ولنصلّ لعله يفتح لنا أبواب بيت المقدس ، ويسلمها لنا تمجيداً وتكريماً لإسمه بينما يصدر حكمه على أعدائه الذين استولوا عليها بغير حق ، ودنسوا مكان آلامه ودفنه ، والذين يعملون الآن بجد ليبعدوننا عن المكاسب العظيمة الموجودة فى حرم تنازله الإلهى وخلاصنا » .

لقيت هذه الأوامر قبولاً عاماً ، وصدر أمر بأن يقوم رجال الدين فى اليوم السادس من الأسبوع وهم يحملون الصلبان وآثار القديسين موكبا يتبعه الفرسان والرجال الأقوياء ، وهم ينفخون الأبواق ، ويلوحون بالأسلحة ، ويسيرون حفاة الأقدام ، ونفذنا أوامر الرب والأمراء بكل سعادة ، وعندما سرنا إلى جبل الزيتون ، وعظنا الناس فى موقع صعود المسيح بعد القيامة ، وفى هذه المرة حرضناهم قائلين « لقد تبعنا الرب إلى مكان الصعود . وحيث أننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك ، فلنعفُ عن أولئك الذين أساءوا إلينا حتى يكون الرب القدير رحيماً بنا » .

ولا حاجة بى إلى أن أقول أكثر من ذلك فى هذا الموضوع . فقد غمرت الجيش روح من التسامح ، وتضرعنا ، ونحن نقدم التبرعات السخية ، إلى الرب سائلين إياه الرحمة وألححنا فى السؤال بألا يتخلى عن شعبه فى اللحظة الأخيرة بعد أن أتى بهم بهذه الطريقة المجيدة والعجيبة من كل هذه المسافة إلى مسعاهم من أجل القبر المقدس . وكان الرب فى هذه المرة فى جانبنا لأن سوء حظنا انقلب حظاً طيباً وصار كل شىء على مايرام .

ورغم أننى استبعدت احداثاً كثيرة ، فإننى لا استطيع أن اغفل عن هذه الحادثة : فأثناء الزحف الصاخب حول بيت المقدس راح المسلمون والأتراك يسيرون

على طول أسوارهم من أعلى وهم يسخرون منا ويدنسون بالضربات والأعمال البذيئة صلباناً وضعت على أذرعه من خشب بطول الأسوار . فاندفعنا بدورنا إلى الأمام قدماً ، واثقين من قرب رحمة الرب بسبب هذه الإساءات ، فتقدمنا ليلاً ونهاراً فى العمل للإعداد للهجوم النهائى [١٤] .

عين جودفرى وكونت نورماندى وكونت فلاندر جاستون بيارن ، للإشراف على العمال الذين كانوا يبنون الحواجز والمتاريس ومعدات الحصار ، وكان تعيين هذا النبيل راجعاً إلى قدرته وأمانته . وثبت أن ذلك كان اختياراً حكيماً ، لأن جاستون وضع نظاماً لتقسيم العمل ، وعجل بتنفيذ المهمة ، بينما اهتم الأمراء بجلب المواد الخشبية [١٥] كما كلف الكونت ريموند وليم ريكو بعمليات مماثلة فى جبل صهيون ، وكلف أسقف البارة بوظيفة الاشراف على المسلمين وغيرهم من العمال الذين كانوا يجلبون الأخشاب . فقد أجبر رجال ريموند مسلمى القلاع التى تم الاستيلاء عليها على العمل كأقنان [١٦] . فكنت ترى خمسين أو ستين رجلاً منهم يحملون على أكتافهم دعامة بناء لايقوى على جرها أربعة أزواج من الثيران . ولكنى لن أرهقكم بمزيد من التفاصيل .

فعملنا جميعاً بجد واجتهدنا وبنينا وتعاونا ، ولم يعطل عملنا التراخى أو عدم الرغبة . وكان الصناع فقط - الذين كانت تجمع لهم الأموال ورجال ريموند الذين كانوا يحصلون على أجورهم من خزانته - هم الذين يعملون نظير المال . وبالتأكيد فقد كانت يد الرب معنا ، وسرعان ما اكتملت الاستعدادات ، وبعد عقد إجتماع قرر القادة « سيكون اليوم الخامس هو ساعة الصفر [١٧] . وفى هذه الأثناء كرّسوا أنفسكم للدعاء والصلاة الليلية والصدقات ، وأعطوا دواب العمل التى لديكم والخدم الذين يعملون عندكم للصناع والنجارين الذين يعملون فى جر الأخشاب والأعمدة ، والقوائم والفروع الضرورية لإقامة ستائر الحصار [١٨] . أيها الفرسان سيكون نصيب كل اثنين منكم من أعمال البناء إقامة ساتر مقوس واحد أو سلم واحد . إعملوا بجد فى سبيل الرب ، لأن مهمتنا قاربت على الإنتهاء » .

وجَدّ الجميع فى العمل بسعادة ، وصدرت الأوامر بمواقع الهجوم الخاصة بالأمراء ، ومواضع آلات الحصار .

ولاحظ المسلمون المحاصَرون أسلحة الحصار المكتملة ، فدعّموا النقاط الضعيفة ، بحيث بدا من المستحيل شن هجوم ناجح . ولاحظ جودفرى ، وكونت الفلاندر وكونت نورماندى ، عمليات التشييد التى يقوم بها المسلمون ، وبالتالى فإنهم راحوا طوال الليلة السابقة لليوم المحدد للهجوم ينقلون مواقع أسلحة الحصار ، من أسيجة وأبراج ، إلى موقع بين كنيسة ستيفن المبارك ووادى جوزفات . صدقونى إن فك ونقل هذه الآلات لمسافة تزيد على الميل ، وإقامتها من جديد لم يكن بالأمر الهين . وصُعق المسلمون فى الصباح التالى عندما رأوا تغير مواقع آلاتنا وخيامنا ، وأبادر فأقول ، أننا أيضا دهشنا ، نحن المؤمنين الذين رأوا يد الرب فى ذلك .

ولكى أطلعكم على حقيقة التحرك إلى الشمال يجب أن أقول أن عاملين كانا وراء تغيير مواقع الحصار . فاستواء سطح الأرض هيأ اقتراب أفضل لمعدات الحرب من الأسوار . كما أن بُعد وضعف هذا المكان الشمالى جعل المسلمين يتركونه بدون تحصين . ولم يكن مجهود كونت تولوز أقل من ذلك عند جبل صهيون جنوبا ، وتلقى مساعدة من ويليام إمبرياكو وبحارته الجنوية الذين فقدوا سفنهم فى يافا ، كما ذكرت من قبل لكنهم أنقذوا الحبال والمطارق والمسامير والفئوس والمعاول والبلط ، وهي كلها أدوات لا غنى عنها [19] . وسأترك التفاصيل الآن وأواصل قصة الهجوم على بيت المقدس .

-بزغ فجر يوم القتال وبدأ الهجوم . ولكننا نود عند هذه النقطة أن نضيف الإحصائيات التالية :فطبقاً لأحسن تقديراتنا وتقديرات الآخرين كان هناك نحو ستين ألف مقاتل فى بيت المقدس ، ونساء وأطفال لا حصر لهم . ولم يكن لدينا فى جانبنا أكثر من إثنى عشر ألف رجلاً من الأقوياء مع كثير من المقعدين والفقـراء ، وما لايزيد – فى اعتقادى – عن ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارسا . ونحن نورد هذه الأرقام والمقارنات لنبين لكم أن كل الأمور عظيمة كانت أم صغيرة ، إذا ما أخذناها على عاتقنا باسم الرب سوف تنجح ، كما ستثبت الصفحات التالية من كتابى .

فبدأنا أولا بدفع أبراجنا باتجاه أسوارهم ، ثم انفتحت كل أبواب جحيم المعركة . فانهمرت الأحجار من المقاذيف tormenti وطارت الصخور Petrariae فى الهواء ، وتساقطت الأسهم كالبَرَد [20] . ولكن خدم الرب العازمين على التمسك بإيمانهم ، مهما كانت نتيجة الموت أو الإنتقام الفورى من المسلمين ، تحملوا هذا الهجوم بصبر . ولم يحسم القتال عند تلك النقطة . وعندما اقتربت الآلات من الأسوار ، أمطر المدافعون المسيحيين بالأحجار والسهام والخشب والقش المشتعلين والمطارق المغطاة بالقار المشتعل ، والشمع والكبريت ، والكتان ، والخرق ، على الآلات . وأحب أن أوضح أن المطارق كانت مثبتة فيها المسامير بحيث تلتصق بأى جزء تصيبه ثم تشتعل . واشعلت هذه القذائف ، المصنوعة من الخشب والقش ، والتى ألقاها المدافعون ، النيـران التى حالت دون تقدم من لم تُربكهم السيوف ولا الأسوار العالية ولا الخنادق العميقة .

وكانت الأعمال التى قمنا بها طوال ذلك اليوم رائعة وعجيبة إلى حد أننا نشك فى أن يكون التاريخ قد سجل ماهو أعظم منها . ومن جديد ، دعونا ونحن واثقون من رحمة الرب ، دَعَونا قائدنا ومرشدنا القادر على كل شيء . ومع حلول الليل استولى الخوف على المعسكرين . فمع تحطيم السـور الخارجى ، وردم الخندق ، أصبح الوصول بسرعة إلى السور الداخلى أمراً سهلاً . وأصبح المسلمون يخشون سقوط بيت المقدس فى تلك الليلة ، أو فى اليوم التالى . كما كان الصليبيون بدورهم خائفين من أن يدعم المسلمون موقفهم ، بإيجاد طريقة لحرق الآلات القريبة . فسيطر على المعسكرين التيقظ والتعب والأرق ، وفى معسكرنا ، الأمل الواثق ، وفى معسكرهم ، الفزع المؤلم . كان المسيحيون يحاصرون المدينة . طوعاً واختياراً من أجل الرب ، وكان المسلمون يقاومون على مضض من أجل شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

واستمر النشاط غير العادى فى المعسكرين أثناء الليل . وعند بزوغ الفجر ، أسرع رجالنا يدحرجون آلات الحصار إلى مواقعها ، ليفاجأوا بالمسلمين الذين حاصرونا بآلاتهم ، التى كانت تفوق آلاتنا بنسبة تسعة أو عشرة إلى واحد . ولن أطيل فى هذا التفصيل الصغير ، لأننا كنا فى اليوم التاسع ، وهو اليوم الذى تنبأ الكاهن بأنه سيحدد سقوط بيت المقدس . وعلى الرغم من تفكك آلات حصارنا بفعل الأحجار المتساقطة كالمطر والروح المعنوية المتخاذلة لقوتنا [٢١] التى أخذ منها التعب كل مأخذ ، فإن رحمة الرب المسيطرة والتى لا تقهر كانت حاضرة دائماً فى عملنا . ومع ذلك ، فإنه لايمكننى أن أمر بهذه الحادثة الطريفة مروراً عابراً . فعندما حاولت امرأتان وضع رَصَد على واحدة من الصخور ، إنطلق أحد الأحجار من نفس الآلة مصفرا فى الهواء ، وقضى على حياة الساحرتين ، وأيضا على حياة ثلاث فتيات بالقرب منهما وهكذا حُطِم الرصد [٢٢] .

وعندما انتصف النهار كنا فى حالة ارتباك ، وإرهاق ويأس ، سببها المقاومة العنيدة لكثير ممن تبقى من المدافعين ، والأسوار العالية التى لايكاد يمكن اختراقها ، والمهارة الدفاعية الهائلة للمسلمين . وبينما بدأنا نترنح وبدأ المسلمون يتشجعون ، جاءت إلينا رحمة الرب الحاضرة دائماً ، شفاء لنا ، وبدلت تعاستنا فرحاً [٢٣] . ففى اللحظة التى كان مجلس قادتنا يناقش فيها حكمة سحب آلاتنا حيث احترق الكثير منها وتحطم البعض بشكل سيء ، أشار فارس لا أعرف إسمه بدرعه من جبل الزيتون للكونت والآخرين بأن يتقدموا . وكان لهذا تأثير نفسى على قواتنا المرتدة ، واستأنف بعض الصليبيين الذين دبت فيهم الحياة من جديد ، هجومهم على الأسوار ، بينما بدأ آخرون يتسلقون السلالم والحبال . وفى نفس الوقت أطلق شاب سهماً مشتعلة بلبادة قطنية على تحصينات المسلمين التى كانت تتولى الدفاع فى مواجهة برج جودفرى والكونتين . وسرعان من أبعدت النيران المدافعين عن التحصينات ، وسرعان ما أنزل جودفرى الكوبرى الذى كان بدافع عن البرج ، وبينما كان الكوبرى يتأرجح من منتصف البرج سد الهوة بين البرج وبين السور ، وتدفق الصليبيون دون خوف ، وبجرأة وشجاعة ، إلى داخل المدينة المضروبة .

وسلك تانكرد وجودفرى فى المقدمة كمية لا تصدق من الدماء ، وأنزل زملاؤهما الذين كانوا فى أعقابهم آلاماً شديدة بالمسلمين . يجب الآن أن أخبركم بحادث مدهش . فقد توقفت المقاومة فى أحد مناطق المدينة عملياً ، ولكن المسلمين فى المنطقة القريبة من جبل صهيون قاتلوا قوات ريموند بشراسة ، كما لو كانوا لم ينهزموا . وبسقوط بيت المقدس وأبراجها كان المرء يستطيع أن يرى أعمالاً مدهشة [٢٤] . فقد قطعت رؤوس بعض المسلمين برحمة ، بينما اخترقت الآخرين الأسهم الموجهة من الأبراج ، بينما عُذِّب آخرون لوقت طويل ، وأحرقوا حتى الموت فى اللهب المتأجج . وتكدست فى الطرقات والبيوت الرؤوس ، والأيدى ، والأقدام . وفعلا ، فقد كان الفرسان والرجال يجرون جيئة وذهابا فوق الجثث .

دعونى أخبركم أن هذه الأشياء ، حتى الآن هى تفاصيل قليلة تافهة . ولكننا نجد قصة أخرى عندما نأتى إلى معبد سليمان ، المكان المعتاد للترنم بالطقوس والصلوات . هل نحكى ما جرى هناك ؟ لو أننا أخبرناكم لما صدقتمونا . وإذن فيكفى أن أحكى أنه فى معبد سليمان وفى الرواق خاض الصليبيون بخيولهم فى الدم الذى وصل إلى ركبهم وسروج خيولهم [٢٥] وفى رأيى أن فى هذا عدالة إلهية تتمثل فى أن يتلقى معبد سليمان دم المسلمين الذين سبّوا الرب هناك لسنوات كثيرة . وامتلأت بيت المقدس الآن بالجثث ، وتلطخت بالدماء ، وهربت القلة الناجية إلى برج داود وسلموه لريموند مقابل عهد بالأمان . ومع سقوط المدينة كان مما عوضنا أن نرى عبادة الحجاج عند القبر المقدس ، وتصفيق الأيدى والابتهاج والتغنى بترنيمة جديدة للرب . فقدمت أرواحهم للرب المنتصر الظافر صلوات المديح التى لم يستطيعوا شرحها بالكلمات .

وكان يوماً جديراً وسعادة جديرة وفرحاً دائماً وتحقيقاً لكدنا وحبنا ، جلب كلمات وترانيم جديدة للجميع . ان هذا اليوم ، الذى أؤكد أنه سيُخلَّد على مدى القرون ، قد بدل أحزاننا وصراعاتنا إلى سعادة وابتهاج . كما أذكر أيضا أن هذا اليوم أنهى كل أشكال الوثنية ، وأكد المسيحية وأعاد إلينا إيماننا . « وهذا هو اليوم الذى صنعه الرب ، سنبتهج ونسعد فيه » ، وهذا صحيح لأن الرب أشرق علينا فى ذلك اليوم وباركنا [٢٦] .

ورأى الكثيرون اللورد أدهيمار ، أسقف لى بويه ، فى بيت المقدس فى هذا اليوم ، كما أكد الكثيرون أنه فى ذلك اليوم ، كان يمهد الطريق فوق الأسوار ، يحث الفرسان والناس على إتباعه . وجدير بالذكر أيضا ، أنه فى هذا اليوم أخرج الرسل من بيت المقدس وتشتتوا فى كل أنحاء العالم . وفى هذا اليوم خلّص أبناء الرسل المدينة من أجل الرب والآباء . وهذا اليوم ، الخامس عشر من يوليو ، سيُخلّد لذكرى مدح وتمجيد اسم الرب ، الذى استجاب لصلوات كنيسته وأعاد بيت المقدس بالإيمان والبركات إلى أطفاله ، وأيضا أراضيها التى وعد بها الآباء . وفى ذلك الوقت رتلنا أيضاً صلاة القيامة ، حيث أنه فى ذلك اليوم قام هو ، الذى بقدرته ، من الأموات ، وشفانا برحمته [٢٤] .

* * * * *

(١) بوابة القديس ستيفن Saint Stephen ، التى حملت اسم أول شهداء المسيحية (أنظر أعمال الرسل ٦ ، ٧) كانت تقع إلى الشمال . ويقع برج داود إلى الغرب ليحمى بوابة يافا . ويقع جبل صهيون فى الركن الجنوبى الغربى . وتحمى الأسوار الشرقية والجنوبية والغربية عدة أودية سحيقة ، وكان يتولى أمور بيت المقدس القائد الفاطمى افتخار الدولة ، الذى قام بتسميم الآبار ، وجمع ميرة الريف وطرد كل المسيحيين .

– استغل الأفضل فترة تعثر الحملة الصليبية أما أنطاكية ، وبادر بالاستيلاء على مدينة بيت المقدس من سقمان وإيلغازى إبنى أرتق نواب تتش فى المدينة ، وذلك فى أغسطس ١٠٩٨م / شعبان ٤٨٩ هـ ، وأحسن الأفضل العطاء إلى ولدى أرتق اللذين اتجها إلى دمشق ومنها إلى اقليم الجزيرة ليؤسسا لنفسيهما إمارة هناك . واستناب الأفضل فى بيت المقدس إفتخار الدولة . انظر : ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١١٧ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ .
(الترجمة العربية) .

(٢) يشبه إعتصام ريموند كونت تولوز بجبل صهيون نفس إعتصام يهوذا مكابيوس Judas Maccabeus بنفس المكان . انظر : Liberi Machabaeorum, 4 : 36 - 61.
– وقد بدأ حصار الفرنج لبيت المقدس فى يوم الإثنين ٦ يونية ١٠٩٩م ، وقد حدد مؤلف الجستا اليوم السادس من يونية إلا أنه جعله يوم الثلاثاء الذى يوافق اليوم السابع من الشهر فى هذه السنة (١٠٩٩ م) . انظر : Gesta, p. 87, n. 3.
(الترجمة العربية) .

(٣) كان حديث الناسك إلى أمراء الفرنج فى يوم الأحد ١٢ يونية ١٠٩٩م . وكان هجوم الصليبيين على بيت المقدس فى اليوم التالى (١٣ يونية ١٠٩٩ م) . انظر :
Hagenmeyer, Chr., 386, 389.
– مرة أخرى ينفرد ريمونداجيل كعادته بذكر رؤيا أحد الصليبيين . ولم يذكرها مؤلف الجستا . بينما اتفق المؤرخان بخصوص تحديد تاريخ الهجوم الصليبى على مدينة بيت المقدس . انظر :
Gesta, p. 88.
(الترجمة العربية) .

(٤) كانت بركة السلوان Pool of Siloam تقع فى الركن الجنوبى الشرقى لبيت المقدس . ولم يقاوم المؤرخ رغبته فى الاقتباس من العهد القديم Psalm, 33 - 34 ليذكرنا بالرب الذى «يحول الأنهار إلى برية » . وجاء وصف المؤرخ للتصارع من أجل مياه بركة السلوان وصفا رائعاً . وفى تقويم أحد القديسين توجد قصة التدفق غير المتواصل للسلوان وحياة أشعيا Isaiah . انظر :

Patrologia Orientalis, 21; pp. 674 - 675.

(٥) النوميسما Nomisma أو صولدى Solidus وهو الدينار البيزنطى هى العملة المعيارية للدولة البيزنطية . وكان الدينار البيزنطى منذ عهد قسطنطين الأول ١/٧٢ من رطل الذهب . وكان ينقسم إلى ١٢ ميليارسيا ، وكل ميليارسيا تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا pholles . وبدأت قيمة العملة تنخفض أيام نقفور فوقاس . وحاول ألكسيس كومنين أن يسترد للعملة البيزنطية قيمتها ، إلا أن عملته كانت تساوى ١/٣ النوميسما الذهبية بعد أن غلب على عملته النحاس الأصفر . وأخذت قيمة النوميسما فى الهبوط فى عهد آل كومنين . أما الدينار البيزنطى فكان يساوى فى وزنه الدينار الاسلامى (٤٫٢٥ جرام ذهبا = ٦٦ حبة) الذى ضربه لأول مرة عبد الملك بن مروان فى عام ٧٤ -٧٥ هـ . وفى زمن الحروب الصليبية كانت العملات البيزنطية والفاطمية تستمتعان بثقة التجار الإيطاليين ، أكثر من الدينارات الأيوبية التى لم تكن بدرجة نقاء سابقتيها . إلا أن الدينارات الأيوبية كانت مقبولة لدى الأوربيين أكثر من الدينارات الذهبية التى ضربها الصليبيون فى بلاد الشام كعملة رسمية لإماراتهم بدلاً من العملات الفضية التى سادت أوربا زمن الحروب الصليبية . واختار الصليبيون فى ضرب ديناراتهم أن يقلدوا الدينار الفاطمى لشدة نقائه عن الدينار العباسى . إلا أن الدينار الصليبى لم يرق إلى مستوى العملات الإسلامية أو البيزنطية . انظر : ناصر النقشبندى : الدينار الإسلامى ، مجلة سومر ، بغداد ١٩٤٥م ، جـ ٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ ، ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١٠ - ٢١١ ، حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٢٦٨ ، حاشية رقم (٧٢) . راجع أيضا :

A.S. Ehrentreutz, Arabic Dinars struck by the Crusaders, in JESHO, 1964, pp. 169 ff; R.S. Lopez, Back to Gold, in EHR, 9, 1957, pp. 219-221.

(الترجمة العربية) .

(٦) يافا Jaffa (Joffa) ، مدينة ساحلية بالقرب من بيت المقدس . وقد وجد الصليبيون ميناء يافا وقد هجره المسلمون .

(٧) كان جيلدمر كاربينل Geldmer Carpinel أحد المقربين من جودفرى . وقبل موت جودفرى بفترة قصيرة ، منح حيفا لجيلدمر ولكن تنكريد منعه من أخذها . انظر :

E.G. Rey, Les Familles d'Outre - mer de Ducange, Paris, 1869, p. 264;
Albert d'Aix, op. cit., p. 521.

وكان وليام سابران William of Sabran هو سيد سابران وقد اصطحب الجيش البروفنسالى . ويظهر إسمه فى وثائق فرنسا . انظر :

HGL. 3. pp. 490 - 491, 5. : pp. 687 - 708, 731.

وكان هناك اعتقاد خاطئ بأنه أسقف البارة . أما تتابع الأحداث فهو معروف . فقد وصل خبر وصول السفن إلى الفرنج فى ١٧ يونية ، وفى اليوم التالى رحل كل من جيلدمر ووليام سابران . وفى مساء يوم ١٨ أو ١٩ يونية بدأ القتال . انظر :

Hagenmeyer, Chr. 392 - 394.

ولنا بعض التحفظات حول هذه التواريخ .

- لم يذكر جون ولوريتاهيل تحفظاتهما على هذه التواريخ أو يقوما بمناقشتها . وهذه التواريخ يأخذ بها غالبية المؤرخين الحديثين طبقا لما ورد فى الجستا .

(الترجمة العربية) .

(٨) أشارد أوف مونتميرل (مقاطعة من تريفو Trévoux) . قام برهن ميراثه لكلونى حتى يجهز نفسه للإشتراك فى الحملة الصليبية . وسار مع هيو العظيم . انظر :

Gesta, ed. Bréhier, p. 14.

(٩) عقدت جلسات مناقشة استيلاء تنكريد على بيت لحم حوالى نهاية يونية وبداية يوليو ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 396.

ويقدم ريموندا جيل هنا - وهو شاهد العيان الوحيد الذى يورد هذا الخبر - رأى رجال الكنيسة .

(١٠) « عندما يكون قدس الأقداس قد أتى » عبارة مقتبسة من العهد القديم . انظر :

Daniel, IX : 24 - 27.

(١١) يؤكد ألبرت دكس فى روايته عن هذا الاجتماع أن كونت تولوز وتنكريد قد تشاجرا فى ذلك الوقت . انظر :

Albert d'Aix, pp. 482 - 483.

(١٢) « الرب الرحيم الطيب » تعبير اقتبسه المؤرخ من العهد القديم : انظـــر :

Psalm. 77 : 38.

(١٣) « الرب الكريم » . تعبير اقتبسه المؤرخ أيضا من العهد القديم . انظـــر :

Psalm. 68 : 17.

(١٤) يضع هاجنمير هذه المسيرات فى ٨ يوليو ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 397, 398.

ولنا بعض التحفظ على رواي ريمونداجيل . فالتعليمات التى صدرت ، لاشك ، كانت قصة خيالية روحانية كتبها ريمونداجيل . ونعرف أن هناك عدة أعمال تاريخية كانت تتلى على الناس جهرة ، وأى داعية شعبى كان بإمكانه أن يؤلف هذه الرواية ليضفى السرور البالغ على جمهوره . انظر :

Matthew, 21 : 1 - 11.

ولقد اقتبس الفنانون الحديثون بكيفية باطلة صور المسيحيين حفاة الأقدام وهم يطوفون حول مدينة بيت المقدس بينما يقف المسلمون يشاهدونهم . ولا نستطيع القول بأن مسيرة الفرنج حول المدينة لم تحدث ، ولكننا نعتقد أن الصليبيين لم يكونوا من الحماقة حتى يتركوا الكثير من قواتهم معرضا لهجوم فاطمى .

– كعادته دأب ريمونداجيل على ذكر أحداث تخيلها هو دون أن تقع ، وليمنح روايته قوة التأثير على القارئ المسيحى ، فقد حشد بين أسطرها الكثير من العبارات التى اقتبسها من التوراة والإنجيل . إلا أن المتخصص يستطيع أن يتدارك طبيعة الرواية التى يسردها المؤرخ الصليبى ، حين يتأكد من أن ريمونداجيل ينفرد هنا أيضا بذكر هذا الحدث دون أن يخبرنا عنه مؤلف الجستا ، الذى حرص على تدوين كل مشاهداته بدقة ، شيئاً . وإذا كان على الفرنج الطواف بخلفائهم الدينية حول أسوار بيت المقدس فلم يكن مؤلف الجستا ليتقاعس عن القيام بذلك أو بالأحرى عن ذكر ما قد حدث .

(الترجمة العربية) .

(١٥) جاستون أوف بيـــارن Gaston of Béarn هو فيكونت بيارن أوف أولورون Oloron ومونتانر Montaner . وبعد خدمة ملحوظة فى الحملة الصليبية الأولى ، عاد جاستون إلى أوربا واشترك فى قتال مسلمى أسبانيا . انظر :

=

=

Jean de Jaurgain, La Vascounie, étude historique et Critique sur les Origines du royaume de Navarre, Pau, 1902. 2, pp. 546 - 549.

وقد اتخذ قرار بناء أدوات الحصار فى ١٥ يونية ١٠٩٩ م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 391.

(١٦) كان وليم ريكو William Ricau يعرف بوليم إمبرياكو Embriaco . وكان يقود هو وأخوه هيو Hugh سفينتين جنويتين .

– سقطت جبيل فى أيدى الفرنج فى عام ١١٠٩م ، وأخذها برتراند دى تولوز Bertrand de Toulouse بمساعدة الجنوية ، وتنازل كونت طرابلس عن إقطاع جبيل لمدينة جنوا التى تنازلت عنه بدورها لأحد مواطنيها وهو وليم إمبرياكو ، الذى شارك فى الحملة الصليبية الأولى ، والمشار إليه هنا . ونجح وليم وابنه هيو الأول (١١١٧ – ١١٣٥م) ثم من بعده وليم الثانى (١١٣٥ – ١١٥٧م) فى إقامة إقطاع قوى فى جبيل لا يتبع إلا سادة طرابلس . وكان لسادة جبيل من أسرة إمبرياكو دور فى الحرب الأهلية التى نشبت بين البنادقة والجنوية فى عكا فى أواسط القرن ١٣م/ ٧ هـ وانغمست فيها القوى الصليبية فى بلاد الشام كلها . وكان من الطبيعى أن يأخذ حكام جبيل – وفاء لأصلهم – صف الجنوية فى هذه الحرب . انظر :

E. Rey, Les, Seigneurs de Giblet, ROL, 3, 1906. pp. 399 - 402.

وعن دور آل إمبرياكو فى الحرب الأهلية انظر : حسين عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص ٤٠١ وما بعدها .

(الترجمة العربية) .

(١٧) استخدام ريمونداجيل لتعبير « خمسة أيام » قبل الهجوم النهائى يجعل تاريخ هذا الهجوم هو ٩ يوليو ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 399.

– كان الهجوم النهائى على بيت المقدس فى ليلة يوم الخميس ١٤ يوليو ١٠٩٩م . انظر :

Gesta, p. 90.

(١٨) أطلق المسلمون على الستائر التى يحتمى بها المقاتلون اسم الطارقيات والجفتيات . وهى أنواع من الستائر أو المتاريس والحواجز التى تتخذ كسترة للرجال الذين يستعضد بهم فى جر المنجنيق أو ما شاكله من أن يرموا بحجارة منجنيق آخر يقابله ، فيحمل »

= عنهم مضرتها ويكبتهم سوء إصابتها . وقد جاء وصف هذه الستائر في مخطوط « تبصرة ألباب الألباب » . انظر :

Claud Cahen, un Traité d'Armurérie, pp. 155 - 156.

(الترجمة العربية) .

(١٩) فُقدت السفن الجنوية في يافا في ١٨ – ١٩ يونية . انظر :

Hagenmeyer, Chr., 394.

(٢٠) بدأ الهجوم في يوم ١٤ يوليو . أنظر: Hagenmeyer, op. cit., 401.
ويقرر هاجنمير أن الأبراج قد نقلت في ١٢ يوليو ، وتحديده لهذا التاريخ يجعل رواية ريموندا جيل تبدو زائفة لأنه يذكر أن تحرك الأبراج كان في نفس يوم الهجوم . ويقرر رنسيمان أن الأبراج قد وضعت قبالة أسوار بيت المقدس في يوم ١٤ يوليو . وهذا يجعل رواية ريموندا جيل صادقة ، انظر : Runciman, op. cit., I, 336.

(٢١) يناقض ريموندا جيل نفسه في هذا الموضع . فأين هزيمة الفرنج وتخاذل المسلمين وقتالهم على مضض في سبيل « شريعة محمد » (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ما ذكره في الفقرة السابقة !!
(الترجمة العربية) .

(٢٢) تكشف مقدمة ريموندا جيل عن رصد الإمرأتين عن إيمانه بالسحر . وكان يوم دخول الفرنج لبيت المقدس هو ١٥ يوليو ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 405.

(٢٣) التحول من « التعاسة إلى الفرح » تعبير مقتبس من العهد القديم . انظر :

Psalm, 29 : 12.

(٢٤) وصل ريموندا جيل في وصفه للمشهد الدموي إلى قمة التعبير . وقد اقتبس تعبير « الأعمال المدهشة » من العهد القديم . انظر : Psalm, 25 : 7; 39 : 6.

(٢٥) يستعمل ريموندا جيل هنا سفر الرؤيا (B. Joannis Apostoli xiv : 20) كي يصف ذبح المسلمين حول معبد سليمان (جامع عمر بن الخطاب) . ويكرر المؤرخون الحديثون هذه الإشارة من العهد الجديد دون إمداد قرائهم بمصدرها .

(٢٦) اقتبس المؤرخ تعبير « يوم جديد » من العهد القديم . انظر : Isaiah, 65 : 17.
كما اقتبس تعبير « هذا هو اليوم الذي صنعه الرب » من مزامير العهد القديم . انظر : Psalm, 117 : 24.

(٢٧) يستعمل المؤرخ هنا معلوماته واختتامه بصلاة البعث .
– من السهل أن نلمس الفارق الكبير بين دخول الفرنج بيت المقدس وبين دخول صلاح الدين للمدينة المقدسة حين استردها من الصليبيين في عام ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ . ويوضح وصف ريموندا جيل للفظائع التي ارتكبها الفرنج حين دخلوا المدينة المقدسة ، وذبحهم للسكان ، الذين قدر المؤرخون المعاصرون عددهم بحوالي سبعين ألفا من المسلمين ، حتى أن المؤرخ نفسه حين توجه لزيارة ساحة المسجد الأقصى « أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه » . كل ذلك يوضح الفرق بين الروح الصليبية وبين روح الجهاد الاسلامي في نفس الموقف الواحد . فقد حرص صلاح الدين وهو يهاجم الفرنج في بيت المقدس على أرواح الفرنج كما حرص على ألا ينال الضرر المدينة المقدسة نفسها . وبينما كان ريموندا جيل وبنو جلدته يخوضون في دماء ضحاياهم ، كان رجال صلاح الدين بعد ثمانية وثمانين عاما ، يطوفون شوارع بيت المقدس – بناء على أوامره – يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين . واليوم الذي يحاول ريموندا جيل (الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م/٢٣ شعبان ٤٩٢ هـ) جاهدا أن يجعله يوما لتمجيد ربه ، يختلف تماما عن اليوم الذي مجده الله بالفعل (الجمعة ٢ أكتوبر ١١٨٧م / ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ)- ليلة الاسراء والمعراج – في أحداثه وفي نتائجها أيضا .
(الترجمة العربية) .

الفصل الخامس عشر

الأحداث التي تلت سقوط بيت المقدس
ومعركة عسقلان

سأنتقل إلى أمور أخرى حيث أن فى الوصف السابق الكفاية . فبعد مرور ستة أو سبعة أيام إلتفت الأمراء ، طبقاً لعادتهم ، إلى انتخاب ملك يدير المملكة ، ويجمع ضرائب الإقليم ، ويحمى الريف من المزيد من التدمير ويعمل كمستشار للناس . وأثناء هذه المناقشة ، تجمع بعض رجال الدين وعبّروا للأمراء عن آرائهم . « إننا نشيد بتحرككم ، ولكن لما كانت المسائل الروحية تسبق المسائل الدنيوية ، فإن السلوك المستقيم الصحيح ، يتطلب أن تنتخبوا أولا قائداً روحياً ، ثم بعد ذلك ، تنتخبون حاكماً علمانياً ، وإذا لم تفعلوا ذلك ، فلن نعترف باختياركم » . ولم ينتج عن هذا إلا إغضاب الأمراء والإسراع بالانتخاب [١] .

يجب أن أضيف أن رجال الدين قد ضعفوا فى ذلك الوقت ، أولاً بموت اللورد أدهيمار أسقف لى بويه الذى كان يكبح جماح الجيش ويهدئه بأعمال تثير الإعجاب وعظات كما فعل موسى . ثم مات بعد ذلك مباشرة وليام أوف أورانج ، وهو رجل محترم وأسقف كرّس نفسه لحمايتنا ، ومات فى معرة النعمان . وهكذا فبموت هذين الرجلين الطيبين ، لم يقف فى وجه الأمراء إلا أسقف البارة ، وعدد صغير معه ، أما أسقف مارتورانا الذى كان يسلك سلوكاً منحرفاً عندما فاز بطريق الغش والخداع بكنيسة بيت لحم ، فقد وقع فى أسر المسلمين بعد ثلاثة أو أربعة أيام ولم يظهر بيننا بعد ذلك أبداً [٢] .

احتقر الأمراء نصيحتنا واحتجاجنا وشجعوا ريموند سان جيل على قبول الملكية . لكنه اعترف بأنه يرتجف لدى سماعه اسم ملك فى بيت المقدس ، ومع ذلك فقد قال أنه لن يقف فى طريق أى شخص آخر يقبلها . وهكذا انتخبوا جودفرى وأعطوه القبر المقدس [٣] . ثم طلب جودفرى برج داود من ريموند ، واعترض الكونت بقوله أنه كان يخطط للبقاء فى المنطقة حتى عيد الفصح ، وطلب أن

يعامل هو ورجاله حتى ذلك الحين المعاملة اللائقة . ورد الدوق بأنه سيكون آخر من سيتخلى عن البرج ، وهكذا تطور بينهما الخلاف . كان كونت الفلاندر ، وكونت نورماندى ، يؤيدان جودفرى فضلا عن كل رجال ريموند . واعتقد رجال ريموند أن الكونت سيعود إلى لانجويدوك بمجرد أن يفقد برج داود . ولم تكن هذه هى المعارضة الوحيدة التى صادفها ريموند من قِبَلْ أتباعه البروفنساليين ، لأنهم كانوا – فى وقت مبكر – قد نشروا أكاذيب ليحولوا دون انتخابه ملكاً (٤) .

وعندما تخلى الزملاء والأصدقاء عن ريموند ، فقد سلَّم البرج لأسقف البارة حتى يتم الفصل فى هذه القضية ، ليجد الأسقف وقد سلّمه بدوره لجودفرى دون أن ينتظر قراراً . وعندما اتهم الأسقف بأنه لم يكن أميناً ، رد الأسقف بأنه فعل ذلك تحت إكراه ، وأنه عومل معاملة خشنة . وعلمت أن أسلحة كثيرة قد حملت إلى منطقة الأسقف ، أى بيت البطريرك الذى كان يقع بالقرب من كنيسة القبر المقدس . وتحدث الأسقف عن استخدام القوة الجسدية ضده ولام رجال ريموند سراً .

وبعد ضياع البرج استشاط الكونت غضباً واستاء من أتباعه قائلاً ، أنه قد أعتدى على كرامته ، وأنه سيغادر البلاد (٥) . وهكذا سافرنا من بيت المقدس إلى أريحا Jericho وجمعنا السعف وأتينا إلى نهر الأردن . وعملاً بنصيحة بارثولوميو ، صنعنا طوفاً من الفروع الصغيرة ، ووضعنا ريموند عليه ، وجدفنا عبر النهر . ثم أمرنا الحشد المتجمع أن يصلى من أجل حياة الكونت والأمراء الآخرين . واغتسلنا فى النهر المقدس ، والكونت ريموند لايرتدى إلا قميصاً وسروالاً جديداً . ولكن لماذا أصدر رجل الرب ، بطرس بارثولوميو أمراً كهذا ؟ لم يكن لدينا أى فكرة حتى الوقت الحاضر (٦) .

وعند عودتنا إلى بيت المقدس بعد هذه المهمة ، انتخب البعض أرنولف ، كاهن كونت نورماندى بطريركاً ، خلافاً لرغبة رجال الدين الطيبين ، الذين اعترضوا لأنه لم يكن مساعد شماس ، وكان من أصل كهنوتى (٧) . والأهم من ذلك كله أنه اتهم بأنه كان يداعب النساء أثناء الرحلة ، حتى أنه كان موضوعاً

لقصص فاحشة . ولا حاجة إلى القول بأن أرنولف الطموح تجاهل القرارات الكنسية ، وقد حطَّ مولده المشين وانعدام ضميره من شأن رجال الدين الطيبين ، ورفع نفسه إلى الكرسى البطريركى بصاحبة الترانيم والأناشيد والتصفيق الكبير من الناس . ولم يخش أرنولف أن يحل به العقاب الإلهى الذى حل بأسقف مرتورانا ، المحرّض والموجه لانتخاب أرنولف ، فقد ظل يأخذ دخل الكنائس من رجال الدين الذين كانت لهم هياكل فى قبر الرب ، أو من أولئك الذين تلقوا الرسوم مقابل العناية به .

وما إن استقر أرنولف فى السلطة ، حتى راح يسعى بمساعدة السكان إلى تحديد موقع الصليب الذى كان يعبده الحجاج قبل استيلاء الأتراك على بيت المقدس . ولم يعرفوا شيئاً عن موقعه ، ومضوا فى ذلك إلى حد أن أقسموا على أنهم لايعرفون شيئاً . إلا أنهم فى النهاية أجبروا على أن يقولوا « أن الوحى يقول أنكم شعب الله المختار ، وأنكم تخلصتم من المحن وأعطيت لكم بيت المقدس ، ومدناً أخرى كثيرة ، ليس بقوتكم الكبيرة بل من رب غاضب أعمى أهل الكفر وقد منح الرب ، قائدكم ، أبواب المدن التى لا يمكن اختراقها ، وكسب لكم معارك رهيبة . وإذا كان الرب فى جانبكم ، فلماذا نصر على أن تخفى آثاره عنكم » . ثم بعد قيادة الصليبيين إلى قاعة فى الكنيسة ، نقبوا عن الصليب وسلموه (٨) . وهكذا سعدنا ومجّدنا الرب القدير ، وشكرنا له حيث أنه لم يُعد إلينا مدينة آلامه فحسب ، بل أعطانا أيضا رموز صلبه وانتصاره ، حتى نتمسك به أكثر فى أحضان الإيمان ، ونحن أكثر يقيناً ، لأننا رأينا الآن آثار خلاصنا .

وفى تلك الأثناء ، كما ذكرنا من قبل ، كان جودفرى يحتفظ ببيت المقدس بالاتفاق ، وكان ريموند قد أثار حنقه الحزن والظلم بسبب ضياع برج داود ، الذى هو بلا شك مفتاح مملكة يهودا . وهكذا وضع الخطط ليعود بجزء كبير من البروفنساليين . وعلى أية حال ، فقد جاءت الأخبار بأن ملك مصر قد وصل إلى عسقلان مع قوة كبيرة من المسلمين ، بهدف مهاجمة بيت المقدس ، وقتل كل الفرنجة ممن هم فى سن العشرين وما فوقها ، وأسر الباقين مع نسائهم . وقالت

الشائعة أنه سيزوج شباب الفرنجة بنساء من جنسه ، والنساء الفرنجيات برجال من بلاده ، وبذلك يربى جنساً من المحاربين من الفرنجية الأصل [٩] .

وجعلته خطته الضخمة يتباهى بأنه سيعامل أنطاكية وبوهيمند بنفس المعاملة ، أكثر من ذلك ، فإنه سيتوج نفسه ملكا في دمشق والمدن الأخرى . فضلا عن ذلك فبعد دراسة حجم جيوشه القوية من الجنود والفرسان ، رأى أن الأتراك لم يكونوا شيئاً ، والفرنجة هازمي الأتراك لم يكونوا شيئاً ، ولم يكتف بذلك ، فقذف في حق الرب قائلاً ، أنه سيدمر مسقط رأس الرب ، والمذود الذي رقد فيه ومكان الآلام والجلجثة . وبالذات البقعة التي انبثق فيها دم الرب المصلوب ، والقبر الذي دفن فيه الرب ، وكل البقاع المقدسة الأخرى ، في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها [١٠] . بل زاد متباهيا بأنه سيخرج هذه الآثار من تحت الأرض ، ويحطمها ويسحقها ، وينثر ترابها فوق البحر ، حتى لايبحث الفرنجة بعد ذلك خارج بلادهم عن بقايا الرب التي ستكون قد ضاعت وطواها البحر [١١] .

واجتمع أمراؤنا ورجال الدين عند سماع هذه الأخبار والشائعات الأخرى عن الحشود الضخمة التي جمعها هذا الطاغية عند عسقلان ، وهي مدينة تبعد عنا مسيرة يوم ونصف اليوم . وسار الصليبيون المتجمعون حفاة الأقدام أمام القبر المقدس ، وطلبوا الرحمة ، والدموع تملأ عيونهم ، من الرب وسألوه أن يخلص شعبه الذي نصره في الماضي . كما توسلوا إليه ألا يسمح بأي تدنيس لمكان صلبه الذي تم تطهيره تواً من أجل إسمه . ثم أتينا إلى معبد الرب حفاة الأقدام ، نلتمس رحمته بالأغاني والتراتيم والذخائر المقدسة ، وهناك تدفقت صلواتنا من كل كياننا أمام الرب وتضرعنا أن يتذكر تدفق بركته في نفس المكان : « إذا كان شعبك قد أخطأ في حقك ، وكان التغيير بمثابة تكفير وأتوك مصلين في هذا المكان ، فاستمع إليهم من السماء ، يارب وخلصهم من أيدي أعدائهم » [١٢] .

وبعد مباركة الأسقف ، وضع القادة خطط المعركة ، ووسائل حماية بيت المقدس . ثم رحل جودفري وفرسانه للتحقق من الشائعات الخاصة بالأمير ، وعندما

وصلوا إلي سهول الرملة ، أرسلوا أسقف مرتورانا ، ليبلغ الكونتات في بيت المقدس بحقيقة الأوضاع . ولما تأكد القادة من وقوع المعركة ، أصدروا نداءً للرجال الأقوياء ، وصلوا للرب ، وساروا خارجين من بيت المقدس في كامل أسلحتهم وهم يحملون الحربة المقدسة . وفي اليوم نفسه وصلوا إلى السهول ، وفي اليوم التالي تحركت جيوشنا المتحدة إلى الأمام في تشكيلات يحيط بها الحراس من كل جانب [١٣] .

وعند الغروب ، اقتربنا من نهر على الطريق من بيت المقدس إلى عسقلان ، وشاهدنا عربا يرعون قطعانا من الأغنام ، وأسرنا كبيرة من الماشية والجمال . فأرسلنا مائتا فارسا للإستكشاف ، لأن العدد الكبير من العرب والدواب جعلنا نعتقد بأن قتالاً سينشب . وفي أثناء ذلك ، كما كتبنا ، سرنا في تسعة صفوف ، ثلاثة في المؤخرة ، وثلاثة في المقدمة ، وثلاثة في الوسط ، كي نواجه أي هجوم بثلاثة صفوف ، حيث يكون الصف الأوسط دائما مستعدا لمساندة الصفين الآخرين . وقد هرب الرعاة من العرب عند مشاهدة فرساننا ، ولكن إذا كان الرب قد أعانهم كما أعاننا فإنهم ، بلا شك ، كانوا سيدافعون عن حيواناتهم . وفي الواقع ، وصل عددهم إلى ثلاثة آلاف ، بينما كان جيشنا يضم ألفا ومائتين من الفرسان ، ولم يكن لدينا أكثر من تسعة آلاف من الرجالة . وبعد هروبهم ، استحوذنا على كميات لا تصدّق من الأسلاب ، وأسرنا وقتلنا عددا قليلا من العرب . ولما كان النهار على وشك الانتهاء ، فقد ضربنا الخيام ، وأرغمنا الأسرى على الكشف عن خططهم ، وعن مدى استعدادهم ، وعن أعدادهم وقوتهم . وأقر الأسرى أن العرب يريدون أن يحاصروا بيت المقدس ، وأن يطردوا ويأسروا أو يقتلوا الفرنج . وأضافوا أن أميرهم ، الذي أقام معسكره على بعد خمسة فراسخ ، سيزحف نحونا في اليوم التالي . ولم يغامر الرعاة بتقدير حجم جيشهم تقديرا قاطعا ، لأنه كان يتزايد يوما بعد يوم . أما عن دورهم . فقد أقروا أنهم كانوا رعاة شرعوا في بيع حيواناتهم للجيش المصري .

وعفا الصليبيون ، استعدادا للصدام المقبل ، كل منهم عن ذنوب الآخر التي

ارتكبها فى حقه والتى لم ترتكبها . وأصبحوا فى هياج لدرجة أنهم لم يتأكدوا من التقارير الخاصة باستعدادات العدو . وفى غمرة الثقة إعتقدوا أن يكون العرب أكثر جبنا من الغزلان وأكثر وداعة من الغنم . وتولدت هذه الثقة من إيماننا بأن الرب كان معنا فى المسالك الأخرى ، وأنه بسبب كفر الوثنيين ، سوف يبدأ وحده معاقبتهم حتى لو كانت قضيتنا واهية . وهكذا فضلنا أن نعتبر الرب كمدافع وأننا معاونوه . وصدرت الأوامر إذ ذاك لكل الجيش أن يكون الجميع مستعدين للمعركة عند الفجر . وأن ينضم كل فرد إلى قوات قائده ، وأن لايلمس أى منا الأسلاب حتى تنتهى المعركة وإلا صدر ضده قرار الحرمان . وقضينا ليلة بائسة دون خيام ، وبقليل من الخبز ، ودون نبيذ ، وبقليل من القمح والملح ، ولكن كانت إمداداتنا من اللحم ، على الأقل ، فى وفرة الرمال ، وهكذا أكلنا اللحم ، واستخدمنا لحم الضأن بدلاً من الخبز .

وعند بزوغ الفجر ، إنبعث دوى الطبول والأبوقة مستدعيا الجيش اليقظ . وهكذا تحركنا عند طلوع النهار ، والحراس مرتبون على كل الأجناب كما قلنا من قبل ، وتحركنا قدما إلى معسكر المسلمين . وبقى العرب فى معسكرهم اعتقادا منهم أنه عند سماع الأخبار بحضورهم فسنبقى بالقرب من أسوارنا ، ووصلتهم أخبار ذبح وهروب الرعاة ، وأدى ذلك إلى أن يرددوا فى أنفسهم « لقد أتى الفرنج من أجل الأسلاب والآن سوف سيعيدون أدراجهم » .

وفى الواقع ، كانت تصلهم تقارير يومية عن حالات الهروب من بيت المقدس ، وعن صغر حجم جيشنا ، وعن الوهن الذى أصاب رجالنا وجيادنا . وكانوا متأكدين ، وهم واثقين فى حجم قواتهم وقوتهم ، أنه فى إمكانهم إغراقنا ومعسكرنا فى بصاقهم . وقد نصحهم فلكيوهم ومنجموهم ، وهكذا سمعنا ، بعدم التحرك أو القتال قبل اليوم السابع من الأسبوع ، مع تحذيرهم بأن التحرك قبل ذلك التاريخ لن يكون مفيدا .

وتحركنا فى تسعة صفوف ، كما ذكرنا من قبل ، وضاعف الرب من جيشه

إلى حد أننا بدونا نبلغ حجم القوات العربية . وحدثت هذه المعجزة حين كونت الحيوانات ، التى حررناها ، قطعانا ، وتبعتنا دون أن يوجهها أحد ، فكانت تقف حين نتوقف عن السير ، وتجرى حين نسرع الخطا ، وتسير إلى الأمام إذا مافعلنا ذلك . ولم يعد فى مقدورنا تقدير البضائع ولا إحصاء مبلغ الأسلحة والخيام التى استولينا عليها ! وعندما شاهد العرب ذبح الكثيرين من رفاقهم ، ونهب الفرنج لمعسكرهم فى شغف وأمان ، أقلعوا عن القتال وقرروا « طالما أنه من المحتم علينا الفرار ، فلم الانتظار ؟ وإذا كان المسيحيون اليوم ، وقد أجهدهم السير وأنهكهم التعب بسبب الجوع والعطش ، قد سحقوا قواتنا بهجوم واحد ، فماذا يفعلون بنا وقد نالوا قسطا من الراحة ، واشتدوا بأسهم ، وقد حققوا النصر علينا ، ونحن الآن نصف أحياء ، ومستضعفين وقد أصابنا الرعب ؟ » .

ونتيجة لذلك ، عاد العرب ، وقد أسقط فى أيديهم – ماعدا بعض الاستثناءات – إلى عسقلان التى تبعد عن معسكرنا بمسافة ميل واحد . وقرر ريموند أن يبعث ببوهيمند ، وهو رجل تركى ، إلى الأمير ، بمشروع سلام ، ولكنه ذكره أنه قد رفض تسليم القدس ، واضطر إلى قتالنا [١٤] . وفى نفس الوقت ، كان على بوهيمند هذا ، أن يقرر الموقف ، وأن يرى ما إذا كان الأمير يخطط لأن يهرب أم ليقاتل ، وكيف كان رد فعله إزاء الهزيمة . وكان بوهيمند ، مع أنه تركى ، ينطق بعدة لغات ، وماهرا وأريبا ، وأيضا مخلصا لنا . وقد سمى ببوهيمند لأن بوهيمند العظيم (النورماندى) ، قد استقبله عند حوض المعمودية حين ارتد الأول عن الاسلام وجاءنا مع زوجته وأسلحته [١٥] .

وهنا ينتهى كتاب ريموندآجيل بسعادة .

* * * * *

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) يذهب هاجنمير إلى أن الإجتماع قد تم فى ١٧ - ١٨ يوليو ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 408 - 409.

راجع أيضا : William of Tyre (Babcock and Krey), n. 1, p. 380.

(٢) مات أسقف أورانج Orange فى معرة النعمان حوالى ٢٠ سبتمبر ١٠٩٩م . انظر :

Hagenmeyer, op. cit., 332.

وكان أسقف مارتورانا Marturana رجل دين من مارتورانا فى كالابريا . وكان متعاطفا مع النورمان وحث على انتخاب أرنولف ماليكورن بطريركا لبيت المقدس . وقد أدى غيابه وقت معركة عسقلان إلى حيرة المؤرخين المعاصرين .

(٣) يقرر ألبرت دكس أن تاج مملكة بيت المقدس قد عرض على كونت تولوز . وقبل إلى الاعتقاد أنه لم يُعرض عليه . ولكن المشكلة تبقى دون حل . وتدفع منافسته اللاحقة لجودفرى إلى الارتياب فى رواية ريمونداجيل . ومن المؤكد ، أنه من المحتمل أن يُعرض هذا المنصب (ملك بيت المقدس) على كونت تولوز ، وكحاج صليبى فإنه من المحتمل بالنسبة له أن يرفضه . وقد تم انتخاب جودفرى كحام للقبر المقدس .

(٤) نعتقد أن المنافسة بين جودفرى وريموند حول برج داود لم تكن كبيرة بالدرجة التى يدفعنا المؤرخ إلى الاعتقاد فيها . وبالكاد ، فإنه من المحتمل أن يكون رجال ريموند كانوا فى ذلك الوقت قد تخلوا عنه لصالح جودفرى . وقد عهد ببرج داود إلى أسقف البارة الذى أعاده إلى جودفرى . وبعد ذلك بقليل ، فى ٢٨ يوليو ١٠٩٩م ، خرج ريموند فى رحلة إلى نهر الأردن (Hagenmeyer, 411.) . وبعد انقضاء رحلته إلى الأردن ، عاد ريموند لمساعدة جودفرى عند عسقلان . لذلك فمن المحتمل أن المؤرخ يستعمل ريموند كصورة لرجل وصم بالعار بنفض التراب عن قدميه متخليا عن بيت المقدس . وربما تضاربت منافسة جودفرى بأنه أحد السادة العلمانيين مع فكرة ريموند بأن بيت المقدس ملكا للكنيسة .

(٥) إقتبس المؤرخ وصفه لغضب ريموند من العهد القديم . وغالباً مايجعل المؤرخ من ريموند موضوعا لمعارفه الكنسية . انظر : Psalm, 2 : 13.

(٦) تقودنا حقيقة أن المؤلف قد إرتاب فى حكمة تعاليم بطرس الصادية إلى الإعتقاد أن المؤلف كان يرتاب فى مصدر معلوماته .

(٧) كان انتخاب أرنولف كبطريرك لبيت المقدس فى أول أغسطس ١٠٩٩م . انظر :
Hagenmeyer, op. cit., 413.

(٨) تم العثور على الصليب فى ٥ أغسطس ١٠٩٩ م . انظر : Ibid, 415.

(٩) عسقلان Ascalon هى عسقلان Ashkelon القديمة ، وتقع على بعد أربعين ميلا من بيت المقدس . ومن الناحية النظـــرية كانت من أملاك الخليفة الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ - ١١٠٠ م) . وكانت السلطة الفعلية فى أيدى الوزير الأفضل شاهنشاه . ويكتب المؤرخ عن ملك مصر - ولابد أن الأخبار باقتراب الجيش الفاطمى قد وصلت إلى الفرنج فيما بين ٦ و ٩ أغسطس ١٠٩٩ م .

(١٠) « والمذود الذى رقد فيه الرب » تعبير مقتبس من العهد الجديد . انظـــر :
Luke, 2 : 7.

(١١) « وينثر ترابها » تعبير إقتبسه المؤرخ من العهد القديم . انظر : Psalm. 17 : 43.

(١٢) من المحتمل أن هذا المشهد والمخاطبة كانا بإيحاء من سفر الملوك . انظر : Ikings. 8.

(١٣) رحل جودفرى للاستكشاف فى ٩ أغسطس ، واقترب الصليبيون من عسقلان فى ١١ أغسطس ١٠٩٩م. وفى اليوم التالى وقعت المعركة (Hagenmeyer, 418, 420, 421) وقد حمل كونت تولوز الحربة المقدسة فى حملة ١١٠١م واستغلها أسقف ميلان تحت ترنح الحملة على القتال . وقد نوقش مصير الحربة المقدسة طويلاً . ويدعى متى الرهاوى أن الحربة التى استغلها أسقف ميلان لم تكن هى الحربة الأصلية . وذكر ألبرت دكس أن الحربة فقدت فى حملة ١١٠١م . انظر :
Runciman, The Holy Lance found at Antioch, AB. 68, 1950.

(١٤) من المحتمل أن يكون الناسخ قد بدأ قصة أخرى عند هذه النقطة .

(١٥) من الواضح أن ناسخ المخطوط هو الذى وضع آخر عبارة فى تاريخ ريموندأجيل . لأن التاريخ يتوقف عند الفقرة السابقة على العبارة الأخيرة فجأة دون أن يكمل قصة =

المفاوضات بين مبعوث ريموند والأفضل . وما أورده كل من رادولف أوف كان وألبرت دكس يكاد يكون نهاية مناسبة لفقرة ريمونداجيل . فقد أرسل مسلمو عسقلان إلى المعسكر الصليبى بالقرب من عسقلان - بعد هزيمة قوات الأفضل - أنهم لن يسلموا المدينة إلا لريموند نفسه ، وكذلك فعل أهل أرسوف ، إلا أن جودفرى المتشكك فى نوايا ريموند منذ إصراره على أخذ برج داود فى بيت المقدس ، قد رفض هذه العروض ، الأمر الذى أغضب ريموند ، وكذلك روبرت النورماندى وروبرت كونت الفلاندرز ، وقرر الجميع ترك جودفرى ، ريموند ليعود إلى وسط الشام حتى يكمل مشاريعه الصليبية ، والروبرتان كى يعودا إلى بلادهما . انظر :

Radulf of Caen, op. cit., p. 703; Albert d'Aix, op. cit., pp. 497 - 498.

أما مسألة إرتداد هذا التركى عن الاسلام فهى نهاية تتفق مع مبلغ السعادة الذى عبرت عنه جملة الناسخ التى أنهى بها تاريخ ريمونداجيل بعد أن أدرك فقدان الجزء الأخير منه . وقد أشرنا من قبل إلى بعض التحفظات حول مايورده ريمونداجيل عن ارتداد بعض الأفراد عن الدين الاسلامى الحنيف . انظر ماسبق ، الفصل الا' ، حاشية رقم (١١) .

(الترجمة العربية) .

تسنين أهم الأحداث التاريخية

- حوالى ١٠٤١ - ١٠٤٢ م . مولد ريموند سانجيل .
- ١٥ أغسطس ١٠٩٥ م . إجتماع البابا أوربان وأدهيمار أسقف لى بويه فى تورتردام لى بويه .
- ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥ م . أوربان الثانى يعلن قيام الحملة الصليبية الأولى .
- ٢٨ نوفمبر ١٠٩٥ م . سفراء ريموند سانجيل يعلنون قبول سيدهم لحمل الصليب (الاشتراك فى الحملة) .
- ١٢ يوليو ١٠٩٦ م . ريموند سانجيل يتنازل عن جزء من أملاكه لصالح كنيسة سانجيل فى حضور البابا أوربان الثانى .
- أكتوبر ١٠٩٦ م . رحيل القوات البروفنسالية إلى الشرق .
- يناير ١٠٩٧ م . المعاهدة بين البروفنساليين وبودين فى سكوتارى .
- منتصف فبراير ١٠٩٧ م . البجناك يختطفون أدهيمار .
- ١٢ أبريل ١٠٩٧ م . هجوم البروفنساليين على روسا .
- ١٨ أبريل ١٠٩٧ م . وصول رسل ألكسيس إلى رودستو .
- ٢٠ أبريل ١٠٩٧ م . المناوشات بين البروفنساليين والقوات البيزنطية .
- ٢٢ - ٢٦ أبريل ١٠٩٧ م . المحادثات بين ريموند كونت سانجيل وألكسيس كومنين .
- ١٠ مايو ١٠٩٧ م . ريموند يرحل عن القسطنطينية .
- ١٤ مايو ١٠٩٧ م . بداية حصار نيقية .
- ١٦ مايو ١٠٩٧ م . وصول القوات البروفنسالية إلى نيقية .
- ١٠ يونية ١٠٩٧ م . تقويض برج جوناتس .
- ١٩ يونية ١٠٩٧ م . إستلام نيقية .
- ٢٨ يونية ١٠٩٧ م . رحيل القوات البروفنسالية عن نيقية .
- أول يوليو - ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ م . معركة دوريليوم والرحيل إلى أنطاكية .
- ٥ أغسطس ١٠٩٧ م . مرض ريموند كونت سانجيل .

- ٢٠ - ٢٢ أكتوبر ١٠٩٧ م . بداية حصار الصليبيين لأنطاكية .
- ١٧ نوفمبر ١٠٩٧ م . وصول السفن الجنوية إلى ميناء السويدية .
- ٢٩ ديسمبر ١٠٩٧ م . هجوم قوات باغى سيان على المعسكر الصليبى .
- ٢ يناير ١٠٩٨ م . أدهيمار يأمر الفرنج بالصيام وإخراج الصدقات .
- ٩ فبراير ١٠٩٨ م . هزيمة قوات رضوان ملك حلب ووصول سفارة الأفضل إلى المعسكر الصليبى خارج أنطاكية .
- ٤ مارس ١٠٩٨ م . وصول أسطول بقيادة إدجار إثلنج .
- ٢٠ مارس ١٠٩٨ م . إتمام بناء قلعة المنبر .
- ٥ أبريل ١٠٩٨ م . إجتماع الصليبيين لتشييد قلعة فى موضع دير القديس جورج .
- ٢٥ مايو ١٠٩٨ م . إقتراح بوهيمند بأن تؤول أنطاكية لمن يضع يده عليها .
- ٢٩ مايو ١٠٩٨ م . الأمراء الصليبيون يعقدون مجلساً للإتفاق مع بوهيمند .
- ٢ يونية ١٠٩٨ م . بوهيمند يكشف عن خطته للإستيلاء على أنطاكية بمساعدة فيروز .
- ٣ يونية ١٠٩٨ م . سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين .
- ٢٨ يونية ١٠٩٨ م . هزيمة كربوغا .
- ٣ يوليو ١٠٩٨ م . مجلس الأمراء الصليبيين يؤجل الرحيل إلى بيت المقدس .
- أول أغسطس ١٠٩٨ م . موت أدهيمار .
- ١٤ سبتمبر ١٠٩٨ م . مساعدة ريموند كونت سانجيل لجودفرى عند عزاز .
- أكتوبر ١٠٩٨ م . البروفنساليون يستولون على البارة .
- ٥ نوفمبر ١٠٩٨ . إجتماع الصليبيين فى كنيسة القديس بطرس فى أنطاكية .
- ١١ - ١٢ ديسمبر ١٠٩٨ م . الاستيلاء على معرة النعمان .
- ٢٩ ديسمبر ١٠٩٨ م . إجتماع بوهيمند وريموند سانجيل .
- ٤ يناير ١٠٩٩ م . إجتماع الأمراء الصليبيين لمناقشة استئناف المسير إلى بيت المقدس .
- ١٣ يناير ١٠٩٩ م . رحيل ريموند من معرة النعمان .
- ٢٥ يناير ١٠٩٩ م . وقوع الصليبيين فى كمين .
- ٤ فبراير ١٠٩٩ م . استقبال سفراء أتابك حمص وأمير طرابلس .
- ١٤ فبراير - ١٣ مايو ١٠٩٩ م . حصار عرقة .
- ٨ أبريل ١٠٩٩ م . إختبار الحربة المقدسة .
- ١٠ - ١١ أبريل ١٠٩٩ م . سفراء ألكسيس يعترضون على استيلاء بوهيمند على أنطاكية .
- ١٦ مايو ١٠٩٩ م . رحيل الصليبيين عن طرابلس .
- ٣ يونية ١٠٩٩ م . الفرنج يدخلون الرملة .
- ٧ يونية ١٠٩٩ م . إقتراب الصليبيين من بيت المقدس .
- ٩ يونية ١٠٩٩ م . ريموند بيليه وريموند أوف تورين يقومون بغارة ناجحة .
- ١٧ يونية ١٠٩٩ م . وصول السفن الجنوية إلى يافا .
- ٨ يوليو ١٠٩٩ م . موكب الفرنج حول أسوار بيت المقدس .
- ١٣ - ١٥ يوليو ١٠٩٩ م . الهجوم النهائى والاستيلاء على بيت المقدس .
- ٢٢ يوليو ١٠٩٩ م . إنتخاب جودفرى .
- ٢٨ يوليو ١٠٩٩ م . رحيل ريموند سانجيل عن بيت المقدس .
- ١٢ أغسطس ١٠٩٩ م . معركة عسقلان .

المصادر والمراجع

التي اعتمدت عليها الترجمة العربية فى المقدمة والتعليق

بيـــان بالمختصـــرات
التى وردت فى مقدمة وهوامش الترجمة العربية

A. B.	- Analecta Bolandiana.
A. O. L.	- Les Archives de L'Orient Latin.
A. H. R.	- American Historical Review.
A. R. A. H. A.	- Annual Reports of The American Historical Association.
B.	- Byzantion.
B. E. O.	- Bulletin des Etudes Orientale.
B. I. H. R.	- Bulletin of the Institute of Historical Research.
B. P. I. A. S. A.	- Bulletin of the Polish Institute of Arts and Science in America.
B. S. O. A. S.	- Bulletin of School of Oriental and African Studies.
C. E.	- Collier's Encyclopedia.
Ch. H.	- Church History.
J. S.	- Journal des Savants.
Latomus	- Latomus.
M. S.	- Medieval studies.
R. H. C. - H. Occ.	- Recueil des Historiems des Croisades. Historiens Occidentaux.
R. H. E.	- Revue d'Histoire Ecclesiastique.
R. H. G. F.	- Recueil des Historiens des Gaules et de la France.
R. O. L.	- Revue de L'Orient Latin.

R. S.	- Rolls Series.
S. E.	- Sacri Erudiri.
S. M.	- Studia Medivalia.
S. M. C.	- Studies in Medieval Culture.
Speculum	- Speculum.
Traditio	- Traditio.

أولاً : المصـــادر

(ا) المصادر الأصلية الأوربية

- Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., Vol. IV.
- Anne Comnen, The Alexiad, English trans. by Elezabth Dawes, Loodon, 1928.
- Anonymi, Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum (ed. by Rosalind Hill. as The Deeds of The Francs and The Other Pilgrims to Jerusalem), London, 1962.
- Beshada (Gregory), Chanson d'Antioche en Provencal, French trans. by P. Meyer, in A. O. L., Vol. 1.
- Epistolae et Chartae ad historiam primi belli Speciantes, in Die kreuzzugabriefe, ed. H. Hagenmeyer, Insbruck, 1901.
- Epistolae Regis Ludovici VII, in R. H. G. F., Vol. 16.
- Fulcher of Chartres, Gesta Francorum Iherosolem (ed. by Frances Rita Rayan, as A History of the Expedition to Jerusalem), Tennessee, 1969.
- Monitum in Balduini III Historiae vel Antiochenae Prologum, in R. H. C. - H. Occ., Vol. v.
- Radulph of Caen, Gesta Tancridi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana, in R. H. C. - H. Occ., Vol. III.
- Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.
- Robert le Moine, Historia Hierosolymitana, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.
- Tudebod, De Hierosolymitano Itinere, in R.H.C. - H. Occ., Vol. III.

- Vitalis (Ordric), Historia Ecclesiastica, ed. M. Chibnall, 6 vols, Oxford, 1975.
- Walter The Chancellor, Bella Antiochena, in R.H.C. - H. Occ., Vol. V.
- William of Malmesbury, Gesta Regum Anglorum, 2 vols, ed. W. Stubbs, in R. S., London, 1889.
- William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols., trans and annotated by Emily Babcock and A. C. Krey, New York, 1943.

(ب) المصادر العربية

- ابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م) أبو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

  « الكامل فى التاريخ » - ١٢ جـ - القاهرة (المطبعة الأزهرية) ١٣٠١ هـ .

- ابن العديم (ت ٦٦٠ هـ/١٢٦٢م) كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة :

  « زبدة الحلب من تاريخ حلب » - ٣ جـ - تحقيق سامى الدهان - دمشق ١٩٥١م .

- ابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد الدين على بن محمد :

  « ذيل تاريخ دمشق » - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م .

- ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ/١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :

  « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » - ٣ جـ - تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٦٠ م .

- أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن على :

  « تقويم البلدان » - نشره رينو وديسلان - باريس ١٨٤٠ م .

- الطرطوسى (عاش فى القرن ٦ هـ / ١٢ م) مرضى بن على :

  « تبصرة ألباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الأعلام فى العُدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » - نشره مع ترجمة فرنسية ، كلود كاهن : انظر :

=

Cahen (Claud), Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin, in B. E. O., 1947 - 1948, pp. 103 - 163.

- القلقشندى (ت ٨٢ هـ/١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله :
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » – ١٤ جـ – القاهرة ١٩١٣، – ١٩٣٣م .

- ياقــوت الرومى الحمــوى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م) أبو عبــد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين :
« معجم البلدان » – ٤ جـ – ليبزج ١٨٦٦ – ١٨٧٠ م .

(جـ) المراجع الثانوية الأوربية

-- Brundage (James), An errant Crusader, stephen of Blois, in Traditio, Vol. 16, 1959.

-- Cahen (Claud), La Syrie du Nord a l'Epoque des Croisades et la principaute Franque Antioche, Paris, 1940.

-- Chalandon (F.), Histoire de la Premiére Croisade, Paris, 1925.

-- Charanis (Peter), Aims of The Medieval Crusades and how they were viewed by Byzantium, in Ch. H., vol - 21, 1952.

-- Davis (R. H. C.), William of Tyre, in Relation between East and West in the Middle Ages, ed. by Derek Baker, Edinburgh, 1973, pp. 64 - 76.

-- Duc De Castries, La Conquéte de la Terre Sainte par Les Croisés, Paris, 1973.

-- Edbury (Peter) and Rowe (J.G.), William of Tyre and the Patriarcal electiion of 1180, in E. H. R., vol. 366, 1978.

-- Ehrentreutz (A. S.), Arabic Dinars struck by the Crusaders, in J. E. S. H. O., 1964.

-- Fink (H.), Fulcher of Chartres. Historian of the Latin Kingdom of Jerusalem, in S. M., vol. 5, 1975.

-- France (J.), The departure of Tatikos from the Crusader Army, in B.I.H.R., vol. 44, no. 110, 1971.

-- Glaesner (H.), Raoul de Caen, Historien et Ecrivain, in R.H.E., vol. 46, 1951.

-- Gransden (A.), Historical Writing in England (550 - 1307), 2 Vols, London, 1974.

-- Gutstein (M.), Maccabees, in C. E., vol. 15, New York, 1984.

-- Richard (J.), Raymond d'Aguilers, Historien de La Premiére Croisade, in J.S., 1971.

-- Riley - Smith (J.), A Note on Confraternities in Latin Kingdom of Jerusalem, in B. I. H. R., vol. 44, 1971.

-- Runciman (steven), -- The First Crusaders' Journey across The Balkan Peninsula, in B., vol. 18, 1948.

-- The Holy Lance Found at Antioch, in A.B., vol. 88, 1950.

-- A History of the Crusades, 3 vols, Cambridge, 1968.

-- Tatcher (O.), Critical work on the sources of The First Crusade, in A. R. A. H. A., vol. 1, 1900.

-- Vessey (D.W.C.), William of Tyre and the art of Histriography, in M. S., vol. 35, 1973.

-- Hagenmeyer (H.), Die Kreuzzugsbriefe, Insbruck, 1901.

-- Hamilton (B.), The Latin Church in the Crusader States, The Secular Church, London, 1980.

-- Haskins (C. H.), The Normans in European History, Cambridge, 1915.

-- Hill (John H. and Laurita L.), Raymond IV de Saint Gilles, Toulouse, 1959.

-- Huygens (R. B. C.), Guillaume de Tyre Etudiant, Un Chapiter (XIX. 12) de son " Histoire ", retrouvé, in Latomus, vol. 21, 1962.

-- Editing of William of Tyre, in S. E., vol. 27, 1984.

-- Krey (A. C.), William of Tyre, The Making of An Historian in the Middle Ages, in Speculum, vol. 15, no. 2, 1941.

-- La Mont (J. L.), From Crusading Kingdom to Commercial Colony, in B.P.I.A.S.A, vol. 3, 1944 - 45.

-- Lepez (R. S.), Back to Gold, in E.H.R., vol. 9, 1957.

-- Munro (Dana), The Speech of Pope Urban II at Clermont, in A.H.R., vol. XI, 1906.

-- Nesbitt (J. W.), The rate of march of Crusading Armies in Europe, in Traditio, vol. 19, 1963.

-- Oman (Ch.), A History of the Art of war in the Middle Ages, 2 vols, London, 1924.

Ostrogorsky (G.), History of the Byzantine State, English trans. by Joan Hussey, Oxford, 1924.

-- Prawer (J.), The Latin Kingdom of Jerusalem, Jerusalem, 1972.

-- Rey (E. G.), Résume de Histoire des Princes d'Antioche, in R.O.L., vol. VIII, Paris, 1900 - 1901.

-- Les Seigneurs de Giblet, in R.D.L., vol. 3, Paris, 1906.

(د) المراجع العربية والمعربة

- السيد الباز العرينى (دكتور) :

« مؤرخو الحروب الصليبية » ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

« التاريخ والمؤرخون العرب » ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ م .

- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى،الاسكندرية ١٩٦٧م.
- الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ .

- جيبون (إدوارد) :

« إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » نقله إلى العربية لويس إسكندر ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

- حسين محمد عطية (دكتور) :

- إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها السياسية بالدول الإسلامية المجاورة (١٠٩٨ - ١١٧١م) ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م .
- إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١م- ١٢٦٨م) ، الاسكندرية ١٩٨٩ م .

- رأفت عبد الحميد محمد (دكتور) :

« الدولة والكنيسة » - جـ ٤ - القاهرة ١٩٨٣ م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

- قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٧٥ م .

- شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٦ ، القاهرة ١٩٦٩ م .

- الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى في العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

- محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (١٠٩٧ - ١١٤٤ م) الاسكندرية ، ١٩٧٢ م .

- الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ م .

- ناصر النقشبندى (دكتور) :

- الدينار الاسلامى ، مجلة سومر ، ج ٢ ، بغداد ١٩٤٥ م .

قائمة مصادر ومراجع الترجمة الإنجليزية

أ - المخطوطات

MS. Latin 14,378, Bibliothéque Nationale, Paris.

MS. Latin 5131, Bibliothéque Nationale, Paris.

MS. Latin 5511 A, Bibliothéque Nationale, Paris.

MS. Latin 1102, Bibliothéque de l'Arsenal, Paris.

MS. Latin Add. 8927, British Museum, London.

MS. Latin 262, Bibliothéque de la ville, Clermont-Ferrand.

MS. Latin 261, Burgerbibliothek, Berne.

ب - المصادر

Acta Sancti Brendani, edited by Patrick F. Moran (Dublin, 1872).

Acta sanctorum quotque toto orbe coluntur, vel a Catholicis scriptoribus celebrantur (Antwerp, Paris, Rome, Brussels, 1643-1940).

The Alexiad of the Princess Anna Comnena, translated by Elizabeth A.S.Dawes (London, 1928).

Albertus Aquensis, Historia Hierosolymitana in Recueil des historien des croisades: historiens occidentaux 4 (Paris, 1879). Hereafter cited RHC Occ.2

Anonymi gesta Francorum et aliorum Hierosolimitanorum, edited by Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg,1890).

Breviarium Romanum (4 v.Ratisbonae, 1923).

COMNENA, ANNA. 1937-1945. Alexiade, Régne de l'empereur Alexis I Comnéne (1081-1118). edited by B. Leib in Collection byzantine de l'Association Guillaume Bude (Paris).

La Chanson d'Antioche, edited by Paulin Paris (2 v. Paris, 1848).

Fulcherius Carnotensis. Historia Hierosolymitana. Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium in RHC Occ 3 (Paris,1866).

—— Historia Hierosolymitana. Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium, edited by Heinrich Hagenmeyer (Heidelberg. 1913).

The Golden Legend of Jocobus de l'oragine, translated by G.Ryan and H.Ripperger, 1 (New York, 1941).

HAGENMEYER, HEINRICH. 1901. Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088-1100 (Innsbruck).

Histoire anonyme de la premiére croisade, edited and translated by Louis Bréhier (Paris, 1924).

KREY, A. C. 1958. The First Crusade (Cloucester).

Patrologiae cursus completus: Series Latina, edited by J. P. Migne (Paris, 1844-1864). Hereafter cited as MPL.

Patrologiae Orientalis, edited by R. Graffin and F. Nau (Paris, 1907).

Notitiae duae Lemovicensis de Praedicatione crucis in Aquitania in RHC Occ 5 (paris, 1895).

Radulphus Cadomensis, Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

Raimundus de Aguilers, Historia Fran Corum qui ceperunt Iherusalem in RHC Occ 3 (Paris, 1866).

Rituale Ecclesiae Dunelmensis, edited by J. Stevenson, in Surtees Society 10 (London, 1839).

THORPE, BENJAMIN, editor and translator. 1844-1846. The Homilies of the Anglosaxon Church (2 v. London).

Tudebodus. Petrus. Historia de Hierosolymitano itinere in RHC Occ 3 (Paris. 1866).

Willelmus Tyrensis archiepiscopus, historia rerun in partibus transmarinis gestarum in RHC Occ 1 (Paris, 1844).

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Seas,

translated by E.A. Babcock and A. C. Krey (New York,1943).

جـ - المراجع

ALPHANDÉRY, P. and A. DUPRONT. 1954. La chrétienté et Idée de croisade (Paris).

ANDRESSOHN, J. C. 1947. The Ancestry and Life of Codfrey of Bouillon (Bloomington).

ARBELLOT, ABBÉ. 1881. Les Chevaliers Limousins á la premiére croisade (Paris).

ATIYA, A. S. 1962. The Crusade: Historiography and Bibliography (Bl oomington).

BALDWIN, MARSHALL W. 1940. "Some Recent Interpretations of Pope Urban's Eastern Policy". Catholic Hist. Rev. 25.

BRUNDAGE, JAMES A. 1959. "Adhémar of Puy. The Bishop and His Critics", Speculum 24.

____ 1960. "An Errant Crusader: Stephen of Blois," Tradition 16

____ 1964. "Recent Crusade Historiography: Some Observations and Suggestions". Catholic Hist. Rev. 49.

CASTAING-SICARD, MIRELLE, 1961. Monnaies féodales et circulation monétaire en Languedoc (X-XIII siécles) in Cahiers de l'association Marc Bloch de Toulouse, études d'histoire méridionale (Toulouse).

DALY, WILLIAM. 1960. "Christian Fraternity, the Crusaders, and the Security of Constantinople, 1097-1204: The Precarious Survival of an Ideal". Mediaeval Studies 22.

DAVID, CHARLES W. 1920. Robert Curthose, Duke of Normandy (Cambridge).

DESHAMPS, PAUL. 1934. Les Chdteaux des croisés en Terre

Sainte: le Crac des Chevaliers (Paris).

DEVIC, DOM, CL..., and DOM. J. VAISSETE. 1872-1893. Histoire gendrale de Languedoc (15 v., Toulouse).

DUNCALF, FREDERIC. 1928. "The Pope's Plan for the First Crusade". The Crusades and Other Historical Essays Presented to Dana C. Munro (New York).

DUSSAUDm RENÉ. 1927. Topographie historique de la Syrie antique et médiévale (Paris).

ERDMANN, C. 1935. Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens (Stuttgart).

FINK, HAROLD S. 1959. "The Role of Damascus in the History of the Crusades". The Muslim World 49.

GAUSSIN, PIERRE-ROGER. 1960. L'Abbaye de la Chaise-Dieu (1043-1518) (Paris).

GOLB, NORMAN. 1966. "New Light on the Persecution of French Jews at the Time of the First Crusade"> Proc. Amer. Acad. Jewish Research 34.

GROUSSET, RENÉ. 1934-1936. Histoire des croisades et du royaume franc de Jerusalem (3 v., Paris).

HAGENMEYER, HEINRICH. 1902-1911. "Chronologie de la premiére croisade, 1094-1100". Revue de l'Orient latin 6-8.

____ 1876. Peter der Eremite. Ein Kritischer Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges (Leipzig).

HERMANNSON, HALLD´OR. 1936. "The Problem of Wineland". Islandica 25.

HILL. JOHN HUGH, 1951, "Raymond of Saint-Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship". Speculum 26.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1953. "The Convention of Alexius Comnenus and Raymond of Saint-Gilles". Amer. Hist.

Rev. 53.

LA MONTE, JOHN L. 1940. "Some Problems in Crusading Historiography". Specutum 15.

LEA, H. C. 1892. Superstition and Force (Philadelphia).

MAURY, ALFRED. 1896. Croyances et légendes du Moyen Age (Paris).

MAYER, HANS EBERHARD. 1960. Bibliographie zur Geschichte der Kreuzzuge (Hannover).

____ 1960, "Zur Beurteilung Adhemars von Le Puy". Deutsches Archiv n. 2.

MUNRO, DANA C. 1906. "The Speech of Pope Urban II at Clermont, 1995". Amer. Hist. Rev. 11.

NICHOLSON, ROBERT LAWRENCE. 1940. Tancred: A Study of His Career and Work in Their Relation to the First Crusade and the Establishment of the Latin States in Syria and Palestine (Chicago).

PAPON, JEAN-PIERRE. 1778. Historire générale de Provence 2 (Paris).

PORGES, WALTER. 1946. "The Clergy , the Poor, and the Non-Combatants on the First Crusade". Speculum 21.

RÉAU, LOUIS. 1955. Iconographie de l'art Chrétien (Paris).

REY, EDOUARD G> 1869. Les Familles d'outre-mer, de du Cange (Paris).

RIANT, PAUL. 1881. "Inventaire critique des lettres historiques des croisades". Archives de l'Orient Latin 1.

ROUSSET.P. 1945. Les Origines et les caractéres de la première croisade (Neuchâtel).

RUNCIMAN, STEVEN. 1951. A History of the Crusades 1 (Cambridge).

Rev. 58.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1954. "Justification historique du titre de Raymond de Saint-Gilles: 'Christianc milicie excellentissimus princeps' ". Annales du Midi 66.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1955. "Contemporary Accounts and the Later Reputation of Adhémar, Bishop of Puy". Medievalia et Humanistica 9.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1959. Raymond IV de Saint-Gilles 1941 (ou 1942)-1105. Bibliothéque Méridionale, Série historique 35 (Toulouse).

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1960. L'Allégorie chrétienne dans les récits relatifs au Wineland". Le Moyen Age n,1-2.

HILL, JOHN HUGH and LAURITA L. 1962. Raymond IV, Count of Toulouse (Syracuse).

HOWORTH, SIR HENRY H. 1912. Saint Gregory the Great (London).

JAURGAIN, JEAN DE. 1902. La Vasconie, étude historique et critique sur les origines du royaume de Navarre, du duché de Gascogne, des comtés de Comminges d'Aragon, de Foix, de Bigorre, d'Alava et de Biscaye, de la vicomté de Béarn et des grand fiefs du duché de Gascogne 2 (Pau).

KLEIN, CLEMENS, 1892. Raimond von A guilers, Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges (Berlin).

KNAPPEN, MARSHALL, M. 1928. "Robert II of Flanders in the First Crusade". The Crusades and other Historical Essays Presented to Dana C. Munro (New York).

KREY, A. C. 1958. The First Crusade (Cloueester).

____ 1948. "Urban's Crusade__ Success or Failure". Amer. Hist.

محتـــويات الكتـــــاب

____ 1950. "The Holy Lance Found at Antioch". Analecta Bollandiana 68.

SETTON, KENNETH, M. 1955. A History of the First Crusade, The First Hundred Years 1 (ed. Marshall Baldwin, Philadelphia).

SMAIL, R. C. 1956. Crusading Warfare (1097-1193). A Contribution to Medieval Military History (Cambridge).

SUMBERG, L. A. M. 1959. "The Tafurs' and the First Crusade". Medieval Studies 21.

TEYSSÉDRE, BERNARD. 1959. Le Sacramentaire de Gellone (Toulouse).

VILLEY, M. 1942. La Croisade. Essai sur la formation d'une théorie juridique (Paris).

WILLARD, RUDOLPH. 1935. Two Apocrypha in Old English Homilies in Beiträge zur Englischen Philologie 30.

YEWDALE, RALPH BAILEY, 1917. Bohemond 1, Prince of Antioch (Prinection).

الموضوع	الصفحة
فهرست الخرائط	

